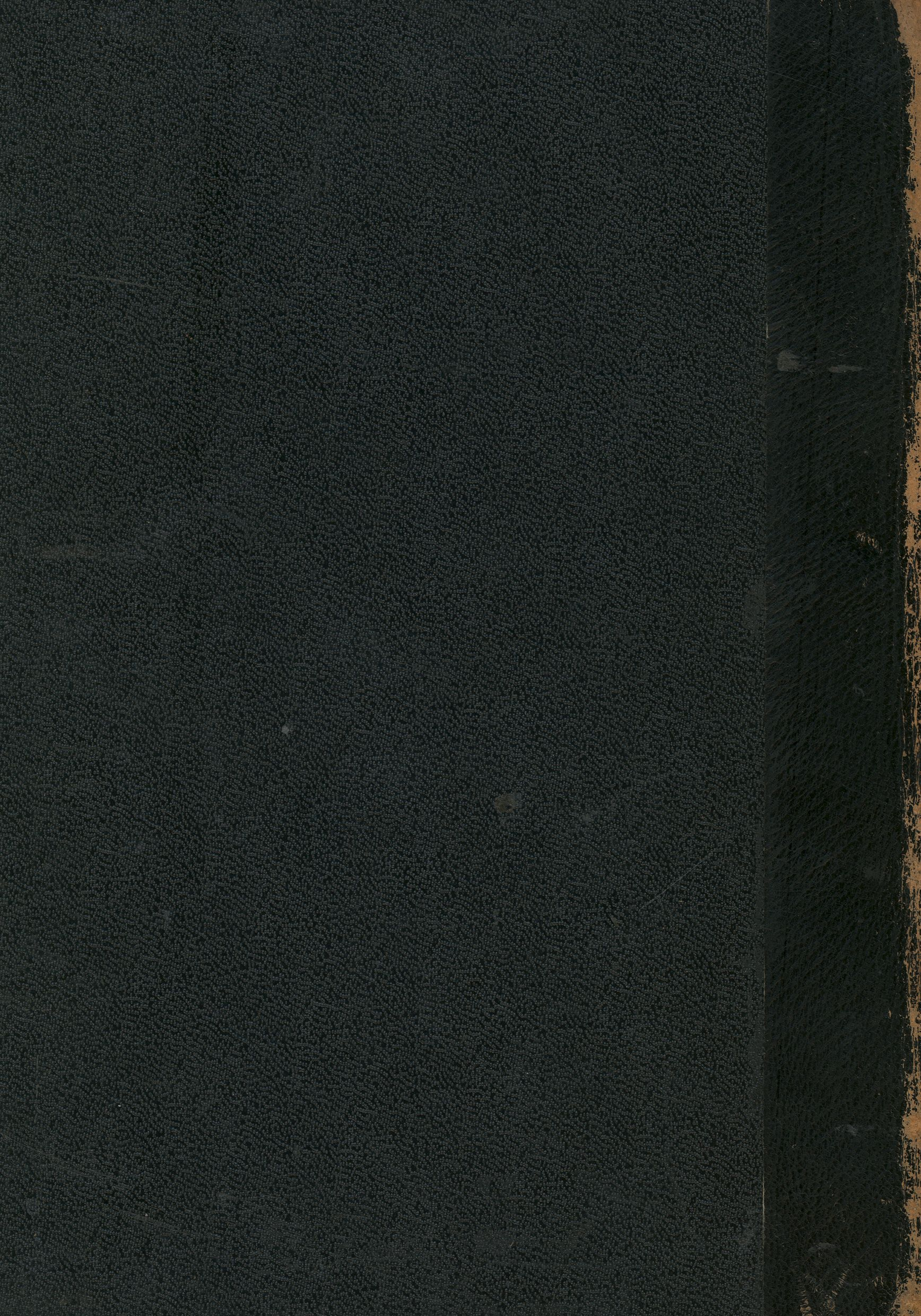




قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صُوى «ومنارا» كمنار الطريق

٣٠ ربيع الاول سنة ١٣٥٤ برج السرطان سنة ١٣١٣ هـ ش ١ يوليو سنة ١٩٣٥

﴿ فاتحة المجلد الخامس والثلاثين ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ * وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلا القَوْمُ الكَافِرُونَ * وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا القَوْمُ الضَّالُّونَ ؟

نرجو ان ندخل بهذه السنة فى عهد جديد لدعوة القرآن نفتتح بها المجلد ٣٥ من المنار والمجلد ١٣ من تفسير القرآن الحكيم، والطبعة الثالثة من كتاب الوحي المحمدي، بعد أن بينا للمسلمين فى السنين الخالية جميع الاسباب والعلل التى فقدوا بها هداية دينهم وعز ملكهم وحضارته بالاعراض عن تدبر القرآن وجميع ما يجب عليهم من علم وعمل لاستفادة ذلك كله بالقرآن، وإقامة الحجج والآيات على ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) في تبليغه وتنفيذه، وسنة خلفائه الراشدين فى فتوحه وتأسيس دولته وإقامة

أحكامه بين الشعوب المتباينة الاجناس واللغات ، والملل المختلفة الاصول والمذاهب والحضارات ، واننا نذكر القراء بخلاصة من ذلك

أمة موسى وأمة محمد والتوراة والقرآن

فى مدة أربعين سنة انقرض جيل من بنى اسرائيل فى التيه ونشأ جيل آخر: انقرض الجيل الذى تعبده فرعون واستذله فقال زعماؤه لموسى لما دعاهم إلى دخول الارض المقدسة التى كتبها لهم ووعدهم بالغلبة على أهلها إذا دخلوها — (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ونشأ جيل جديد أخذ التوراة بقوة ودخلوا البلاد ففتحها الله لهم كما وعدهم

وفى عشرين سنة أسس محمد رسول الله وخاتم النبيين (ص) بدعوته دينا كاملا وامة متحدة ودولة قوية عادلة فقدر فى الجيل الاول من قومه بالقرآن من أول يوم . فأخرجهم الله بدعوته من الظلمات إلى النور فى عشر سنين ، وفتح بهم جزيرة العرب فى عشر سنين ، وفتح خلفاؤه من بعده ملك كسرى وقيصر فى عشرين سنة ، ولم ينقض القرن الاول من هجرته إلا وقد تم لامته نشر ملكهم ودينهم من آخر حدود أوربة فى الغرب إلى جدار الصين فى الشرق ، وأدى لهم فغفور الصين الجزية

بماذا فعل المسلمون هذه المعجزات فى الفتح الدينى الاجتماعى السياسى ؟ مافعلوها إلا بأخذهم القرآن بقوة كما أخذ بنو اسرائيل التوراة بقوة ، وكان تأثير كل من الكتابين بقدره : التوراة هداية لشعب صغير وعد بوطن صغير إلى أجل معلوم ففتحوه وتمكنوا فيه إلى أجل معلوم ، ثم عاقبهم الله بظلمهم وإفسادهم فى الأرض فسلط عليهم من شاء من عباده الى أجل آخر ثم سلب ملكهم ببغيهم ، والقرآن هداية عامة لجميع الشعوب والقبائل وعد أهله بخلافة الارض كلها (٦:١٦٥ وهو الذى جعلكم خلائف فى الارض * ٢٤: ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) ووفى لهم بما وعدهم في أكثر الارض التى عرفوها ما أقاموا القرآن باقامة الحق والعدل في الناس والشكر لله ، ثم سلب منهم أكثر ما أعطاهم بكفر هذه النعمة ، والفسوق عن هذه الهداية ، ومن العجب أن يفعل اليهود اليوم ما لا يفعل العرب لاستعادة مجدهم

ولكن أمة محمد ليسوا شعبا صغيراً كقوم موسى (عليهما الصلاة والسلام) بل أمة دعوته جميع البشر وأمة الاجابة لهم المهتدون بالقرآن وسنته فى إقامته، وما وعدهم به هو الأرض كلها لا أرض فلسطين، ودينهم عام باق الى يوم القيامة لا خاص موقت محدود

فتح العرب العالم بالقرآن

إن المسلمين كفروا هذه النعمة قبل أن يتم لهم فتح أكثر الغرب كما فتحوا أكثر الشرق، بأن استبدلوا بهداية القرآن بدعا سرت اليهم نظرياتها الباطلة من الأديان والفلسفة والآداب التى كان عليها الشعوب التى فتحوا بلادها بقوة القرآن لا بقوة السيف والسنان، فقوة العرب الحربية كانت دون قوة الرومان، ودون قوة الفرس، اللتين كانتا اقوى دول الارض، وكان يدين لهما كثير من العرب المجاورين لبلادهما، وكانت أضعف من البربر فى شمال افريقية ومن القوط (والاسبانيول) فى غرب أوربة. ومن الغال في جنوب فرنسة من الغرب، ومن الهنود فى الشرق، وناهيك ببعد المسافات بين جزيرة العرب وبين هذه الاقطار، وما يزعمه بعض الافرنج ومقلديهم من ان سبب فوز العرب بذلك الفتح السريع الواسع هو ما كان طرأ على تلك الدول والامم من الفساد والضعف فهو تعصب ظاهر فمهما تكن عليه تلك الامم من ضعف وفساد فالعرب كانوا افسد وأضعف من كل واحدة منها قبل الاسلام وبه سادتها كلها ؛ وما هو الا نور القرآن

عصر الصحابة ومنتهى علمهم

ان الصحابة الكرام (رض) هم الذين اسسوا هذا الملك الاسلامى العظيم العادل الرحيم، فيما يسمى العالم القديم، وكان أكثرهم أميين، لم يكن عندهم كتاب يهتدون به في فتوحهم وحكمهم إلا هذا القرآن وحده، وما كانوا يعتمدون في فهمه إلا على ملكة لغته وما بينه لهم النبي (ص) من هداية القول والفعل وهو سنته وهديه، وتلاهم التابعون الذين حفظوا عنهم القرآن والسنن والآثار فكانوا في الدرجة الثانية لدرجتهم ايمانا وعلماً بالاسلام وعملا وتخلقا به وجهاداً في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وفتحاً للامصار وحكما بين الناس بالحق والعدل، وقل فيهم الاميون وكثر المتعلمون، ولكن لم يكن فى أيديهم كتاب غير القرآن يهتدون به فى تزكية أنفسهم وإصلاحها، ويهدون به غيرهم من الشعوب التى كانت تدخل فى دين الله أفواجا. ويجدون الاسلام خيراً مما كانوا عليه هدى وصلاحا وعلماً وعدلا وأدبا وفضلا

عصر التابعين في هديهم وحكمهم وفتحهم

وبدأ التابعون بكتابة السنن والآثار حفظاً لها من الضياع بيد أنهم لم يتخذوا منها كتابا مدونا مع القرآن يدينون الله بالعمل به فى عباداتهم الشخصية وفى قضاء حكومتهم وسياستها، بل ظلوا يهتدون بالقرآن وبما كان عليه الصحابة من سنن النبي (ص) وهديه وبسيرة خلفائه الراشدين فى الفتح والسياسة والقضاء ، ومن ذلك الاجتهاد فيما ليس فيه نص قطعي من القرآن او سنة عملية لا تختلف فيها الافهام والآراء : اجتهاد الافراد لأنفسهم فى الأحكام الشخصية الخاصة ، واجتهاد أولي الامر من الأئمة والقضاة وقواد الجيوش فى الاحكام العامة ، مع مراعاة الشورى فيها ، فكانوا على منهاج الصحابة فى ذلك كله ، وناهيك بكتب عمر وعلي الى عمالها ككتاب عمر الى شريح فى القضاء وكتاب علي الى الاشتر النخعي فى السياسة العامة

عصر العلم وما يجب من النظام الواقى من الشقاق فيه

ثم جاء عصر التدوين والتصنيف للحديث والسير والآثار والفقه ، وتلا ذلك تدوين اللغة وفنونها ووقائع التاريخ ، وترجمة علوم الاوائل بأنواعها كالرياضيات والتاريخ الطبيعي والطب والفلك والفلسفة بأقسامها والتصوف بنوعيه الخلقي والفلسفي ، ودرسوا هذه العلوم واجتهدوا فيها ونقدوا ونقحوا وأتموا ما كان ناقصا وزادوا على من كان قبلهم ، عملا بارشاد القرآن الى النظر فى آيات السموات والأرض وما بينهما وما خلق الله من شيء وسنن الله فى الأمم

كان من سنة العمران وطبيعة الاجتماع فى ذلك أن تصير علوم الدين والدنيا كلها فنوناً صناعية ، وأن يختص بكل جنس منها طوائف من الناس للتوسع والنبوغ فيها ، وأن يكون لكل منها تأثير فى أنفس النابغين فيه قد يعارض غيرهم باختلاف الفهم والقصد من العلم وموضوعه وفائدته

وكان يجب فى هذه الحال أن يكون للتعليم نظام جامع يوجه كل علم الى الغاية منه دينية كانت أو عقلية أو عملية كما أرشد اليه القرآن الحكيم ، وأن يظل القرآن والاسوة بالرسول (ص) فى تبليغه وتربية الامة كما كان فى عهده وعهد خلفائه الاربعة هديا إلهيا عملياً لانزاع فيه وينزه عن أن يكون صناعة بشرية ، وفناً جدلياً يضرب بعضه

بعض لتأييد المذاهب والشيع الدينية والسياسية ، وأن تكون حرية الدين على أكملها فيما هو من كسب البشر ونتائج أفكارهم وأفهامهم ، فالاسلام أباح لأهله الحرية فى هـذه دون ما هو فوقه وفوق كل شيء بشري وهو كلام الله اليقيني القطعي الرواية والدلالة من الدين الذي شرعه الله لهم ، وأما ما كان ظنى الرواية او الدلالة منه فقد اباح لهم الاجتهاد فيه بشرط أن لا يكون اختلاف الفهم والرأي سبباً لتفرق الامة والشقاق بين أهلها ، ولو فعلوا ذلك لاتقوا الشقاق والتفرق بما حدث من البدع فى الدين، ولـكنهم لم يفعلوا فضلوا وابتدعوا ، فتفرقوا واختلفوا ، وفسقوا وضعفوا

كان هـذا التأليف بين العلوم والفنون والدين أول واجب على الامام الاعظم خليفة المسلمين ولـكن خلفاء العباسيين أطلقوا العنان اولا فلم يقوموا بالواجب ثم نصروا بعض المتفرقين فى الدين على بعض بما أضعف سلطان الدين في الهداية ، وفوائد العلوم والفنون في الحضارة ، وأنى للمعتصم العامى وكذا المأمون العالم المتفنن أن يفهم حكمة امير المؤمنين عمر بن الخطاب في عقاب صبيغ المجادل المشكك فى القرآن ونفيه من المدينة الى البصرة وأمر الناس بهجره حتى تاب ، تلك جناية فوضى العلم فى العرب وجنايتها على هداية القرآن بالابتداع والتفرق والاختلاف

حضارة العرب وتأثير الاسلام فيها

وقد كانت للمسلمين من جملة ذلك كله حضـارة عربية زاهية زاهرة ، جمعوا فيها بين زينة الدنيا ونعمتها والاستعداد لسعادة الآخرة . ألطف مثل لها ما حكي عن امرأة كانت ترفل فى حليهـا وحللها مخضبة الـكفين مطرفة البنان وهي تسـبح الله تعـالى وتذ كره ، فرآها رجل ناسك فقال لها ما هذا مع هذا ؟ فقالت

ولله منى جانب لا أضـيعه   وللهو منى والخلاعة جانب

وكانت قيانهم ووصائفهم تحفظ القرآن وتروي الحديث بالأسانيد وتنظم الشعر وتلحنه ، وما كان من إسراف بعضـهم وفسوقهم تجد تجاهه غلو آخرين فى دينهم ، وانقطاعهم إلى العبادة وجهاد النفس بحرمانها من الطيبات المباحة

كان أهل بغداد فى عهد حضارة العباسيين يتنزهون فى زوارق دجلة أصيل كل يوم، كما يتنزهون فى هذه الأيام ، فاتفق أن اقترب قاربان منها فى أحدهما مغن يعزف على عوده وفى الآخر قارىء يرتل سورة التـكوير ، فأنصت المغنى واستمع للقرآن يتدبره ، حتى إذا بلغ القارىء قوله تعالى (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) ضرب بعوده جانب

الزورق فكسره ورماه فى دجلة خاشعاً متصدعا من خشية الله ، فكان ترتيل القرآن أفعل فى نفسه من توقيع الألحان ، ومثل هذا لايقع الآن والقوم هم القوم ولكنهم ضعفوا في لغتهم ، فلم يبق للقرآن سلطان على قلوبهم، وغلوا فى الدين والحضارة معا فحرم السماع بعضهم واتخذه آخرون عبادة

لو جرى المسلمون فى حضارتهم وعلومها وفنونها على صراط القرآن بكفالة الخلافة لاستفادوا من فلسفة اليونان وتصوف الهند وفنون الروم والفرس وصناعاتهم وتنظيم حكومتهم ما يزيدهم إيمانا بالله وبصيرة فى دينه وقوة فى دولتهم، واعتدالا فى نعمة حضارتهم ولما وجدت بدع النظريات الفلسفية والصوفية وفن السياسة الشعوبية سبيلا إلى التفريق بينهم فى دينهم وحكمهم، ولكنهم نكبوا عنه فانقلبوا بعد ألفتهم وتوادهم أعداء يتنازعون فى متشابه القرآن الذي ألف بين قلوب سلفهم بعد تعاديهم وتقاتلهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانا، وهم يقرؤن قوله عز وجل (٣: ٧ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) الآية وقوله (٢ : ٢١٣ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) الآية، وقوله (٤ : ٥٨ فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا)

سنن الاجتماع في قلب الاسلام لنظم الأمم السريع

كل ما جرى للأمة الاسلامية كان مقتضى سنن الاجتماع فى دين قلب نظم الأمم والملل كلها فى اديانها ودنياها فى جيل واحد، ودخل فيه أفواج لا تحصى من كل جنس وكل ملة وكل حضارة وكل بداوة قضى شرعه أن يكونوا إخوانا متساوين فى جميع الحقوق لا يتفاضلون إلا باستعدادهم الشخصى ، فمنهم من فهمه بلغته وثقافة من جاء به ، وهم العرب لأنه لم يكن عندهم ما يزاحمه من التقاليد الدينية والعادات المدنية ، بل كانوا كما قيل

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ومنهم من لم يفهم منه إلا بعض تقاليده الظاهرة ، ولم يره الا في مرآة ما كان عليه قومه من دين وحضارة ، ومنهم من كان مخلصاً فيه ومن كان يكيد له عصبية لقومه وملته ودولته التى قضى عليها ، ومن كان يبتغي به الحياة الدنيا وسلطانها وزينتها ، ومن كان يريد به وجه الله والدار الآخرة

حكمة الله في ترتيب الخلفاء الاربعة

وكان من حكمة الله ورحمته أن خلف رسول الله (ص) فيه خير أصحابه علما وحكمة وإخلاصاً ليكونوا قدوة لمن بعدهم وحجة لله عليهم ، وألهم أهل الحل والعقد أن يقدموا أقصرهم فأقصرهم عمراً من حيث لا يدرون لتستفيد الأمة من كل واحد منهم، وهذه حكمة ألهمني الله تعالى إياها منذ عشرات السنين لم أروها ولم اسمعها من أحد ، وهاك وجه كل واحد منهم (رضى الله عنهم أجمعين)

قدموا أبا بكر أولا فكان فى عهده تمحيص الأمة العربية وتصفيتها من النفاق والضعف وكان هو أولى الناس بتنفيذ هذه التصفية فى حروب الردة ودعوى المتنبئين النبوة وبقايا العصبية الجاهلية ، وهو مشهود له بأنه كان أعلم الناس بأنساب العرب وأخلاقهم وأحوالهم فتم ذلك بسياسته على أكمل وجه

وخلفه عمر فكان فى عهده فتح الأمصار والقضاء على ملك كسرى برمته، وملك قيصر الروم فى الشرق كله، والاستيلاء على الأمم والملل الكثيرة وخضوعها للاسلام فى دينه وحكمه أو فى حكمه فقط ، وقد ظهر لجميع الأمم فى عهده ومن بعده أنه خير من قام بهذا الفتح ونظمه علما وعقلا وعدلا وقوة وإخلاصا

فبحكمة أبي بكر صارت الأمة العربية أمة واحدة موحدة مثقفة ، وبحكمة عمر صارت أمة فاتحة حاكمة عادلة مصلحة للبشر ، ولما كان من سنن الاجتماع أن يظهر فى هذه الدولة العربية ما هو كامن فى بعض أهلها من الاستعداد للفتن والمطامع ، وما ينفخ فى ضرمه خصومها الذين قضت على ملكهم ، ومن المصلحة أن يظهر حكم الاسلام فى إخماده بالحق والعدل ، ألهم الله أهل الشورى أن يقدموا عثمان على علي ، وجل عصبة الأول من بنى أمية الطامعين في الملك ، وجل عصبة الثاني من بنى هاشم الذين يغلب على أكثرهم الزهد فى الدنيا ، وقد كان بينهما فى الجاهلية ما كان من (التنازع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم) الذي الف المقريزي فيه مصنفا خاصا بهذا الاسم

كان عثمان على عدله وفضله شديد الحياء لين العريكة ، فغلبه قومه على وصية عمر السياسى الحكيم له بأن لا يحمل أبناء أبي معيط على رقاب الناس، فركبوا الرقاب من غير أن يحملهم هو عليها ، فنجمت رءوس الفتنة فى عهده وكان كارهاً لها، إلا أنه لم يستطع كبح جماحها، فكان شهيد أول ثورة على ولي الامر في الدولة العربية ، وكان هذا أشأم سنة فى الحكم الاسلامي

ثم جاء علي ونار الفتنة مشتعلة وكان أولى إمام في الأمة أن يقاومها علما وعدلا وإيثاراً للحق على الخلق، وللهدى على الهوى، ولو لم يكن لها في تأخر زمنه وقد أطال الله عمره إلا هذه الحكمة والرحمة لكفى، فهو قد سن من سنن الحق والعدل في قتال البغاة والخارجين على حكم الاسلام ما لم يكن يرجى من غيره مثله، وخيرها اتقاء تكفير أهل القبلة بخطأ الاجتهاد كما كان هذا التكفير شر ما فعلوه، فالايمان والكفر إنما يكونان بالقطع لا بالاجتهاد

وقد بينا من قبل أن التنازع في الامامة بين شيعة علي وجمهور الأمة قد كان تنازعا بين ما يسمى في هذا العصر السلطة الارستقراطية أي حكم الأشراف، والسلطة الديمقراطية أي حكم الامة الشوري الانتخابي، ولذلك كان أشد أنصار الشيعة من بعده الاعاجم الوارثين للعبودية للملوك، وأن عليا لو ولي الأمر من أول الامر بسبب قربه من النبي (ص) أو بحجة وصيته له ولذريته من فاطمة بنت الرسول (ص) لكانت فتنة عبادته وعبادة آله ودعوى عصمتهم قضت على توحيد الاسلام من اول وهلة إن ثبتت

استحالت خلافة النبوة بعد علي والحسن (ع. م) ملكا عضوضاً كما ورد وهو من سنن الاجتماع، وكان بنو أمية وقد صفا لهم الملك من أقدر قريش على استمرار الفتح، وتوسيع دائرة الدولة وعظمتها، ولكن تحويل زعيمهم الأول (معاوية) لحكم الاسلام الشوري (الديمقراطي) إلى عصبية النسب (الارستقراطية) كان سنة سيئة دائمة قضت على دولتهم قبل أن يتم لها قرن كامل، وهم الذين أحدثوا بسياستهم الجنسية فتنة الشعوبية فكانت عاقبة هذه العصبية أن آل الحكم إلى الأعاجم، وصار قائماً على قوة العصبية دون أصل الشرع، وزال سلطان الامامة الديني الذي تخضع الأمة له بوازع العقيدة، فصار الحكم الاسلامي عسكريا مذبذبا لا ارستقراطيا ولا ديمقراطيا

هذه جملة أسباب ترك الدول الاسلامية لهداية القرآن وهداية السنة وجماعة الامة ولو ظلت الأمة متبعة لها لأكرهت الدولة على هذا الاتباع في أي وقت تجتمع به كلمتها، ولكن جمهور الأمة تحولوا عن هذا الاتباع بفساد التعليم وتقصير العلماء في بيانه والدعوة إليه والعمل به ومطالبة الحكومات بالتزام هدايته بل إلزامهم إياها بنظام تكفله الامة، وتيسير السبيل لذلك بجعل لغته ملكة راسخة في الأمة بتعلمها بالعمل كما كان عليه أهل العصر الأول، ولم يفعلوا شيئاً من هذا وهو الذي اضاع حكم القرآن من ناحية السلطان

إضاعة علماء النقل والعقل للقرآن

تقدم أن سنة العمران اقتضت الاختصاص في العلوم وانفراد طوائف تعنى بكل علم منها بمقتضى جعلها من الصناعات فعلماء الرواية عنوا بتدوين ما نقلوه عن التابعين و بعض الصحابة من تفسير القرآن وأكثره مراسيل لا تصح ، واسرائيليات يجب نبذ ما تصح روايته منها بله ما لا تصح، وعني الفقهاء بآيات الاحكام دون غيرها، والمقلدون منهم حاولوا جعلها حجة لمذاهبهم على ما خالفها ولو بالتأويل، وكذلك علماء الكلام حتى انهم يفسرونه بنظرياتهم الفلسفية واصطلاحاتهم المخالفة لأصل اللغة، و يوجبون تأويل كثير من ظواهره لدعواهم أن العقل يثبتها دون اعتقاد الظاهر و إن وافقته الاحاديث الصحيحة ، ويعنون بالعقل الذي خاطبه القرآن نظرياتهم الفلسفية، وعلماء الفنون العربية يجعلون أكبر همهم من تفسيره إعرابه وبيان نكت البلاغة في آياته ، وكل ذلك شاغل عن تدبره وهدايته ، وكان الواجب وضع كل شيء من ذلك في كتب الفن الخاصة به

ثم استقر الرأي العام عند جماهير المسلمين بعموم التقليد على أن عقائد الاسلام يجب أخذها من كتب الكلام، وأحكامه من كتب الفقه المذهبية، وآدابه وأخلاقه من كتب التصوف ، وبهذا أمست فائدة القرآن محصورة في التبرك به والتعبد بتلاوة ألفاظه ندبا لا وجوبا بغير فهم له ولا عمل به، بل لما ورد من أن لتاليه بكل حرف عشر حسنات، وأنه لا يفترض على مسلم أن يعلم أو يقرأ منه شيئا إلا ما تصح به صلاته كسورة الفاتحة ، بل هبط بكثير منهم الجهل بالقرآن والاعراض عن القرآن والكفر بالقرآن ان حرموا أخذ الدين من القرآن حتى كتب بعض من يسمونهم كبار العلماء حديثا ان الايمان بظاهر القرآن في بعض آيات الصفات هو الكفر الصراح ! يعني الخروج من الملة الذي يخلد صاحبه في النار ؟ (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ - أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

القرآن لا تغنى غناءه جميع كتب الاسلام

كلا، فوحق القرآن إن جميع ما كتبه علماء الكلام لا يغني عن سورة صغيرة ولا عن آية من آيات القرآن في بيان أصل الدين الذي هو التوحيد فضلا عن جميع عقائد الاسلام، وإن جميع ما كتب المفسرون من المحدثين والمتكلمين والفقهاء والصوفية والبلغاء في تفسير القرآن وفي الفقه والتصوف لا يغني عن تدبر القرآن نفسه في هداية الافراد ولا الجماعات في انفسها ولا الأمم والحكومات في حضارتها وسياستها، وإنه ما سلب الله أكثر المسلمين ملكهم وعزهم وقوتهم إلا عقوبة على إعراضهم عن القرآن، والاستغناء عنه بكتب للبشر ما أنزل الله بها من سلطان، يصدق عليهم به ما قاله في الذين من قبلهم (٣ : ١٨٧ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)

اطلت في بيان اسباب اعراض المسلمين عما كان عليه سلفهم الصالح من هدى القرآن بغير قصد، وبغير شعور بانى أطلت، وإنما كنت أريد أن أقول إن بعض علماء التقليد الرسميين ناصبوني العداوة في الدعوة الى القرآن والسنة وحضارة الاسلام وناهضوا المنار بدعاية سرية وجهرية في داخل الأزهر وخارجه بشبهة دعوى الاجتهاد الذي أقفل بابه على انفسهم أمثالهم من المقلدين الجاهلين، وإنني على تفنيدي لشبهتهم بالحجج الناهضة في محاورات المصلح والمقلد التي نشرتها في المجلدين الثالث والرابع من المنار في سنتي ١٣١٧ و١٣١٨ وفي مقالات وفتاوى كثيرة بعدها في عشرات المجلدات — كنت أحاول إقناعهم بأن هداية القرآن لا يستغنى عنها مسلم مجتهد ولا مقلد لأنه حبل الله الذي أمر عباده بالاعتصام به، فكل من ترك هذا الاعتصام فقد قطع الصلة بينه وبين ربه في الدين، والرحمة الخاصة بالمؤمنين، وان ما أدعوا اليه من استقلال الفهم وقصد الاهتداء بالكتاب والسنة لا يستلزم دعوى ما يسمى الاجتهاد المطلق، ولم يفهم مرادي هذا إلا أفراد متفرقون في الاقطار، وقبله كثيرون على إطلاقه حتى بمعنى الاجتهاد، وكاد الجيل ينقضي وهو يدور بين بعض مستقلي الفهم، ولم يظهر للدعوة المرادة أثر عام ينتشر في بلاد الاسلام، حتى كان من تأثير كتاب (الوحي المحمدي) في هذين العامين ما كان،

وهو ما نوهنا به في تصدير الطبعة الثالثة التي نشرناها في هذا الشهر، وصرحنا فيه بأنه حدثت لنا به أمل جديد في حياة المسلمين الملية لا تعرف حقيقتها إلا بتجربة عملية جديدة، وهو ما عزمنا عليه في هذه السنة

الدعوة الجديدة هي أساس الاصلاح كله

سيكون المنار منذ هذا العام لسان جماعة للدعوة إلى الاسلام وجمع كلمة المسلمين أنشئت لتخلف جماعة الدعوة والارشاد في أعلى مقصديها أو قواعدا التعليم الاسلامى المدرسى منه الذي ضاق زمان هذا العاجز عن السعي له وتولي النهوض به فتركه لمن يعده التوفيق الالهى له من الذين يفقهون دعوة القرآن وتوحيده ووحدة أهله وجماعته، ولا يصلح له غيرهم

لما ألفنا جماعة الدعوة والارشاد وأنشأنا مدرستها وجدنا عقلاء المسلمين وأذكياءهم في مصر واستانبول وأمصار الهند الاسلامية الكبرى وبغداد وسورية متفقين على أنها أعظم عمل إسلامي لا يرجى الاصلاح المنشود بدونه؛ حتى إن كبار رجال الترك أكبروه وعلموا أنه يحيي الدولة العثمانية حياة جديدة إذا هي كفلته ونفذته على الوجه الذي اقترحته عليها و قررته الجمعية التي اسست له من أذكى رجال الدولة، ولكن زعماء جمعية الاتحاد والترقي الملاحدة منهم كانوا قد أجمعوا أمرهم على اسقاط دولة آل عثمان وخلافتهم وإقامة دولة تركية لادينية على أنقاضها، ولولا ذلك لما منعوا الحكومة من تنفيذه بعد أن صدر به أمر مجلس الوزراء وقرر أن تكون نفقات المدرسة السنوية في ميزانية وزارة الأوقاف

وكان الأمير عباس حلمي باشا خديو مصر علم بالأمر وأكبره فلما عدت من استانبول والأمر مقرر رسميا اقنعني بأنه هو يكفل مساعدتي على تنفيذه في مصر وبأن الدولة العثمانية إن ارادت تنفيذه في استانبول فان من السهل أن يكون في كل من العاصمتين مدرسة تابعة لمقاصد الجمعية ومنهاجها، ففعلت وصدق هو وعده، وفتحت المدرسة أبوابها لجميع الشعوب الاسلامية، وتعاون على نفقتها ديوان الاوقاف الخيرية العامة ومصلحة الاوقاف (الملكية) الخاصة، حتى اذا ما اشتدت سيطرة الانكليز على مصر في عهد الحرب الكبرى كادوا للمدرسة كيدهم واوعز عميدهم إلى وزير الاوقاف (إبراهيم فتحي باشا) وكان من ضنائعه فقطع الاعانة التي كانت قررت لمدرسة الدعوة والارشاد، وتعذر عودة الخديو الى مصر فاضطررت بعد صبر جميل الى تعطيلها

وجملة القول أنني على هذه التجارب وما هو أوجع منها وألذع من أمر مشتركي المنار ، وعلى ما أقر به من عجزي عن النهوض بالأعمال المالية الخاصة والعامة بالأولى، وعلى دخولي في سن الشيخوخة وضعفها، لم أزدد إلا ثقة ورجاء بنجاح سعيي لأهم أصول الاصلاح الاسلامي وتجديد أمر الدين بما يظهره الله به على الدين كله، حتى تعم هدايته وحضارته جميع الامم ؛ ولم أيأس من قيام طائفة من المسلمين بذلك تصديقا لبشارة رسول الله (ص) بأنه لايزال في أمته طائفة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة . رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما بألفاظ من عدة طرق، وهذه الطائفة كانت في القرون الأخيرة قليلة متفرقة، واني منذ سنتين أكتب عناوين خيار الرجال المتفرقين في الاقطار الذين أرجو أن يكونوا من أفرادها على اختلاف ألقابهم وصفاتهم وأعمالهم لمخاطبتهم في الدعوة الى العمل ، وأرجو من كل من يرى من نفسه ارتياحا إلى التعاون معهم على هذا التجديد والجهاد أن يكتب الينا عنوانه وما هو مستعد له من العمل معهم الى أن تنشر دعوتهم الرسمية

وأهم ما يرجى من الخير لأمة محمد (ص) في هذا العصر الذي تقارب فيه البشر بعضهم من بعض فهو في تعارف هذه الطائفة القوامة على أمر الله وتعاونها على نشر الدعوة وجمع كلمة الامة بعد وضع النظام لمركز الوحدة الذي يرجى أن تثق به فهي لا ينقصها آلا هذا، وقد طال تفكيري فيه ، وعسى ان ابشرها قريبا بما يسرها منه ،

وأعجل بحمد الله تعالى ان تجدد لي على رأس هذه السنة ما كان لي ولشيخنا الاستاذ الامام (قدس الله روحه) من الرجاء في مركز الأزهر - وهو ما يعبر عنه في عرف عصرنا بشخصيته المعنوية - وقد قضى هو يائسا مما كان يحاول فيه ، وظللت أجاهد في سبيل إصلاحه على ما عرض من أسباب اليأس منه التي تفاقم أمرها أخيرا . وكتبت فيها بضع مقالات في المقطم ثم (كتاب المنار والازهر) وما هذا الا لانني لم أيأس ، وهذا الرجاء الذي تجدد بتوسيد أمره الى الشيخ محمد مصطفى المراغي عظيم أشرت اليه في تصدير الطبعة الثالثة من كتاب الوحي المحمدي بعد ان كتبت عنه في الجزء الماضي من المنار ما كتبت

كان الأزهر كنزا خفيا أو جوهرا مجهولا عند أهله وحكومته وعقلاء بلده لم يفطن أحد قبل الاستاذ الامام لامكان إصلاح العالم الاسلامي كله به، والاستيلاء على زعامة جميع الشعوب الاسلامية في الدين والادب واللغة باصلاح التعليم العام فيه ، ولكن تعليم الامام رحمه الله وأفكاره هما اللذان احدثا هذا الرجاء في طائفة من شيوخه ، والاستعداد في جمهور طلابه ، ولم يبق إلا العمل الجد ولله الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثالث عشر

من تفسير المنار

(٥٣ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية تتمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار وقيل من قول يوسف (ع.م) ويرده عطفه على إقرارها وعطف أمر الملك بالاتيان به من السجن عليه، وقد جعلت أول الجزء، لأن تقسيم القرآن إلى الاجزاء والاحزاب مراعى به مقادير الكلم العددي دون المعاني، وهذا لا يمنع من يجعل ورده من القرآن جزءاً في كل يوم ليختمه في كل شهر أن يزيد أو ينقص في القراءة آية أو اكثر ليقف عند ما يتم به بسياق سابق أو معنى فيه، ثم يبدأ بعده بسياق آخر أو معنى مستقل بمنه في ورد اليوم الذي بعده

تقدم أن قولها (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) يجوز أن يراد به يوسف (ع.م) لأن كلامها في جواب الملك عما سألها هي وسائر النسوة عن خطبهن في مراودته. ويجوز أن تعني به زوجها للعلم به من قرينة الحال وان لم يذكر، والأول أظهر، وهذه الآية في معنى الاستدراك على ذلك النفي فهي تقول

٥٣ ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ في دعوى عدم خيانته بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الخيانة وما عرف أمره ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أي النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء بداعي الشهوات البدنية والاهواء الغضبية،

و نزغات الوسوسة الشيطانية، ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه، و كانت مما يسوءه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين ، وعن ابن كثير ونافع قراءة (بالسوّ)

بتشديد الواو على لغة من يقلب الهمزة واوا ويدغمها في الواو ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا انفسا رحمها ربي رحمة خاصة فيصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف . هذا هو المعنى المتبادر من سياق القصة ، ويجوز في الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعا بمعنى لكن رحمة ربي هي التي قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره ، وأن تكون (ما) زمانية ، والمعنى أن من شأن النفس أن تكون أمارة بالسوء في عامة الاوقات إلا وقت رحمة ربي الذي يوفقها

فيه لمراقبته والاعمال الصالحة التي ترضيه ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ تعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى ان يصرف بعض الانفس عن الامر بالسوء أو عن طاعتها فيه أو يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها ، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترف السوء ثم يتوب إليه منه

وقد أخذ علماء النفس وصفاتها من آيات القرآن أن أنفس البشر على ثلاث درجات أدناها الامارة بالسوء ، وأعلاها النفس المطمئنة بذكر الله الراضية منه المرضية عنده ، وهي التي يخاطبها تعالى في آخر سورة الفجر بقوله (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الخ ، وبينهما التي سماها في أول سورة القيامة بالنفس اللوامة ، وهي التي تلوم صاحبها على كل ذنب وتقصير في طاعة الله ومعرفته ، ومن التقصير في طاعته التقصير في حقوق عباده الشرعية ولا سيما أولي القربى والجيران والمحتاجين إلى البر ، وكذا الحقوق العامة للملة والأمة . وبعضهم يجعل النفس الراضية والنفس المرضية قسمين من أقسام النفس المطمئنة ، ولفقهاء الصوفية تفصيل لهذه الانفس وتربيتها فيه علم يزيك المطلع عليه بصيرة في دينه وتربية نفسه و نفس غيره من ولد و تلميذ و مريد و معرفة ربه

كان الفصل الاول من قصة يوسف (ع . م) في نشأته وما وقع بينه وبين أخوته وانتهى ببيعه بثمن بخس، والفصل الثاني حياته الاولى في مصر وهو قسمان

أحدهما في بيت عزيز مصر وثانيها في السجن ، وكانت هذه الاطوار كلها أطوار بؤس وشدائد ، رباه الله تعالى بها أكمل تربية ، وجعله خير أسوة لأفراد الناس في عفته ونزاهته وصدقه وأمانته وخير أهل لما بعدها من إدارة ملك مصر ، وإتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما تنبأ أبوه من قبل ،

(الفصل الثالث من قصة يوسف ، توليته حكومة مصر)
وما وقع لاخوته معه فيها

(٥٤ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٥) قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

﴿ ٥٤ وقال الملك ﴾ بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة وظهور براءة يوسف فيه من كل سوء وهو ما اشترطه في قبول الدعوة أول مرة ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي أحضروه من السجن الي وقد وفينا له بما اشترطه لمجيئه ـ أجعله خالصاً لنفسي لا يشاركني أحد فيه من وزير يدخل بيننا في إدارة الملك ولا حاجب يبلغه عني ويبلغني عنه ـ فأتوه به ﴿ فلما كلمه ﴾ وسمع ما أجابه به ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي انك في هذا الزمن لدى حضرتنا الملكية الخاصة ذو مكانة ثابتة ومنزلة عالية ، وأمانة تامة موثوق بها ، فأنت مفوض في إدارة ملكنا غير منازع في تصرفك ولا متهم في أمانتك ، وفي الآية تنبيه إلى تأثير الكلام في إظهار معارف الانسان وإرادته وأخلاقه وإقناع مخاطبه بما يريده منه

أخذ الملك استحقاقه لهذه الثقة من فحوى كلامه وما كان من أمانته في بيت وزيره العزيز على ماله وعرضه وحسن تصرفه في كل ذلك ، ومن سيرته الحسنة في السجن ، وما نقل عنه فيه من علم وفهم ، وتأويل الرؤيا بما يعبر عن معناها ، ويرشد إلى ما يجب

من العمل فيما تدل عليه من التدبير، ثم ما كان من حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة، فدلته جملة هذه الاعمال والاحوال والاخلاق على ما استحق به تلك المكانة والامانة، وهذا يدل على أن ذلك الملك كان وافر العقل، محبا للعدل، بصيرا بمزايا الرجال وهذه الاخيرة يقل في الملوك من يقدرها قدرها، ويعطيها حقها، فلا تصرفه عنها الاحوال العارضة ككون الرجل غريبا أو اجنبيا أو فقيرا أو مملوكا أيضا، وما قام ملك ولا سقط الا بهم، وقد قال عمر اذ ظهر له خطؤه في تقدير رجل: رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان بينهما، وكذلك كان يوسف يكلم العزيز وامرأته من أول يوم وكذا كلم النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لرؤيته عندها وصاحبيه في السجن بالاولى، وذلك أن لغة يوسف كانت فيما يظهر لغة جده ابراهيم وأولاده وأحفاده وهي لغة حكام وطنه الكلدانيين وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الاسماعيلية فالمضرية والعبرانية والسريانية والفينيقية، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب أيضا وهم الذين يسمونهم الرعاة (الهكسوس) وفي التواريخ العربية أن ملك مصر هذا كان يسمى الوليد بن الريان، ولو لا هذا وذاك لكان المتبادر أن يوسف تعلم لغة مصر في هذه المدة الطويلة في مصر وكلم ملكها بها، على أن العربية أصيلة وعريقة في مصر لغة وأدبا، وعرقا ونسبا، وانما كان الفراعنة وأشياعهم يعدون ملوك الرعاة العرب غرباء وأجانب لعصبية الملك، وقد أثبت المرحوم أحمد باشا كمال العالم الاثري أن الهيروغليفية ممزوجة بالعربية المضرية من قبلهم، ولو عرفت العربية القحطانية القديمة لجاز ان تكون هي أصلها، ويرى بعض علماء الغرب أن اللغة العربية ما غلبت بعد الاسلام وثبتت إلا في بلاد الشعوب التي هي عربية الاصل أو للعرب فيها عرق واشج، ونسب راسخ

﴿ ٥٥ قال اجعلني على خزائن الارض ﴾ هذا جواب سؤال تقديره ماذا قال يوسف للملك وقد سمع منه ما سمع ورأى من تأثير لقائه وكلامه في نفسه ما رأى؟ أي ولني خزائن أرضك كلها أكن المشرف عليها لأتمكن من تنفيذ ما أولته من رؤياك بنفسي

فيكون منقذاً للبلاد والعباد من المجاعة والمراد بالخزائن - وهي جمع خزينة - الأهراء التي تخزن فيها غلات الارض أو ما يشمل كل مال ﴿إني حفيظ عليم﴾ أي شديد الحفظ لما يخزن فيها بحيث لا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه، راسخ العلم بطرق حفظه ووجوه تصريفه والانتفاع به، فهو قد طلب أهم ما تتوقف عليه إدارة الملك وسياسته، وتنمية العمران وإقامة العدل فيه، فكان مضطراً إلى تزكية نفسه بالحق فيه فالجملة تعليل لما قبلها، ونحن نرى دهاة الافرنج في كل بلاد يستولون أو يسيطرون عليها، يعنون بادىء ذي بدء بالاستيلاء على إدارة الامور المالية فيها، لأنه يتوقف على تنظيمها تنظيم غيرها من أمور الدولة، وبهذا ترسخ أقدامهم فيها، فاذا لم يسرفوا في تحويل الثروة إلى أنفسهم وأبناء جلدتهم فضلهم أهل البلاد على أنفسهم أي على ملوكهم وحكامهم، او يهديهم الله للعدل وحسن الادارة فتعود الامة الى تفضيلهم بعد الثقة بها. وأما الجاهلون الظالمون فانهم يسرفون في إفساد النظام المالي واحتكار الثروة لانفسهم حتى يمقتهم أبناء جلدتهم ويفضلوا الاجنبي عليهم، وما أضاع ملك المسلمين وغيرهم من الشرقيين في هذه القرون الاخيرة إلا الجهل والتقصير في إدارة النظام المالي وتدبير الثروة وحفظها سواء في ذلك الدولة والامة

---

(٥٦) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٧) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

هذا بيان لسنة الله تعالى في تأسيس الرياسة الفضلى والحكومات المثلى في الامم، ونيل الافراد المناصب العالية فيها وإن كان أهلها غرباء عنها وافدين عليها. يقول تعالى

﴿٥٦ وكذلك مكنا ليوسف في الارض﴾ أي ومثل هذا التمكين الذي سبق

بيان أسبابه ومقدماته مكنا ليوسف في أرض مصر وقد جيء به مملوكا فأصبح مالكا ، فهذا التشبيه في « كذلك » ينبيء عن علم غزير هو موضع العبرة في القصة، وهو إعداده تعالى إياه بما تحلى به من الصبر واحتمال الشدائد والعفة والامانة والصدق.

﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ يقال أصابه الشيء وأصابه الله به ، أي نخص برحمتنا من عطاء الملك والرياسة والغنى وغير ذلك من نعم الدنيا من نشاء من عبادنا بمقتضى سنننا في الاسباب الكسبية ، وموافقة الاحداث الكونية والاجتماعية

﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ في أعمالهم بشكر هذه الرحمة والنعم بأن نأجرهم عليها في الدنيا بالزيادة والهناءة فيها ، فان نعم الدنيا مبذولة لكل من يطلبها من طرقها وأسبابها، ولكن المحسنين للتصرف فيها هم الذين لا يضيع عليهم شيء من أجرها في الدنيا كالذي يصيب المسيئين من المنغصات، وغوائل الاسراف والبطر والخيلاء ، وإثارة أضغان المظلومين والحساد ، والخوف على النعم منهم ومن غيرهم. وقلما يصيب المحسنين الشاكرين شيء من هذا . وما عسى أن يصيبهم منه يكون عليهم أخف، ويكونون عليه أصبر ، ولا تنس هنا قوله تعالى في يوسف (٢٢ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) وقوله حكاية عن صاحبي السجن (٣٦ إنا نراك من المحسنين)

٥٧ ﴿ ولأجرُ الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم مثبتة أن أجر الآخرة وهو نعيمها الذي يكون فيها للجامعين بين الايمان والتقوى خير لهم من أجر الدنيا لاهلها وإن بلغوا سلطان الملك ومتاعه ، ليكون المؤمنون المتقون المحرومون من هذا النعيم راضين عن الله عز وجل، موقنين بأن ما أعده لهم في الآخرة يصغر ويتضاءل تجاهه كل ما في الدنيا من مال وجاه وزينة وشهوات

ولا شك أن الجامعين بين السعادتين أكمل ، وفضل الله عليهم أعظم، اذا هم أعطوا النعمة حقها من الشكر ، قال فقراء المهاجرين (رض) للنبي ﷺ يارسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال « ماذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق

قال ﷺ « أفلا اعلمكم شيئا تدركون به من قد سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون احد افضل منكم ، الا من صنع مثل ما صنعتم ؟» قالوا بلى يارسول الله قال« تسبحون وتكبرون وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» رواه الشيخان عن ابى صالح عن ابى هريرة قال ابو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله ﷺ فقالوا سمع اخواننا اهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »

---

(٥٨) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٩) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ؟ (٦٠) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦١) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦٢) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

جاء في كتب التاريخ وأقدمها سفر التكوين أن يوسف عليه السلام عني أشد المناية بما أجمله من ذكر التدبير في تأويل رؤيا الملك فبنى الأهراء العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الاولى فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الاقطار القريبة منها وأقربها اليها فلسطين من بلاد الشام واشتهر ما فعله يوسف (ع . م) في مصر ومافيها من الخير وحسن تصرف يوسف في بيع الغلال ،أمر يعقوب (ع . م) أولاده بأن يرحلوا الى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشتروا به قمحا لان المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم ، والمقصود من العبرة الدينية والادبية في هذه الاخبار هو ما وقع بين يوسف وإخوته في مصر فاقتصر عليه في التنزيل وهو

﴿ ٥٨ وجاء إخوة يوسف ﴾ أي جاءوا مصر يمتارون ﴿ فدخلوا عليه ﴾ لأن أمر الميرة وشراء الغلال بيده ورهن أمره ﴿ فعرفهم ﴾ إذ دخلوا بلا تردد ولا طول تأمل كما يفهم من العطف بالفاء إذ كان عددهم وشكلهم وزيهم محفوظا في خياله لنشوئه بينهم، وما قاساه منهم في آخر عهده بهم وكان في سن السادسة عشرة على رواية سفر التكوين وقد استكثرناها، ويجوز أن يكون هنالك سبب آخر لسرعة هذه المعرفة كأن يكون عمال يوسف وعبيده لا يدخلون عليه إلا من عرفوا أمرهم وعرضوهم عليه ونالوا إذنه بادخالهم ﴿ وهم له منكرون ﴾ أي والحال انهم كانوا إذ دخلوا عليه منكرين له لتغير شكله بالدخول في سن الكهولة. ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته وما كان من حاجتهم كغيرهم لبره وعطفه، وكل ذلك مما يحول دون إطالة النظر اليه والتثبت من معارف وجهه، وكانوا يظنون انه هلك أو طوحت بهطوائح الزمن بالانتقال من سيد الى آخر، فلو فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لعدوها مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض عادة، ولم يخطر ببالهم ان اخاهم وصل الى هذه العظمة

﴿ ٥٩ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ أي أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج اليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة اه من الكشاف

قال الفيومي في المصباح المنير: جهاز السفر أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة بالفتح وبه قرأ السبعة (وذكر الآية) والكسر لغة قليلة، وجهاز العروس والميت بالفتحين أيضاً يقال جهزهما أهلهما بالتثقيل، وجهزت المسافر بالتثقيل أيضا هيأت له جهازه وما يحتاج إليه في قطع المسافة اه فتجهيز يوسف إياهم بالجهاز اللائق بهم الكافي لهم هو غير الميرة التي جاؤا لامتيارها أي الطعام الذي جاؤا لشرائه، وهو يدل على انهم أخذوا الميرة أيضاً فهو من إيجاز القرآن الدقيق، وجعله الزمخشري شاملا له بالمعنى لاستلزامه إياه. وقد نقل البيضاوي عبارته ثم قال والجهاز مايعد من الامتعة للنقلة كعدة السفر وما يحمل من بلد إلى آخر وما تزف به المرأة إلى زوجها اه فجعل الميرة وغيرها من البضائع داخلة في معنى الجهاز وليس كذلك في أصل

اللغة . ﴿وقال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يريد شقيقه بنيامين ، وفي سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متنكراً لهم إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاؤا ليروا عورة البلاد فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم (١٣:٤٢ فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخاً نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان، وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود ١٤ فقال لهم يوسف ذلك ما كلمتكم به قائلا : جواسيس أنتم ١٥ بهذا تمتحنون؛ وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا) الخ (٢٥ ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله ، وأن يعطوا زاداً للطريق ، ففعل لهم هكذا) اه وهو بمعنى ما قلنا يدل عليه قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل ﴾ أي أتمه وأجعله وافيا كافيا ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ أي وأنا على هذا خير المضيفين للضيوف ، وكان قد أحسن ضيافتهم ومن تمامها تجهيزهم بالزاد الكافي لهم مدة سفرهم، والميرة لا تقتضي هذا ولا تستلزمه ، يقال أنزلت الضيف نزلا وخير منزل بضم الميم وفتح الزاي فهو نزيل - فعيل بمعنى مفعول - والنزل بضمتين طعام النزيل الذي يهيأ له ، وهو مستعمل في التنزيل، واستدل بقوله هذا على ضعف رواية اتهامه إياهم بالتجسس على كون هذه التهمة لا تليق بمن دون الصديق النبي وهو يعلم بطلانها إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة

﴿ ٦٠ فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ فاذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن معكم منع جنس الكيل أن يكال لكم في حضرتي أو ملكي فضلا عن إيفائه وإكماله الذي كان لكم بأمري ﴿ ولا تقربون ﴾ بكسر النون الدالة على ياء المتكلم المحذوفة ، وهو يجوز أن يكون نفيا معطوفا على ما قبله وأن يكون نهيا عن القرب منه فضلا عن إنزاله إياهم في ضيافته خير ضيافة لا توجد عند غيره ، وناهيك بما بين منزلته من الملك والحكم ، ومنزلتهم فيمن لا يحصى من الجائعين الممتارين من البعد

٦١ ﴿ قالوا سنراود عنه أباه ﴾ أي سنبذل جهدنا في مراوغة أبيه وتحويله

عن إرادته في إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك حتى نقنعه بإرساله معنا كما تحب ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ذلك قطعا وعدا مؤكدا لا ننساه ولا نتوانى فيه

٦٢ ﴿ وقال لفتيانه ﴾ أي غلمانه الكيالين ، وهذه قراءة حمزة والكسائي وحفص ، وهو جمع كثرة لفتى ، وقرأ الباقون (لفتيته) وهو جمع قلة فهما كاخوة وإخوان ولا وجه للتفاضل بينهما ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ التي جاؤا بها لشراء الطعام ﴿ في رحالهم ﴾ أي أوعيتهم وهي جمع رحل بالفتح يطلق على كل ما يعد للرحيل (السفر) من وعاء للمتاع ومركب وحلس للبعير ورسن ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ أي رجاء أن يعرفوا لنا حق إعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بغير ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه فانهم انما يفتحونها هنالك ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ الينا طمعا في برنا وإن كانوا غير محتاجين إلى امتيار آخر لضرورة القوت . ويجوز أن يكون رجاء الرجوع منوطا بمعرفة البضاعة من غير تقدير معرفة حق ردها اليهم وما فيه من المنة والكرم ، وهو أن يعتقدوا أن فتيان يوسف نسوها أو وضعوها في رحالهم خطأ؟ وهم لا يستحلون أكلها بالباطل فيرجعون لاعادتها وإيصالها إلى أهلها

---

(٦٣) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٤) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

﴿ ٦٣ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أي صدر حكم العزيز ولي الامر في مصر بمنع الكيل لنا في المستقبل، وأخبروه بما قاله لهم ورتبوا عليه

قولهم ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ بنيامين ﴿ نكتل ﴾ أي نتمكن من أخذ ما نطلب من الطعام بالكيل المعلوم بأن نرفع المانع من الكيل و نكتال من الطعام بقدر عددنا ، وقرأ حمزة والكسائي (يكتل) بالياء يعنون أخاهم بنيامين أي يكتل لنفسه كما يكتال كل منا لنفسه فان الكيل لنا مشروط بارساله ورؤية العزيز له ، تقول كلت له الطعام إذا أعطيته واكتلت منه و عليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك يقال كال الدافع ، واكتال الآخذ ، قاله في المصباح ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ في ذهابه وإيابه فلا يناله مكروه نخافه ، كأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم يعتقد أنهم يحسدونه كما كانوا يحسدون يوسف معه فقالوا له مثل ماقالوا لما طلبوا إرسال يوسف معهم يرتع ويلعب ، فماذا قال هو لهم ؟

﴿ ٦٤ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ إذ قلتم (يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) ثم خنتم وكذبتم فأضعتم يوسف؟ فالحالة واحدة ووعدكم بحفظه لايوثق به « ما أشبه الليلة بالبارحة » ﴿ فالله خير حافظا ﴾ فمن لم يحفظه فلا حافظ له، قرأ الجمهور (حفظا) على التمييز وحمزة والكسائي (حافظا)وهو يحتمل التمييز والحال ؛ والكلمة كتبت في المصحف الامام بدون الف ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولايجمع علي الابتلاء بفقده وفقد أخيه يوسف معاً فرحمته أوسع وأعظم ، وفي قوله هذا لين وميل الى ارساله لشدة الحاجة ولكنه غير صريح

(٦٥) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٦) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

﴿٦٥ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم﴾ أي فتحوا رحالهم من غرائر وغيرها وجدوا فيها ما كانوا أعطوه من بضاعة ونقد ثمنا للطعام كما توقع يوسف اذ أمر فتيانه بوضعها في رحالهم ولم يعلموا بذلك من قبل ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي؟﴾ استفهام في سياق استئناف بياني ، يعنون أي إكرام نطلب وراء هذا الذي فعل معنا عزيز مصر ، أو نفي للمبالغة فيما حدثوه به من كرمه وحسن ضيافته ، أي لا نبغي ولا نسرف فيما حدثناك عن كرم هذا الرجل، ثم استدلوا على هذا بقولهم مستأنفا أيضاً ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ بعينها على حقارتها لم يأخذ العزيز شيئا منها وكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته فهو هبة منه لنا أو صدقة علينا ﴿ ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ﴾ هذا عطف على محذوف تدل عليه القرينة، أي فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه من الميرة من مصر مجانا ونحفظ أخانا بعنايتنا كلنا به مع عدم المخاوف التي تخشى ان تغلبنا عليه ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أي حمله يكال لأخينا ويفهم منه ان يوسف ما كان يعطي أحداً أكثر من حمل بعير حتى لا يسرف الناس في الطعام ، وقد أشار في تعبير رؤيا الملك إلى ما يجب من الاقتصاد ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي ان حمل البعير كيل سهل لا عسر فيه على عزيز مصر الجواد المحسن ، او قليل لا يكثر على سخائه ولا يشق عليه وإن كان يعلم ان كل ما نأخذه لبيت واحد ، فالمشار إليه حمل البعير والكيل بمعنى المكيل ، واليسير له معنيان أحدهما السهل وهو ضد العسير ومنه قوله تعالى (يوم عسير على الكافرين غير يسير) وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) والثاني القليل في كل شيء حتى الزمن ومنه قوله تعالى (وما تلبثوا بها إلا يسيراً) وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي : أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا ، يعنون ما يكال لهم فأرادوا أن يزدادوا اليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك اشارة إلى (كيل بعير) أي ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا اليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وان حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله

بالولد اه وهذا بعيد ولو كان من قوله لعطف عليه ما بعده ولكنه جاء مفصولا مستأنفا على الاصل في جواب سؤال مقدر كأمثاله وهو :

﴿ ٦٦ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله ﴾ أي حتى تعطوني عهداً موثقا بالقسم بالله ﴿ لتأتنني به ﴾ جواب القسم أي لترجعن به إلي على كل حال تعرض لكم ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا في حال واحدة وهي أن تغلبوا على أمركم بعدو أو بلاء يحيط بكم فتهلكوا دونه فلا تستطيعوا الاتيان به مجتمعين ولا متفرقين أو لا يسلم منكم أحد ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أي أعطوه العهد الموثق الذي اشترطه عليهم ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ أشهد الله تعالى على ما قاله واشترطه وما أجابوه به، يعني أنه سبحانه رقيب عليه وعليهم ، وأمرهم موكول اليه فهو الكفيل الذي يوفق للوفاء بالعهد ، والصدق بالوعد ، فقول القول خبر في اللفظ إنشاء في المعنى

(٦٧) وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

﴿ ٦٧ وقال يابني لا تدخلوا ﴾ مصر مجتمعين ﴿ من باب واحد ﴾ كهيئتكم هذه بناء على أنه كان لمصر عدة أبواب لكبرها وكثرة طرقها . وقيل انه أراد بالابواب الطرق، والراجح عندي أنه أراد الابواب التي يدخل الناس منها على

العزيز في قصره أو الوسائل الموصلة اليه ، فالابواب تطلق على المداخل الحسية والمعنوية ومنه (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) ومنه ابواب جهنم وهي امهات أجناس الاباطيل والمعاصي التي هي سبب دخولها، وكذا أبواب العلم والكتب ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ بحيث لا يراكم من هنالك مجتمعين فيحسدكم الحاسدون ، ويكيد لكم الظانون ظن السوء ، فاذا وقع بكم مكروه بحسدهم وكيدهم أو بسبب آخر خشيت أن يصيبكم كلكم فيحاط بكم ﴿ وما أغني عنكم ﴾ وما أدفع عنكم بوصيتي هذه ﴿ من الله ﴾ أي مما قضاه الله وقدره في علمه وسنن خلقه ﴿ من شيء ﴾ قل أو كثر، فما قضاه وحكم به لا بد من وقوعه ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم في تدبير العالم ونظام الاسباب والمسببات إلا لله وحده ﴿ عليه توكلت ﴾ دون غيره ودون علمي ووصيتي ، وحولي وقوتي ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ كلهم لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم ، بل يجب على كل عاقل يؤمن به أن يتخذ لكل أمر ما يقدر عليه من الاسباب ، وأن يوصي بها بعضهم بعضاً ،وأن يكون اتكالهم في النجاح وقضاء الحاج عليه ، فان من الاسباب ما يخفى عليهم ، ومالا تصل اليه أيديهم.

﴿ ٦٨ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ وهو الابواب المتفرقة ﴿ ما كان يغني ﴾ يمنع أو يدفع دخولهم أو أمره لهم وامتثالهم له ﴿ من الله من شيء ﴾ أي أدنى شيء من المكروه الذي من شأنه أن يحول دون رجوعهم ببنيامين ،وقد أخذ عليهم الموثق بان يأتوه به إلا اذا أحيط بهم فلم يبق منهم أحد ، وانما يقع هذا في العادة الغالبة اذا كانوا مجتمعين ﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ هذا استثناء منقطع بالاتفاق والمعنى أن يعقوب كان يعلم أن الحذر لايدفع القدر ، ولكن كانت هنالك حاجة تختلج في نفسه ، قضت الحكمة الا يكاشف بها أحدا من الناس هي وراء ما يخطر بالبال من أسباب الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة

به قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها ﴿ وإنه لذو علم ﴾ خاص به وبأمثاله الأنبياء ﴿ لما علمناه ﴾ لأجل ما أعطيناه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة والالهام وذلك عندهم فوق صحة الفكر وسلامة العقل ، فهو يعلم به أن يوسف حي سيكون له شأن ، وأن الانسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له كل مايصل اليه علمه من أسبابه حتى ما كان منها احتياطيا ثم يتوكل على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما نختص به رسلنا من علمنا اللدني ، فهم يتكلون على ما يظنون أو يتوهمون من الاسباب ، والواجب الجمع بين الاسباب الصحيحة وبين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام

هذا ما يدل عليه ظاهر الآيتين من تفسيرهما الظاهر المتبادر من لفظهما ، لتلك الحاجة التي كانت في نفس يعقوب تفسير باطن لا يفهمه إلا من عرضها على أول القصة وآخرها ، وهو ما فهم يعقوب من رؤيا يوسف عليهما السلام من أن ربه يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به ، وما جزم به من تكذيب إخوته في قولهم أكله الذئب ، فقد كان يعلم أن يوسف حي باق وينتظر تحقيق رؤياه له ولآل يعقوب ، وقد قلنا إن علم يعقوب بهذا كان علما قطعيا ولكنه مجمل مبهم لا يتناول مكانه بعد أخذ السيارة له ولا ما فعل الله به ، فلما قص عليه أولاده ما كان من ضيافتهم وإكرامهم في قصر ملك مصر ووزيره العزيز المفوض ، ومطالبته إياهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وأكد هذا الطلب وألح فيه وأنذرهم الحرمان من الكيل لهم إن لم يأتوه به ، ترجح عنده أن هذا العزيز العطوف الرؤف المحسن المضيف لأولاده دون الوفود التي تفد عليه من مصر وغيرها لطلب الرزق هو يوسف بعينه ، ولم يكن له أن يجزم بذلك عقلا ، ولم يخبره الله به وحيا ، لأن كل شيء عنده تعالى بقدر ، ولكل قدر أجل ، فلقن يعقوب أبناءه وصيته رجاء أن تنكشف بها الحقيقة أو تزداد قوة إلى أن يكشفها الله تعالى الكشف الاخير بتأويل رؤيا يوسف التام

قال يا بني لا تدخلوا على هذا الملك الكريم أو الوزير العزيز من باب واحد من أبواب الوصول اليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، وأراد بذلك أن يروا بأعينهم ما يكون من تأثير كل طائفة منهم في نفسه وما يظهر على اسارير وجهه وحركة عينيه ولمعانهما عند رؤية شقيقه فيمن يدخل معهم، إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم كوكبة واحدة ، وقد ابهم أمر الوصية عليهم ولم يشر إلى سببها ، وانتظر أن يخبروه بما سيقع لهم بعد وقوعه

ويؤيد هذا قوله تعالى بعدما تقدم (فلما دخلوا على يوسف) فعلم منه أن المراد من الدخول الاول دخولهم عليه لا على مصر ، ثم يؤكده أنه لم يصدقهم في قولهم إن ابنك سرق) وقال لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) ثم قوله (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ثم قوله (إني لأجد ريح يوسف) الخ ثم انكشاف الامر كله بما تمت به القصة

هذا ما تبادر إلى فهمي أنه الحق الموافق للسياق والجمع بين أول القصة وآخرها وفهمها بنظر العقل المستقل في الحكم ، بعد أن توجهت إلى الله أن يلهمني الصواب في تلك الحاجة في نفس يعقوب، كما أتوجه اليه وأدعوه دائما في الاسحار وفي غيرها أن يوفقني في تفسير كتابه لما يحبه ويرضاه من الحق ونفع الخلق

والمشهور عند الخواص والعوام من حاجة يعقوب التي كانت في نفسه أنه كان يخاف على أولاده إصابة العين وهو أول ما قرأته في تفسير الجلالين ثم رأيته في الدر المنثور مرويا عن أشهر علماء التفسير المأثور من الصحابة والتابعين كابن عباس ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد وقتادة والضحاك . ولكن روي عن ابراهيم النخعي في ذلك أن يعقوب أحب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة . وهذا الذي قارب الصواب ولم يقرطس في هدفه فزعم أنه كان يعتقد أن يوسف ملك مصر ، ولو صح هذا لما قال بعده (يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن)

فاما الخوف من العين ففيه أنه مخالف للسياق القريب الدال على الحرص على-

سلامة بنيامين والاحتياط للاتيان به ، فان الخوف عليهم من العين اذا دخلوا من باب واحد يعني به الجماعة دون الافراد ، ولا يظهر فيه شيء يخص بنيامين ، وهم قد دخلوا مصر أول مرة من باب واحد فلم تصبهم العين ، ولو صح ما في سفر التكوين من اتهام يوسف إياهم بالتجسس لجاز أن يقال إن رؤيتهم مجتمعين هو الذي أوقع الشبهة عليهم ، وهم إنما اجتمعوا عند يوسف لا في باب من أبواب مصر ،

وحوادث الاصابة بالعين عند المصدقين لها قليلة وأكثرها وهمية ولم يرو عنهم أنها بلغت أن يقتل بها جماعة من الناس اشداء كاخوة يوسف ، وهم فريقان أحدهما يرى أنها تقع من تأثير بعض الانفس الشريرة الحسود فيما تتوجه اليه توجها قويا ، والآخر يسلكها في خوارق العادات أو الحوادث المجهولة السحرية ، والمؤمن بالله من كل منهما لا يقيم لتأثيرها وزنا ، بل منهم من يقاوم تأثيرها بعد وقوعه بالتوجه الى الله والدعاء والرقية ، فان تأثير الايمان والتوجه الى الله تعالى ودعائه وذكره والرقية بما يعتقد تأثيره قد يكون أقوى من تأثير النفس الشريرة ومنها العين كما بيناه في موضعه ، ونظرية التأثير النفسي ومنه التنويم المغناطيسي مبنية على تأثير القوي من الانفس في الضعيف ، ولقد رأيت في استانبول رجلا نوم امرأة تنويما مغناطيسيا فقلت له ان استطعت أن تنومني فلك حكمك في أو ما شئت من الدراهم ، فاعترف بعجزه ، وعلله بأن نفسي أقوى من نفسه

وقد صح في وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب في الحديث الصحيح أنهم « الذين لا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » فالرقية تنافي التوكل لانها سبب وهمي ضعيف ، ولكن الاخذ بالاسباب القوية المطردة الثابتة بالتجارب المنتظمة في سنن الله تعالى لا ينافي التوكل ، بل تركها هو الذي ينافي التوكل كما قررناه في موضعه من هذا التفسير وغيره وقد صرح يعقوب عليه السلام في هذا المقام بتوكله على الله وحده ، وهو دليل على أن ما قصده بتوصيته لأولاده لا ينافي التوكل ومنه الخوف من العين ، وفي الصحيحين وغيرهما ان « العين حق » والاذن أو الامر بالاسترقاء من العين ، وسنحقق المسألة في خلاصة تفسير السورة إن شاء الله تعالى

فتاوى المنار

﴿ حرمان البنات من الارث ﴾

(س ١) لصاحب الامضاء في مصر القاهرة

حضرة صاحب السيادة مولانا الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر نفعنا الله بعلمه وفضله

عرض بعض فقهاء المسلمين في مصر إلى مسألتين - الاولى احتيال الآباء على حرمان بناتهم من أموالهم بطريق النزول عنها الى أولادهم الذكور ببيع مايملكونه لهم . حتى إذا ماتوا لاتجد البنات ماترثه من أموال آبائهن

فقال بعض الفقهاء بجواز هذا ونشرت قوله في الوطنية ، وقال آخر بالتحريم ونشرت قوله كذلك في الوطنية فأصبح المسلمون في حيرة من أمرهم بين هذين القولين المتناقضين وقد لجأت الى فضيلة مفتي الديار المصرية ليكون حكما بينهما فأحالني على سيادتكم وأجل فتواه الى ما بعد اطلاعه على فتواكم

﴿ تعارض القرآن والاجماع ﴾

المسألة الثانية - اذا تعارض القرآن والاجماع في أمر فبأيهما نأخذ ؟ ؟ قال بعض العلماء نأخذ بالقرآن - وقال أحد كبار الفقهاء نأخذ بالاجماع - واستشهد الفقيه المشار اليه على صحة رأيه بقوله : إن القرآن فرض نصيبا من الصدقة للمؤلفة قلوبهم - وجاء الاجماع فقرر الغاء هذا النصيب لان الاسلام اصبح قويا ومنتشراً وليس بحاجة الى تأليف القلوب فماذا ترون سيادتكم في هاتين المسألتين فان العالم الاسلامي ومفتي الديار المصرية في انتظار فتوى سيادتكم في كلتيهما

ايوب صبري

صاحب جريدة الوطنية

(١) الاحتيال لحرمان البنات من الميراث

الاحتيال لحرمان البنات من الميراث ببيع المورث بعض عقاره أو كله للذكور من الوارثين بيعاً صحيحا في الظاهر أو هبته لهم في غير مرض الموت أو بغير ذلك من الوسائل - هو كالاحتيال لمنع الزكاة أو أكل الربا المحرم قطعا - حرام لا شك فيه وقد حررنا هذه المسألة في الكلام على الحيلة لأكل الربا ، وأشد الفقهاء جموداً على ظواهر الاحكام يصرحون بحرمة هذا اذا قصد به تعطيل حكمة الشارع، وإنما يكابر من يكابر في حكم ظاهر العمل بصرف النظر عن النية فيه. وقد أمر النبي ﷺ بالعدل والمساواة بين الاولاد في عطايا الدنيا فضلا عن الميراث المقرر في كتاب الله تعالى ففي حديث الصحيحين وغيرهما أن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال على المنبر : أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة (يعني أمه) لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله ﷺ فقال اني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يارسول الله، قال «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال لا ، قال « فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال فرجع فرد عطيته. وفي رواية لمسلم زيادة « لا تشهدني على جور » وفي أخرى « فلا تشهدني فاني لا أشهد على جور » وفي أخرى « اعدلوا بين أولادكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر » والنحل جمع نحلة بالكسر وهي العطية التي لا مقابل لها

والظاهر أن هذه التسوية واجبة وإن قال بعض الفقهاء إنها مندوبة. واختلف في صفتها فقيل لا فرق فيها بين الذكر والانثى، وقيل هي كالميراث، ويتجه التفصيل فيما كان من طعام أو زينة وما يعطى من الدراهم في الاعياد فالظاهر فيه المساواة، لاستواء الحاجة ولان التفضيل يسوء البنات ، وما يقتنى ويدخر أو يستغل لكثرته فالظاهر فيه أنه يراعى فيه نصيب كل في الميراث لانه اقرب اليه. وعلى الاول يحمل حديث ابن عباس (رض) مرفوعا « سووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلا أحداً لفضلت النساء » رواه سعيد بن منصور والبيهقي من طريقه وإسناده حسن كما قال الحافظ بن حجر .

(٢) التعارض بين القرآن والاجماع

اني لأستنكر هذا التعبير وأقول إن القرآن أعظم وأجل من أن يعارضه دليل، وكل ماخالفه فهو خطأ مردود . ومن سوء الأدب أن يقال إنه معارض له واسوأ من ذلك أن يقال إنه يرجح عليه

وما ذكر في السؤال من سقوط سهم المؤلفة قلوبهم من مستحقي الزكاة لا يصح بل هو باق ولو صح لما كان حكمه معارضا للقرآن وراجحا عليه ، بل يقال فيه ان حكمه قد تعذر تنفيذه بفقد المستحق له كما يقال في غيره من غير حاجة الى ادعاء الاجماع كالغارمين وابن السبيل اذا فقدوا من بعض البلاد ، ومثل ذلك كفارة العتق في البلاد التي فقد منها الرقيق

قد بينت في تفسير آية الصدقات أن المؤلفة قلوبهم عند الفقهاء قسمان (١) كفار وهم ضربان (٢) مسلمون وهم أربعة: وانه حدث في عصرنا اقسام أخرى اولى بالتأليف « فاننا نجد دول الاستعمار الطامعة في استعباد جميع المسلمين وفي ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم سهما للمؤلفة قلوبهم من المسلمين فمنهم من يؤلفونه لاجل تكفيره واخراجه من حظيرة الاسلام، ومنهم من يؤلفونه لاجل الدخول في حمايتهم ومشاقة الدول الاسلامية أو الوحدة الاسلامية، ككثير من امراء جزيرة العرب وسلاطينها!! أفليس المسلمون أولى منهم بهذا ؟ (ص ٤٩٥ ج ١٠ تفسير المنار)

وقلت انه روي عن ابي حنيفة انه قد انقطع سهم قسم من الكفار باعزاز الله للاسلام كالذين اعطاهم النبي ﷺ من غنائم هوازن ثم منعهم عمر وقلت ان هذا اجتهاد من عمر (رض) اي فهو يختلف باختلاف الزمن وقد استمر في زمن عثمان وعلي (رض)

« واما من ادعى انه منسوخ بالاجماع لما تقدم من عمل الخلفاء والسكوت عليه من سائر الصحابة فدعواه ممنوعة : لا الاجماع ثابت بما ذكر، ولا كونه حجة على نسخ الكتاب والسنة صحيحا وان اختلف فيه الاصوليون بما لا محل لذكره هنا»

وجملة القول ان سهم المؤلفة قلوبهم ضروري في هذا الزمان بأشد مما كان في اول الاسلام لضعف المسلمين ودولهم وضراوة الاجانب بهدم دينهم وملكهم ، وانه لا إجماع على ما ذكر في السؤال وان الاجماع الاصولي يختلف في امكانه وفي وقوعه وفي العلم بوقوعه ان وقع وفي كونه حجة

كتاب الوحي المحمدى

تصدير الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والشكر، إياه نعبد وإياه نستعين

أما بعد فقد أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى موعد ذكرى مولد النبي (ص) من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ تيمناً بظهور نوره المشرق الذي أضاء الكون كله، وإنما أضاءه بزوغ شمس هذا الوحي الالهي ونزوله عليه، فما أتى على صدوره بضعة أشهر إلا وكانت نسخه قد نفدت. فأعدت طبعه فى تلك السنة منقحاً مزيداً فيه قدر الثلث ونيفاً، ولولا خوف الملل على القارئين لزدته ضعفاً أو أضعافا، ولذلك وعدت بأن أجعل له ثانياً، وأصدرت الطبعة الثانية فى يوم عرفة الذي أنزل الله عليه فى حجة الوداع (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلَامَ دِينًا) تفاؤلا بتجديد هذا الكتاب لدعوته (ص) فما جاء يوم عرفة الثاني (سنة ١٣٥٣) إلا وكانت نسخ الطبعة الثانية قد نفدت، وشرعت فى الطبعة الثالثة، وتعمدت تأخير إتمامها كالتى قبلها، لنشرها فى موعد الاولى من هذه السنة (١٣٥٤)

وفى غضون السنة الماضية تمت ترجمة الكتاب باللغة الأوردية ونشرت فى الهند وهي مترجمة من الطبعة العربية الأولى. وتمت ترجمته باللغة الصينية فيها أيضا مرتين ويتولى طبع الأولى فى قبودان مترجمها الاستاذ صاحب مجلة ضياء الهلال، وحمل الثانية مترجمة الاستاذ بدر الدين الصيني من الهند إلى مصر وعرضها علي، وكان يريد إرسالها إلى بلد آخر فى الصين لطبعها فأشرت عليه بأن يزيد فيها كل ما زدته فى الطبعة الثانية لأنها أجمع وأنفع، ولعلها لا تطبع إلا وقد نفدت نسخ الترجمة الأولى، ولعله يعيد تنقيحها بمعارضتها على هذه الطبعة الثالثة فانها أصح وأكمل. ولم يبلغني أن أحداً غير هؤلاء قد أتم ترجمته بلغة أخرى

زدت فى هذه الطبعة قليلا من الفوائد، وإيضاحا لبعض المسائل، وجعلت

أكثرها في الحواشي كما ترى في الحاشية الثانية من ص ١٥٧ والأولى من ص ١٥٨ والحاشية (٢) من ص ١٨١ وما جعلته في الصلب أشرت إليه غالبا كشرعية عتق الرقيق من غير المؤمنين، وليس فيها شيء من المقاصد الأصلية المقصودة بذاتها

علنا إذن أنه أتى على ظهور الكتاب سنتان كاملتان ، فأما انتشاره بالعربية فهو فوق المعتاد في الكتب الدينية ، وقد قررت وزارة المعارف العمومية في هذه السنة صرفه لطلبة دار العلوم العليا وهو يدرس في بعض المدارس الاسلامية في دمشق وبيروت

ويرجى نشره في السنة المدرسية الجديدة أيضا بين طلاب الأزهر والمعاهد الدينية بمصر وقد تولى رياستها شيخ الاسلام وخليفة الاستاذ الامام (الشيخ محمد مصطفى المراغي) الذي كان أول من قدر الكتاب قدره ، وقرأ نصفه في جلسة واحدة وأتمه في جلسة أخرى ، ثم كتب في وصفه تلك الكلمة البليغة التي يراها قراؤه في صدر التقاريظ ، وقد تنبأ أو بشر بأنه سيطبع في كل عام

ترجمة الكتاب باللغات الافرنجية

ولكن قصر المسلمون فيما يجب عليهم من ترجمته بسائر لغاتهم وبلغات شعوب الحضارة التي دعوناها به إلى الاسلام ، وهي الانكليزية والفرنسية والالمانية ، وهو واجب كفائي صرح بتمنيه كثير من أهل العلم والغيرة ، وصرح بوجوبه بعض مقرظي الكتاب ، فمنهم من تعسف وطالبني بهذه الترجمة أو بالسعي لها ، ومنهم من أنصف وطالب به الأمة الاسلامية أو جمعياتها

أما الامة فلا تنهض بالأعمال العامة إلا بزعمائها أو جمعياتها ، وأما هذه الجمعيات عندنا فلا تزال في سن الطفولة ، ولا يرجى من أمثالها عمل عظيم كهذا ، فهي أفقر وأضعف همة من جمعيات المرتدين عن الاسلام جملته وتفصيله كالبهائية ، والملاحدة المدعين للنبوة والمسيحية فيه كالقاديانية ، دع جمعيات النصارى التعليمية والتنصيرية التي تملك مئات الملايين من الجنيهات ، وقد بثوا تعاليمهم في جميع أقطار الارض ، وهم يطمعون في تنصير المسلمين ، على حين تتسلل شعوبهم من النصرانية سراعا بسلطان ونظام كالشعب الجرماني ، أو لواذا بدون سلطان دولي ولا نظام كسائر الشعوب ، وهي تمهد السبيل لنسخ الاسلام لها ، وحلوله محلها ،

ولقد كان أرجى الجمعيات الاسلامية لهذا العمل فى مصر «جمعية الدفاع عن الاسلام» التى هدمت باسم أقوى معول من معاول الاسلام قبل أن يتم بناؤها، وإنما كان هذا الرجاء فيها منوطا برئيسها الشيخ محمد مصطفى المراغي، وما كان السعي لهدمها إلا سعيا لهدم اسمه، وحرمان المسلمين من استعداده، ولكن الله نصره، وخذل من ناهضه، وجعل معول الهدم الذي كان بأيديهم سيفا لنصر الاسلام بيده، فاذا بعصى موسى تلقف ما يأفك سحرة فرعون (فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

فان كان أهلا للرجاء بأن يسعى لترجمة كتاب الوحي المحمدي ببعض لغات العلم الغربية تمهيداً لتبليغ الدعوة الاسلامية للناطقين بها - وتلك القوة الرسمية تكيد له - فأجدر به أن يكون أقدر على تحقيق ذلك بالفعل، وتلك القوة الرسمية وما وراءها من القوة الحقيقية طوع يده، ولن تكون ترجمة هذا الكتاب فى موضع الثقة بها عند جميع الشعوب كما إذا كانت من قبل شيخ الاسلام وتحت إشرافه، وكان نشره وبث الدعوة به بارشاده أو إجازته، مع العلم بأن مؤلفه قلم من أقلامه، وعلم من أعلامه، وأحمد الله عز وجل أن جدد لي وللأمة بعودته إلى مشيخة الأزهر ذلك الأمل بالزعامة الاسلامية العاملة التى فقدناها بوفاة الاستاذ الامام منذ ثلاثين سنة

إن الأمة لم تفقد بوفاة ذلك الامام شيئا من علم الاسلام، وإنما فقدت زعيم الاصلاح العارف بحاجة زمانه، الذي نال الزعامة بسمو عقله، واستقلال رأيه وفهمه، وعلو همته وشجاعته، وإنصافه باعطاء كل ذي حق حقه من العلم الصحيح والاخلاص فيه، وما كان يعوزه للنهوض بالاصلاح العام إلا الاستقلال بالزعامة التى تمكنه من العمل، ولهذا كنا نسعى، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب

إذن لقد كان من حكمة الله أن «كتاب الوحي المحمدي» لم يترجمه بلغات الافرنج من ليسوا أهلا لترجمته حتى لا أضطر إلى تخطئتهم، فيكون ذلك محبطا لعملهم، او مضعفا للثقة بترجماتهم؛ وادخرها العليم الحكيم لمن هو أحق بها وأهلها

بلوغ الدعوة لأحرار الافرنج والمستشرقون منهم

لن يكون بلوغ الدعوة صحيحا مرجوًّا إلا بوصولها إلى الاحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم ، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الاحرار المستقلين المنصفين ، فانهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الاسلام ليعرفوا حقيقته ويعرفوا غيرهم بها ، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التى ينكرونها ، كما نرى فيما اطلعنا عليه من كتبهم وفى معجمهم العلمي الذي وسموه بدائرة المعارف الاسلامية ، ومن خيبة الآمال بعلمهم ومصنفاتهم أن وجدت كتاب (مفتاح كنوز السنة) على غير ما كنت ظننت وخلاف ما قلت فى التعريف به ، فانى لم أستفد منه أدنى فائدة

وأما المستقلون منهم وهم الأقلون فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم فقضاياها عندهم مسلمات كأنها لا مجال للبحث فيها ، وقد قربنا مسافة الخلف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية ، على أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمد (ص) ولا من مدارك عقله الظاهر ولا ما يسمونه العقل الباطن ، فاذا فرضوا أن للانسان عقلا باطنا لا تعرف حقيقته يدرك به من علم الغيب والشهاد ما هو خفي وخارق للعادة فى السنن المعروفة لكسب العلم من الحواس والفكر ، وعللوا به ما يسمونه قراءة الفكر ومراسلة الافكار ، وادراك المنوم بالاستهواء المغناطيسى وقد بينا لهم أنه لا يكفي لتعليل الوحي المحمدي - فأي بعد بين هذا العقل الخفي المفروض فى باطن الانسان وبين وجود عقل خفي مثله فى خارجه (وهو ما نسميه الملك كما نسمي الأول الروح) يكون الوحي الحقيقي باتصال أحدهما بالآخر كاتصال الكهربائية الايجابية بالسلبية وتولد النور من اتصالها ، فان ما زعموه من انقداح وحي القرآن من عقل محمد الباطن وحده محال كما قررنا ، وهذا أقرب التعليلين والفرق بينهما قريب جدا فما ثم الا اختلاف الاسماء

وفوق هذا وذاك قيام البراهين الكثيرة على وجود الله الخالق لكل شيء الذي دون الايمان به لا يمكن القطع بشيء من مسائل الكون وسننه ، فانهم كلما أثبتوا شيئا عادوا فنفوه ، وكلما أبرموا أمراً نقضوه

لقد قرب ظهور الحق لأحرار هذه الشعوب وسنراهم بعد ترجمة هذا الكتاب

يدخلون ان شاء الله في دين الله أفواجا ، وقد بطلت ثقتهم بكل ما عداه من الأديان

لعل كتاب « الوحي المحمدي » قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية فانني أهديته إلى من عرفت عناوينهم وأرسله غيري إلى أناس منهم ، ومن عاداتهم أن يبحثوا عن كل كتاب جديد له شأن ، وقد شكر لي بعضهم هذه الهدية بكلمة لم تزد عليها (كصاحب مفتاح كنوز السنة الدكتور فنسنك) وانفرد العلامة الدكتور موريتس الالماني منهم بابداء رأيه فيه فأنشر هنا نص كتاب الشكر الذي تفضل به وهو :

برلين ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣

جناب الشيخ العلامة السيد محمد رشيد رضا المحترم

بعد التحية والاحترام فتفضلتم بارسال إلي نسخة كتابكم الجديد « الوحي المحمدي » فالرجا قبول جزيل الشكر على هذه الهدية النادرة القيمة وبالخصوص على ما أظهرتم بها من عدم نسيان شخصى ، ولا حاجة للتأكيد لكم أني اطلعت عليه بغاية الاهتمام ولا ريب عندي أنه يجد كمثله فى عالم العلماء

وفى أثناء هذا الاطلاع قد عثرت على جملة مسائل ونقط تستحق ملاحظات لكن نظراً لحجم هذا الجواب الذي لا يتسع أن أدخل فى جميعها أقتصر بواحدة منها أي فى معنى كلمة نبيء الاصلي « ص ٢١ » عند العبرانيين القدماء فكان (نبيأ) فى أوائل عصرهم المتكلم بصوت عال ثم الناطق فى أمور أمته القضائية والسياسية أي مثل ناصح ومستشار لارشادها ، لكن شيئا فشيئا تبعا لتقدم الدين الاسرائيلي تغير موقعه وصفته فصار واعظا وناصحا في الامور الدينية لانه كان معتقدا أن هذه الوظيفة صارت له بناء على أمر من الله بذلك، وأنه المتكلم باسم الله، والدليل على ذلك أنه يستعمل فى أول كلامه أي نبوته هذه الكلمات : هكذا قال يا هو (وهو اسم إله بنى اسرائيل وغيرهما من الأمم الشرقية المنتشرة بين الحجاز وبين سوريا الشمالية) الخ

وفى الختام أكرر لكم الشكر الواجب مع تمنياتي الصميمة المخلص

دكتور موريتس

يقول هذا العلامة الكبير إن هذه الهدية نادرة القيمة ، وإنه اطلع على الكتاب بغاية الاهتمام ، وانه لا يرتاب فى أنه يجد في عالم العلماء ما ينبغى لكتاب مثله ،

فهؤلاء العلماء قد بلغتهم دعوته ، وفهموا ما تحديتهم به من الآية الكبرى على نبوة محمد (ص) وما نزل عليه من وحى القرآن ، ولم يقدر أحد منهم أن ينقضها ، او يأتي بتعليل لهذه المعجزة الدالة على إتيان محمد (ص) بهذا القرآن فى أسلوبه ومعانيه وما فيها من العلوم العالية التى لخصتها فى المقاصد العشرة ولتأسيس أقوم دين وأقوى دولة وأمة فى عشر سنين قلبا اعظم دول الأرض وأديانه فى ثلث قرن

وما ذكره الدكتور من الملاحظة على بعض مدلول لفظ النبي عند اليهود فهو منقول من قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوسط ، وقد ذكرت المعنى الذي أشار إليه فى كلامى على النبوة من الطبعة الثانية (ص٢٥) وهو فى (٤١) من هذه الطبعة الثالثة

ولا أزال أتمنى لو يتفضل علي بغير هذه الملاحظة وأخص بالذكر ما عساه ينتقده من جوهر الموضوع ولبابه ، وإذن أرويه عنه بنصه وأبلغه جوابي عنه

تعادى الأمم والدول وحاجتها إلى الاسلام

لا تزال دول أوربة وامريكة وشعوبها على ما وصفتها به فى مقدمة هذا الكتاب من الشقاء والشقاق ، والرياء والنفاق ، وقد عقدوا فى هاتين السنتين مؤتمرا بعد مؤتمر واتفاقا بعد اتفاق ، ولا يزالون كحمار الرحى يدور ولا يبرح مكانه، ليس للحق ولا للصدق عندهم قيمة، فقد ظلوا منذ عقدوا عهد (فرسايل) يجرون فيه مع ألمانية على قاعدة البرنس بسمارك « المعاهدات حجة القوي على الضعيف » حتى إذا اضطروها الى نقضها سرا كانقضوها جهرا. وتجديد قوة حربية جوية يرهبونها، أذعنوا لمساواتها لهم فى الحقوق والكرامة الدولية كرها ، وكانوا يمارون فيها ويأبونها طوعا ، بل صاروا يخافونها أن تسطو عليهم ، ويجددون المحالفات الدفاعية التى أفضت الى الحرب العامة السابقة ، حتى ذلوا لمحالفة الدولة الشيوعية عدوتهم كلهم ، وأنى لهم الفرار من حكم كتاب الله فى الأمر بالوفاء بالعهود والنهى عن جعلها دخلا وخداعا لأجل أن تكون أمة هى أقوى من أمة فتكون المعاهدات أنكاثا لا مندوحة عن نقضها كما بينا لك فى محله (١)

(١) راجع ص١٤٨ طبعة أولى ، و ص ٢٥٢ طبعة ثانية ، و ص٢٧٠ طبعة ثالثة

بغوا واستعلوا على ألمانية وهم يعلمون أنها تعلوهم علما وصناعة ونظاما، وفرائصهم ترتعد فرقا من استعدادها السري للحرب، وقد ذاقوا بطشتها القاهرة التي كادت تفتك بهم كلهم من قبل، ولكنهم اتكلوا على خداع معاهدتهم الخاطئة الكاذبة، وعلى تجديد محالفاتهم التي قصدوا بها أن يكونوا إلبا واحداً عليها، وأن تكون في عزلة لاتجد فيها وليا ولا نصيراً

صاح زعيمها المجدد (هتلر) صيحة بنقض تلك المعاهدة، وتجديد السلاح الجوي والبحري والتعبئة، فراعتهم كزئير الاسد يجفل الغنم، وقالوا ان سلم اوربة وحربها رهن يديه، وعمرانها وخرابها بين شفتيه، وظلوا يصيخون السمع لما سيقوله في خطابه السياسي العام، حتى اذا ما ألقاه كان حجة بالغة له دامغة لخصومه، وصادعة لآخر حصن لدول الاتحاد الثلاث في وجهه (اتفاق ستريزا)، فعادت انكلترة تفاوض ألمانية في قواتها الجوية والبحرية وكانت تستكبر عن هذا، وكشرت عن أنيابها لايطالية فيما تحشره من جيوش وذخائر للعدوان على دولة الحبشة المعتصمة معهم بعهد عصبة الأمم، الذي هو في نظرها كسائر العهود الأوربية حجة القوي على الضعيف، وقد رأوا كيف رفضته بل رفسته كل من اليابان وألمانية برجلها، ولكن البلية كل البلية في تعارض مطامع الأقوياء، فزعيم إيطالية مغتر بقوتها جامح لفتح الحبشة أو نقصها من أطرافها، وانكلترة أعز منها واقوى، وإن هذا لصدع في اتحاد هؤلاء الاحلاف لا يلتئم، فهذا الزعيم المعتز بسلطانه الشخصي يرى خيبته بعد الشروع في وسائل الزحف قضاء على نفوذه، وأمته في اضطراب لا ينقذها منه إلا فوزه فيه، وألمانية لابد لها من استعادة جميع مستعمراتها، وهي اقدر على إخضاع انكلترة في الهواء والماء، وماذا تفعل فرنسة اذا تركته انكلترة؟

وجملة القول أن هذه الدول وشعوبها لاتزال ولن تزال على ما وصفناها به في مقدمة الطبعة الاولى للكتاب من فساد لا علاج له الا هداية الاسلام، دين الاخوة الاسلامية والعدل والرحمة والسلام، فيجب المبادرة الى تبليغ دعوته، وإقامة حجته، وهو قد أعد عقلاء المسلمين لتعميم هذه الدعوة عند ما ينهض زعيم مسلم لكفالتها وتوحيد النظام لها، ويرى قارئه الشواهد على هذا فيما نشرناه من التقاريظ في آخره، وفي مقدمتها قول شيخ الاسلام المراغي لمؤلفه « إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الاسلامي » الخ وسائرها مؤيد لقوله، يدل على استعداد في الامة لتنفيذه

استعداد المسلمين لدعاية الاسلام

ذكرت في آراء شيخنا الاستاذ الامام من تاريخه (ص٩٣٩ ج ١) أن أمم الحضارة في الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم إلى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا في الاسلام - إسلام القرآن والسنة لا إسلام المتكلمين والفقهاء - وأنه صرح بهذا مرارا في دروسه في الأزهر وفي غيره

وأقول الآن: لكنه ما سمع لقوله هذا صدى، ولا وجد على نار المسلمين هدى، فكان يرجح أن هداية القرآن ستظهر في غيرهم من الشعوب الحية، وأن هؤلاء المسلمين الجغرافيين سيطلبون إسلام القرآن والسنة منهم تقليداً لهم كما يقلدونهم في الزينة والاباحة والاسراف في الشهوات الذي أفسدهم جميعا

وسمعت مثل هذا الرأي من الاستاذ المراغي وغيره من الأفراد، ولعلي أوسع علما واختباراً لمسلمي الأقطار من كل هؤلاء وأجدر منهم بسوء الظن فيهم. ولكن ظهر لي بتقبل عقلائهم لكتاب «الوحي المحمدي» بما تقبلوه به من إيمان وشهادة ورجاء وثناء ودعاء، أن استعدادهم لهداية القرآن والدعاية له قد دخل في طور جديد،

ألم تر كيف تجاوبت أصوات المقرظين له في مصر وسورية والعراق وغيرها من الأقطار بقول القائلين إنهم كانوا يفكرون ويتمنون ويتساءلون قبله عن كتاب يصلح للدعوة إلى الاسلام فلا يجدون، حتى إذا رأوه وجدوه الضالة التي ينشدون؟ أو لم تر كيف شاركهم فيها أئمة المسلمين وملوكهم المتقون

فعلم من هذا أن المسلمين لا يمكن أن تعود إليهم الحياة إلا بمثل ما بدأت به سلفهم من روح القرآن وهدي الرسول (ص) كما قال الامام مالك: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما ذلك إلا أن يكونوا على علم بالقرآن يوقنون به أنه مصلح لجميع البشر، وأن حملته يجب أن يكونوا أئمة البشر وهداتهم، والمصلحين لما أفسدته المدنية المادية من عقائدهم وأخلاقهم، فان لم يملكهم هذا اليقين فلا رجاء في دينهم ولا دنياهم، ولكن نشر هذا اليقين فيهم يتوقف على نظام، وزعامة يثق بها الخاص والعام، وسيرون الدعوة له تبث في هذا العام، وسنرى قدر استعدادهم لتأييدها بأموالهم وانفسهم فيسرنا إن شاء الله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

محمد رشيد رضا
منشىء مجلة المنار

خطاب الشيخ الاكبر في الجامع الازهر

نوهنا في الجزء الماضي بحفاوة الازهر بعودة الشيخ المراغي إلى رياسة مشيخة الأزهر والمعاهد الدينية ومشاركة جميع طبقات الأمة لهم فيها ، وقد وعدهم بأن يرد لهم الزيارة فى الجامع الأزهر نفسه ويلقي عليهم خطابا عاما ، ووفى بوعده فكان يوما مشهودا ألقيت فيه الخطب والقصائد فى تهنئة الأزهر وأهله بامامهم المصلح الاكبر ، ثم ألقي عليهم الاستاذ الخطاب الآتي الجامع لمقاصد الاصلاح والتجديد وكانت آلة مضخمة الصوت توصل كلامه إلى أقصى أولئك الالوف المجموعة كأدناهم ، وهذا نص الخطاب ، والعناوين في اثنائه من وضع المنار :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

له الحمد على نعمه ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه

وبعد : فقد رأيت واجبا علي أن أزور الازهر قبل بدء الدراسة لأحيي علماء الازهر والمعاهد، وطلبة العلم في الازهر والمعاهد في دارهم كما حيوني في داري، والازهر دار خاصة لكل من ينتسب إلى العلم ، ودار عامة للمسلمين .

وقصدت أيضا إسداء النصيحة إلى اخواني العلماء وأبنائي الطلبة بنسيان ما قد يكون باقياً في نفوسهم من ضغائن وإحن سببتها الحوادث الاخيرة التي تعرفونها لنستقبل الحياة العلمية في صفاء ، ونقبل على العلم بقلوب مخلصة لله ورسوله ، نقية من دنس الغل والحقد ، عامرة بالايمان :

والازهر مكان يستحق الاجلال ، فقد كان ولا يزال مصباحا تستضيء به جميع الامم الاسلامية، ومنبعا صافيا لعلوم الدين، ومستودع فنون العربية وأسرارها وبعض العلوم العقلية .

وقد اضطلع بحمل عبء المعارف الاسلامية وغيرها ، وخاصة بعد سقوط بغداد وضياع ذخائرها العلمية ، وصار المثابة الاخيرة ، والكعبة التي يؤمها طلاب العلم من جميع الاقطار . وما من بلد في مصر ، بل وما من بلد في أي قطر من

الاقطار الاسلامية إلا وهو مدين للازهر بما يعرفه أهله من الدين الاسلامي ، وبما بقي عندهم من علوم العربية

حمل الازهر هذا العبء وأدى الامانة كاملة، وله الفضل على المعاهد العلمية القائمة بجواره في مصر ، فهو أستاذها ، وهو شيخ هذه المعاهد جميعها

نعم : قد استقلت عنه بعض المعاهد أخيراً، ولكنه لايزال له نصيب عظيم من التثقيف في المعارف الاسلامية وفنون العربية في أكثر هذه المعاهد . فلكم أن تفخروا بتاريخ طويل كله مجد وعظمة لهذا المعهد الذي تنتسبون اليه : تاريخ ظهر فيه من الائمة والعلماء والمؤلفين من خريجي الازهر من لا يحصيهم العد ، وقد كانوا سباقين للخيرات وكلوا أمرهم الى الله جل شأنه ، فحفظهم ورعاهم ، وشرح صدورهم ، وأنار عقولهم ، فترسموا آثار الرسول الاكرم صلوات الله عليه وتخلقوا بأخلاقه ، واعتصموا بهديه، وانتفع الناس بعلمهم وتأدبوا، وحلت آثارهم في البلاد جميعها كما يحل ضوء الشمس ونور القمر

أولئك آباؤنا وأجدادنا في سلسلة النسب العلمي، رضي الله عنهم ونفعنا بهم يجب أن نذكر هذا المجد ونفاخر به، ونحرص على الانتساب اليه كما يحرص الاشراف على أنسابهم ، وأن نحافظ على هذا المجد ونضيف اليه مجداً طارفا ، اقتداء بأولئك الآباء والاجداد .

قد يسأل بعض الناس مافائدة الازهر؟ أو ماهي رسالة الازهر كما يقال اليوم؟ فأقول لهؤلاء: رسالة الازهر هي حمل رسالة الاسلام، ومتى عرفت رسالة الاسلام عرفت رسالة الازهر

موضوع الاسلام واتفاقه مع علوم العصر والحاجة إليها

الاسلام دين جاء لتهذيب البشر، ورفع مستوى الانسانية، والسمو بالنفوس الى أرفع درجات العز والكرامة . قد طوح بالوسطاء بين الناس وربهم، ووصل بين العبد وربه ، ولم يجعل لاحد فضلا على أحد إلا بالتقوى، وقدس العلم والعلماء، وقرر في غير لبس ما يليق بذات الخالق من الصفات . وما قرره في ذلك هو

منتهى ماسمت اليه الحكمة ، ووصل اليه العقل ، وأتى بتعاليم كلها ترجع إلى تهذيب النفس ، وتلطيف الوجدان ، وأبان أصول الاخلاق ، وشرع حل التمتع بالطيبات ،ولم يحرم إلا الخبائث،ووضع حدوداً تحد من طغيان النفوس ونزوات الشهوات ، ورسم أصول النظم الاجتماعية وأصول القوانين . قواعد كلها لخير البشر وسعادة المجتمع الانساني .

هذه صورة مصغرة جداً للدين الاسلامي . ورسالة الازهر هي بيان الدين الاسلامي ، وشرح قواعده وأسراره ، ومتى أدى هذه الرسالة على وجهها فقد أدى نصيبا عظيما من السعادة والخير للجمعية الانسانية .

في القرآن الكريم حث شديد على العلم وعلى معرفة الله وعلى تدبر مافي الكون، وليس هناك علم يخرج موضوعه عن الخالق والمخلوق ، فالدين الاسلامي يحث على تعلم جميع المعارف الحقة . وليس في المعارف الحقة الصحيحة المستقرة شيء يمكن أن يناقض أصول الدين ويهدمها.

نعم: قد توجد معارف تناقض بعض ماوضعه العلماء في شرح القرآن والحديث والفقه وغيرها ولكننا لا نهتم لهذا ، فليسر العلم في طريقه ، ولنصحح معارف الماضين لكن على شريطة أن يكون مايخالف معارفنا من العلم البرهاني المستقر

ولست أقصد بحديثي هذا أن يكون الازهر مدرسة طب أو هندسة ، أو كلية للكيمياء أو ما يشبه هذا ، ولكني أعني أن هناك علوما ومعارف لها صلة بالدين وثيقة تعين على فهمه ، وتبرهن على صحته ، ويدفع بها عنه الشبهات . هذه العلوم يجب أن يتعلمها العالم الديني أو يتعلم منها القدر الضروري لما يوجه إليه

هذا وقد تغيرت في العالم طرق عرض السلع التجارية ، وأصبح الاعلان عنها ضروريا لنشرها وترغيب الناس فيها ، ولديكم الحوانيت القديمة ومخازن التجارة الحديثة: وازنوا بينها تدركوا مافي طريقة العرض الحديثة من جمال يجذب النفوس إليها ، وما في طريقة العرض القديمة من تشويه ينفر الناس عنها ، وقد توجد في الحوانيت القديمة سلع أحسن صنفا ، وأغلى قيمة ، وأمتن مادة ، ومع ذلك هي في كساد .

تغيير طريقة التعليم والتصنيف

وكما تغيرت طريقة عرض السلع تغيرت طريقة عرض العلم ، وأحدث العلماء طرائق تبعث الرغبة الملحة في العلم ، وتنفي الملل والسأم

حدثت هذه الطرق في إلقاء الدروس والمحاضرات ، وحدثت في تأليف الكتب أيضا ، وهذا المثل ينطبق علينا : ففي جميع الكتب التي تدرس في الازهر وفي جميع العلوم التي تدرس في الازهر أعلاق نفيسة لاتحتاج إلا إلى تغيير طريقة العرض في الدرس والتأليف ، وفي الفقه الاسلامي نظريات تعد الآن أحدث النظريات عند رجال القانون ، وفي الفقه الاسلامي آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج ، وتحقق العدالة في أكمل صورها، ولكن هذه النظريات البالغة منتهى الجمال والحكمة يحجبها عن الناس أسلوب التأليف القديم

على الازهر أن يسهل فهم علومه على الناس ، وأن ييسر لهم هذه المعارف، وأن يعرضها عرضا حديثا جذابا مشوقا

تطهير الاسلام من البدع

ومسألة أخرى يجب أن يعنى الازهر بها : تلك هي تطهير الدين الاسلامي من البدع وما أضيف إليه بسبب الجهل باسراره ومقاصده . هناك آراء منثورة في كتب المذاهب وفي غير كتب المذاهب يحسن سترها، ضنا بكرامة الفقه والدين.

ومن الواجب أن يعترف بان المذاهب الاسلامية جملة تغني عن الاجتهاد في المسائل التي عرضت من قبل متى تخير العلماء منها

وأذكر قصة طريفة تجدونها في كتاب «الولاة والقضاة» للكندي :

« كان في مصر قاض شافعي المذهب في عصر الامام الطحاوي ، وكان يتخير لأحكامه ما يرى أنه محقق للعدل من آراء الائمة ولا يتقيد بمذهب، وكان مرضي الاحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه في دينه وخلقه، سأل ذلك القاضي الامام الطحاوي عن رأيه في واقعة من الواقعات ، فقال الطحاوي : أتسألني عن

رأيي أو عن رأي أبي حنيفة ؟ فقال القاضي : ولم هذا السؤال ؟ قال الطحاوي: ظننتك تحسبني مقلداً ، فقال القاضي : مايقلد إلا عصبي أو غبي ؟

فتخير الاحكام نوع من الاجتهاد، ولكنه الاجتهاد الذي لم يغلق الناس أبوابه

إصلاح التعليم في الازهر واجب اجتماعي لاصلاح الامم الاسلامية في مختلف أقطارها وأجناسها ، وعلى كل مسلم أن يساهم فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا

بل أقول ان هذا الاصلاح ضروري للامم غير الاسلامية أيضا بما يؤديه من الخدمة للحضارة الانسانية المصرية بمقاومة خطر الاباحة المادية والالحاد اللذين يبثهما في الامم دعاة البلشفية والتعطيل الجاحدون لوجود الخالق عز وجل ولعقيدة البعث والجزاء على الخير والشر ، فهذا الخطر لاعلاج له إلا هداية الدين (١)

وأنا أرجو الله سبحانه أن يوفق العلماء وطلاب العلم إلى الاخلاص في النهوض بالازهر ، فان الاخلاص في ذلك إخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين ، وللدين الحق الذي وعد الله أن يظهره على الدين كله ، وجعله هداية عامة لجميع البشر

احترام حرية الرأى

ونصيحة أقدمها للعلماء وطلاب العلم في الازهر راجيا تدبرها، وهي احترام حرية الرأي ، والتحرج من الاتهام بالزندقة والكفر

ولا أطالب بشيء يعد بدعة ، ولا أحدث في الدين حدثا بهذه النصيحة ، فهي موافقة للقواعد التي وضعها سلف الامة رضي الله عنهم وتروتها مبسوطة واضحة في كتب الاصول وفي جميع كتب الامام الغزالي

وحاصلها - على ما أذكر - أن المسائل الفقهية يكفر منكر الضروري منها(٢) كالصلاة والزكاة ، وحرمة الزنا وشرب الخمر ، وقتل النفس والربا

(١) هذه المسألة مما زاده الشيخ الأكبر في خطابه ولم يكن مكتوبا فيه ولكننا سمعناه منه (٢) المراد من الضروري هنا المعلوم من الدين بالضرورة لا الضروري في العمل أي الذي يضطر الناس إلى العمل به ، واشترطوا في كون هذا المعلوم بالضرورة مكفراً أن يكون مجمعا عليه، وهو يشمل العقائد والاحكام ولعل الشيخ الاكبر خص المسائل الفقهية بالذكر لأجل التفصيل الذي ذكره بعد فيها

أما إنكار أن الاجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، فلا يوجب الكفر ، وما عدا ذلك من المسائل الفقهية لا إثم في إنكاره مطلقا ، على شرط أن يكون الانكار غير مصادم لنص أو إجماع

على هذا أجمع الصحابة رضي الله عنهم ، وأجمع عليه الائمة ، ولم يعرف أن بعضهم أثّم بعضا

واجمال القول أنه مادام المسلم في دائرة القرآن لا يكذب شيئا منه ، ولا يكذب ما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم بطرق قاطعة ، فهو مسلم لا يحل لأحد أن يتهمه بالكفر

عرضت لهذه النصيحة لانها تسهل على أهل الازهر معاشرة الناس،والعمل بها يمكن من نشر الدعوة ومن الجدل بطرقه المقبولة ، والعمل على خلافها منفر يحدث الشقاق ويورث العداوة

أسأل الله أن يهبنا رشداً ،وأن يملأ قلوبنا خشية وهيبة من جلاله، ويملأها عطفا وشفقة ورحمة لعباده

وإذا كانت مهمة الازهر حمل رسالة الاسلام للعالم، فمن أول واجب على أهله أن يعدوا أنفسهم لتعلم اللغات : لغات الامم الاسلامية وغير الامم الاسلامية ،والله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم

فليحقق الازهر القدوة، وليرسل الى الناس رسلا يفقهونهم في دينهم بلسانهم، وسأعنى بهذه المسألة كما أعنى بتثقيف اخواننا الذين أسماهم القانون «أغرابا» فان لهم من الحقوق والحرية في هذا الوطن ما لكل فرد من أهل البلاد . وأرجو أن يفكروا طويلا فيما يفرضه عليهم دينهم من الهداية والارشاد وإسعاد المجتمع

وخليق بنا أن نذكر ما لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم من منن وأياد بيضاء على المعاهد الدينية ، وأن نسأل الله جلت قدرته أن يسبغ عليه نعمة العافية ويديم على هذه المعاهد خيره وبره ، وأن يحفظ حضرة صاحب السمو الملكي أمير الصعيد ولي عهده المحبوب . والسلام عليكم ورحمة الله .

الهمزية في مدح خير البرية

﴿ والدفاع عن الدين ، والرد على المبشرين ﴾

(نظمت بمناسبة احتفال الأمة الاسلامية بالمولد الشريف لعام ١٣٥٤)

بقلم (الاديب الشاعر) اليوزباشى محمد توفيق علي

النور المحمدي ــ الشريعة السمحة ــ تحريم الخمر ــ نجاسة الكلب والخنزير ــ حكمة الطلاق ــ حكمة تعدد الزوجات ــ تبشير الانجيل والتوراة بنبي الاسلام (ص) ــ المبشرون بعيسى (ص) ــ نقائض معقدة ــ مقارنة بين معجزات المسيح ومعجزات غيره من الانبياء والرسل ــ وجوب توحيد الخالق جل وعلا ــ التجاء الناظم اليه تعالى

﴿ النور المحمدي ﴾

ذلك النور ساطعاً والضياء   وصفه عنه يقصُر البلغاء

نورُ مَن سبح الحصى في يديه   وجرى منهما وفاض الماء

أكمل الخلق صورة يبدع اللـ   ـه تعالى من نوره ما يشاء

مرسل جاوز السموات سبعاً   واليه تناهت العلياء

وارتقى حيث لا ملائكة اللـ   ـه تعالى ارتقت ولا الانبياء

صاعداً في معارج القرب يحدو   ه السنا ضافيا ويغشى البهاء

ذو مُحيا يصبو له البدر عشقا   وله تنتمي ضياءً ذكاء

رحمة كله وعلم وحلم   ووقار ونجدة وسخاء

مثل من أنجبت (كريمة وهب)   لم تلد عاقر ولا عذراء

﴿ الشريعة السمحة ﴾

ذو أتى بالنعيم ذكراً حكيما   فاذا الارض جنة والسماء

وحيه للعقول رَوح وريحا   ن وفيه من كل داء شفاء

آية منه تعجز الانس والجـ ن ولو أن كلهم فصحاء
لم يكذب موسى وعيسى ، وبغياً كذبته الشرور والاهواء
كيف تأتي على الشرائع آيا ت وضاء وسمحة غرّاء
وكتاب مفصل عربي؟ ليس يرضى بذلك البخلاء
كلما يرتقي الزمان يرى الخيـ ـر أفاضته ملة سحّاء
سكبت صفوة الشرائع في كأ س بها ترتوي العقول الظماء

(الخمر)

واشهد اليوم ضجة تنكر الخمـ ـر وكأسا عنها سلا الندماء
بؤرة الشر والجرائر والآ ثام ، أفتى بذلك الحكماء
رب بيت أقامت الخمر فيه أجفلت عن رواقه السراء
فالعقول اشتكت الى الله منها والكلى والكبود والاحشاء
حرّمتها دهراً حكومة أمريـ ـكا ونادى برجسها الفضلاء
ثم عادت تلغي أوامرها بعـ ـد اهتداء وضلت الآراء
وسيأتي يوم قريب تزول الـ ـخمر فيه وتصرع الفحشاء
ويرى الناس أن شرع أبي القا سم خير ونعمة وهناء

(الكلاب والخنازير)

أثبت الطب فضل شرعك والجـ ـهر والباحثون والعلماء
فلعاب الكلاب سم زعاف ولحام الخنزير داء عياء[1]

(١) انتشر إنشاء المستشفيات للمعالجة من داء الكلب وأثبت العلم وجود ديدان سامة في لحم الخنزير لا تقتلها درجة الغليان.

(الطلاق)

واشتراع الطلاق أصبح في الـ ـدنيا مباحا يقره الفقهاء
عانقته كرها محاكم أوربا ونادى بنفعه الاذكياء
كيف عيش الزوجين خانهما الـ ـحب ولج الاذى وحال الصفاء
أعدوان يقرنان بحبل ؟ حالة لا يطيقها السجناء

(تعدد الزوجات)

(جنسهن اللطيف) يزداد عداً ذلكم مايقوله الاحصاء[1]
فغدا اليوم الاجتماع مريضا واعتناق الزوجات فيه الدواء
ليس في غيرة النساء من المحـ ـظور ما تستثيره البأساء
كيف تقوى فضلى على عنت الدهـ ـر وما قد يجره الإغواء
فتراهن من ثلاث ومثنى ورباع شعارهن الاخاء
فمن العدل بينهن وفاق والمساواة ألفة وهناء
وهو فرض على المعدد لا يقـ ـوى على حمل ثقله الضعفاء
إن في رفق شرع أحمد بالأنـ ـثى لفضلا يجله الشرفاء
وقديما حمى الضعاف ونجا هن مما يخفنه الاقوياء

(تبشير الانجيل والتوراة بنبي الاسلام ﷺ)

عظمت تلكمو الاناجيل والتو راة لولا تقول واجتراء
أي عهد — لكنهم ضيعوه إنما يحفظ العهود الوفاء

---

(١) ومن ذلك الاحصاء ماجاء بالصفحة السابعة بالعمود الخامس من جريدة الاهرام الغراء الصادرة في ٣-٥-١٩٣٥ تحت عنوان (النساء كثيرات) من أنه يوجد في ألمانيا وحدها مليونان ومائتا ألف امرأة زيادة عما فيها من الرجال

بدلوا الوحي والرسالة إطفا ء لنور ما إن له إطفاء
شهد الصادق المسيح عليهم في الاناجيل أنهم أشقياء
في ثياب الحملان منهم ذئاب خاطفات فما هم أنبياء
فاحذروهم وإن أتوا بالاعا جيب فليسوا مني وهم أدعياء
لست أرضى من قال يارب منهم لي ولكن يرضيني الحنفاء
ذلكم ما رواه إنجيل « متى » فليراجع نصوصه القراء (*)

المبشرون بعيسى (ص)

عجباً للمبشرين بعيسى أمةً دينها الهدى والصفاء
بعد ما بشر المسيح بهادي ها كما بشرت به الانبياء
فهو (نور الحق) الذي لفت النا س إليه المسيح وهو (العزاء)
وليراجع من شاء انجيل (يوحنا) ففيه للباحثين الرضاء (١)

---

*) جاء بالاصحاح السابع من إنجيل متى عدد ١٥ و٢١ و٢٢ و٢٣ قول المسيح «احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان لكنهم من داخل ذئاب خاطفة . ليس من يقول لي يارب يدخل ملكوت السماء بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات . كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟ فحينئذ أصرح لهم أني لم أعرفكم قط ، اذهبوا عني يافاعلي الاثم

(١) ورد بالاصحاح الخامس عشر من انجيل يوحنا بالآيتين ٢٦ و ٢٧ قول المسيح عليه السلام ـ ومتى جاء (المعزي) الذي سأرسله أنا إليكم من الآب (روح الحق) الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء ـ وجاء بالاصحاح السادس عشر منه بالآية ٦ قوله عليه السلام ـ لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (المعزي) ـ وبالآيتين ١٣ و ١٤ وأما متى جاء ذاك (روح الحق) فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به

وهو ذاك النبي يُسأل في الا ۔ جيل عنه يحيى فأين الخفاء (١)
فلقد بشرت بمبعثه التو ۔ راة لولا جحودهم والمراء
فهو ذو من (جبال فاران) مبعو ۔ ث ومن تلكم الجبال [حراء] (٢)
أينع الوحي وازدهى في ذراه ۔ وتغنى فأطرب الانشاء
وتجلى على البسيطة نور ۔ وكسا الكون رونق ورُواء
حِكَمٌ حين أنزلت ختم الوحـ ۔ ـي وتمت على الورى النعماء
وطوت معجزات كل رسول ۔ ولها الخلد وحدها والبقاء

نقائض معقّدة

يا لها من نقائض تحرج الفهـ ۔ ـم عليها لبسٌ وفيها التواء
واعتقاد معقد ذنب الضب ۔ لديه محجة واستواء
يُصلَب الربُّ في خطيئة عبد ۔ كيف يرضى بذلك العقلاء
لِمَ لَمْ يغفر الخطيئة غفرا ۔ ناً له فيه عزة وإباء
إن يكن ربكم فمن كان يدعو ۔ ربه وهو خاشع بكّاء
ءإله في وجهه يبصق الأشـ ۔ ـرار هزؤاً ويزدرى ويساء
لِمَ لَمْ يقطع اليهود أبوه ۔ كيف تنسى حنوها الآباء

(١ و ٢) يحيى بن زكريا عليهما السلام وهو المعروف في الانجيل باسم يوحنا المعمدان فانه لما جاء قومه كما هو مذكور بانجيل يوحنا بالاصحاح الأول بالآيات ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ وسألوه آنت النبي أجاب نفيا وهذا نص الآيات سالفة الذكر ــ ١٩ وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ٢٠ فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح ٢١ فسألوه إذاً ماذا . إيليا أنت؟ فقال لست أنا ــ النبي أنت فأجاب لا ــ وإذاً فقد كانوا يترقبون بعثة النبي (ص) وذلك لما هو مذكور عندهم بالتوراة من أنه يبعث رسول من جبال فاران وهي جبال بمكة منها جبل حراء الذي مازال ينقطع فيه (ص) للعبادة إلى أن أوحي اليه

وبكم باع ذا الجلال يهوذا واشترى منه ربه الاعداء
(أثلاثون فضة) ثمن الله ؟ تخطاه بيعهم والشراء
بل أحبوك مسرفين وغالوا في ولاء هُداك منه براء

مقارنة بين معجزات المسيح وغيره من الانبياء (ع.م)

أم لأن المسيح قد أنجبته ذات طهر صديقة عذراء
مثله آدم فهل كان ربا آدم ؟ أو إلهة حواء؟
أم لأن المسيح أحيا فتاة إذ دعا الله فاستجيب الدعاء
حزقيال النبي أنشر جيشا عاش فيه البلى وجال الفناء[1]
أم مشى فوق لجة يتهادى فارعوى خاشعاً وقرّ الماء
فالعصا قد علمت انفلق البحـ ـر لموسى بها وحل القضاء[2]
وله البينات والجبل المنتوق والمن واليد البيضاء
ولخير الورى المكمل صلى الله والمتقون والاصفياء
معجزات ما ان يلم بها الحصـ ـر ولا يستطيعها استقصاء
نصرته الرياح والرعب في (الخنـ ـدق) حتى تشتتت الحلفاء[3]
وتراءى جبريل يسطع في (بد ر) تليه كتيبة شهباء
وله الجذع حن والقمر انشـ ـق وظهر البراق والاسراء
ومشت أيكة إليه دعاها تسحب الجذع غضة خضراء
ولكم سح إذ دعا ربه الغيث ولانت لوطئه صفواء (٤)

«١» من أنبياء بني اسرائيل وقصته مبسوطة في سفره من العهد القديم وليس بثابت عندنا «٢» المنتوق المرفوع «٣» الحلفاء قريش وغطفان ويهود
«٤» الصفواء الصخرة الملساء

ماله إن مشى على الارض ظل ساطع النور ماله أفياء(١)
وظلاله بل منه ظللت الشمـ س لزاما غمامة وطفاء(٢)
كم دعا الله والغذاء قليل فنما واستفاض ذاك الغذاء

﴿وجوب توحيد الخالق جل وعلا﴾

آن للارض أن تقدس ربا واحد الذات ماله أجزاء
آدم عنده ونوح وموسى والمسيح الذي نجل سواء
وغني عن العباد جميعا ما له زوجة ولا أبناء
وله الخلق أجمعون عبيد وله المجد كله والبهاء
ورءوس الطغاة موطيء نعليـ ـه(٣) وتلك الجلالة القعساء
ملأ الكائنات حسنا ولكن لا ترى الشمس مقلة عمياء
فهو نور سطا على كل نور خفيت في ظهوره الاشياء
تتلاشى الشموس فيه وتخبو وتغيب البروج والاضواء

***

أيها المشرك المعدد وحد ان قول المعددين هراء
لو مع الله في السموات والار ض شريك لقامت الشحناء
بل هو الله واحد ماله في الـ ـملك ثان ولا له أكفاء

***

أيها الجاحد المعطل صدق لا يكن من هداتك الاغبياء
وانظر الارض والسماء وفكر هل بلا صانع يقوم البناء؟

---

(١) الأفياء الظلال (٢) الوطفاء المسترخية الجوانب لكثرة مائها

(٣) المنار: هذا كناية عن قهره تعالى لهم وهو تعبير يتوقف على النص ولم يرد ولكن ورد لفظ (القدم) في قهر جهنم

انما الارض ذرة في رحيب الـ ـملك فالملك شاسع والفضاء
فاعبد الله لست شيئا ولا تمـ ـغر وتذهب بلبك الخيلاء
أنت رد على جحودك قاض فصلته العروق والاعضاء

التجاء الناظم إليه تعالى

ما الذي تبلغ النوائب مني يامليكي ولي اليك التجاء
أنت درعي وأنت سيفي ورمحي ونبالي وعسكري واللواء
لا أبالي وذو الجلال نصيري أن خصمي الملوك والوزراء
لست بالاقوياء أحفل لكن إن شكاني لمدلك الضعفاء
لك يارب بطشة إن تعاقب عندها الارض والسماء هباء
إن تكن غاضباً عليّ تعاليـ ـت فلا ناصر ولا شفعاء
عملي سيء وظلمي لنفسي ولغيري تضج منه السماء
أستحق الصليّ في النار لكن لي في عفوك الكريم رجاء
ليس مثلي لجنة الخلد أهلا كيف ترنو لمذنب حوراء
ذلك الفضل في غنى عن طلوحي انما يستحقه الصلحاء
رب نعمى على جحود تولت ما لنعمى على جحود بقاء
كيف آسى على سرور تولى ويسار أودت به ضراء
إن من كنت كنزه وغناه يستوي الضيق عنده والرخاء
ليست الكيمياء منا بعيدا انما حمد ربنا الكيمياء
لست أخشى ضلالة ولقلبي بسنا وجهك الكريم اهتداء
فاهدنا للفلاح والخير والتقـ ـوى فمنك الهدى ومنك الحباء
واحمنا في بلادنا من أوربا سيلها جارف ونحن الغثاء

(انتهى)

كتاب الوحي المحمدي

لداعية الاصلاح العالم المستقل ، والمناظر المستدل ، الاستاذ الشيخ مصطفى أحمد الرفاعي اللبان بأسيوط وهو مما جاءنا بعد الطبعة الثانية (قال) .

نظر أبو العلاء المعري إلى نفسه فرآها وقد صفت ونجت من مزالق معظم النفوس وأدرك عقله نقيا من الخرافات والاوهام التي أضلت العقول ، وألفى روحه غنية بالفلسفة الصحيحة التي ترى في المادة ستاراً كثيفا يسدل على الحقائق ، ووجد شاعريته فياضة بأرق المعاني ، في أدق الالفاظ والمباني ، فهتف من أعماق قلبه منشداً

وإني وإن كنت الاخير زمانه ... لآت بما لم تسطعه الاوائل

ونحن بدورنا ننظر إلى نفس السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار فنراها وقد أشربت حب الدين الاسلامي الحنيف والدفاع عنه إشرابا ، ونرى عقله وقد أدرك أسرار الاسلام إدراكا ، ونلفي روحه صافية تقية نقية قد أنجبت أسمى الآثار إنجابا ، ونسبح في مؤلفاته فنعلمه الطود الأشم والفارس المجلى ، والمحقق النادر المثال ، والكاتب المبحوث الذي لا يشق له غبار ، ثم نقع في سياحتنا على كتابه (الوحي المحمدي) فنقف طويلا ونهتف مثل ما هتف المعري منشدين مخاطبين السيد الرشيد المرشد :

وأنت وإن كنت الاخير زمانه ... أتيت بما لم تستطعه الاوائل

ولقد كنا نؤمن بأن الله تعالى أوحي الى عبده ورسوله ﷺ ما أوحى ، مستدلين بنصوص القرآن الكريم وببعض البراهين العقلية التي تخير (؟) الوحي الى النفوس الصافية الراقية ، ولكنا ما كنا قادرين أن نقنع بهذا ذوي العقول العصرية ، وأولي البحوث الدقيقة القوية ، فاذا دار النقاش بيننا وبين فريق من هؤلاء لم يعجبهم كثيراً ما ندلي به ، وألقوا في سبيلنا عقابا ، وافتجروا (١) حفراً وأقاموا متاريس ،

(١) افتجر الكلام اختلقه لم يتبع به احدا ولم يتابعه عليه أحد. فلعل الاصل: افتجروا شبها ، واحتفروا حفرا

وغرسوا أشواكا ، فتنتهي المناظرة ولا اقتناع ولا رضاء، وينشر عنا المعجز عن بيان وجه الحق في هذه المسألة مع أهميتها ونفاستها ونفعها العظيم إذا أحسن تبيانها، وأتقن توجيهها وعرضها على طالبيها ، فكان كتاب (الوحي المحمدي) للسيد الشريف والمصلح الكبير ، أستاذنا محمد رشيد رضا صاحب المنار وافيا بالمطلب على أتم وجوهه، كافيا في الاقناع لأكبر متشبث متعنت، حجة صادقة لا تدفع على صحة الوحي الرباني لرسول الله ﷺ سيد العالمين، وخاتم الانبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

يرى القارىء الوحي المحمدي مقدمة وجيزة بديعة تجمل الكتاب وتبرز مغزاه في صورة مستملحة جزلة طيبة ، يعلم منها ما يحجب الافرنج عن الاسلام : من الكنائس المادية ، والسياسية الخادعة ، وحال المسلمين الواهية ، وما يعوق الاجانب عن فهم القرآن : من جهل بلاغته ، وقصور ترجمات القرآن عن ادراك غايته، وعدم وجود دولة اسلامية تدافع عن هدايته ، ويفهم منها القصد من الكتاب على أتم وجه من وجوه الصواب . ويجول القارىء بعد ذلك في جنة الكتاب الغناء فيعرف معنى النبوة والوحي والرسالة وحاجة الناس اليها ، ويدرك عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومقدار ما جنت عليها كتب السابقين بما يجري على الشرور والمفاسد، ويتيقن وجوب ايمان الناس برسول الله ﷺ فاتباعه هو الدواء الناجع لأدواء الهيئة الاجتماعية . وينتقل القارىء من شجرة النبوة الوارفة الظلال إلى أن نبوة الرسول ﷺ هي الممتازة ، فنبوة الانبياء الاسرائيليين كانت – على قولهم – أشبه بصناعة تتلقى في مدارس خاصة ، ونبوة موسى الكليم عليه السلام قد ينكرها الملاحدة لانه تربى في بيت فرعون وهو بيت علم وتشريع، فلا عجب اذا جاء بشريعة كالتوراة. ونبوة المسيح عليه السلام يعقب عليها الملاحدة أيضا فينقصون قدرها ويغضون من قيمتها، ويقولون إنه لم يأت بشيء جديد . وأما نبوة الرسول ﷺ فلا يمكن الطعن عليها بمثل هذا لان سيدنا محمداً ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولا يتصل ببيئة علم أو شريعة، فمجيئه بهذا الدين دليل صدقه وحقيقة رسالته . والحقيقة أن نبوة الرسول ﷺ مثبتة لغيرها من النبوات لا تصح إلا من طريقها ومشكاة نورها

ويمتلىء القارىء بعد هذا علما وتحقيقا حين يقرأ الفصول البايغة عن الادلة العقلية والكونية على صدق الوحي المحمدي الالهي فيطمئن قلبه وتستريح نفسه، وينشرح صدره: ويشكر لله توفيق السيد رشيد حتى ألف هذا الكتاب الذي أنار طريق الوحي بآلاف المصابيح الكهربائية الساطعه القوية. ثم يرتوي القارىء من نهر فياض عذب صاف يجري منه التحقيق ذهبيا عسجديا، فيعرف مقاصد القرآن الكريم وهدايته للبشر وإظهار الحق في الايمان بالله تعالى وفي عقيدة البعث والجزاء ويلمس الاصلاح القرآني العظيم للنفس والروح والجسد والافراد والجماعات، والنهضة التي أزجاها في الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب وحياة الاسرة. فاذا انتهى من الكتاب خرج منه بكنز ثمين من العلم الصحيح النقي، وانتقل الى جو من السعادة فسيح بما وصل إليه من هدوء في نفسه واطمئنان في قلبه، واقتناع في عقله يملك نفسه أن يصيح: حياك الله أيها السيد الرشيد لقد سددت باصلاحك، ورشدت بمباحثك القيمة الدالة على أشراق نور الحق في قلبك، فهنيئا لك عملك، ومشكور لك سعيك

ولقد استوعبت كتاب الوحي المحمدي وهنئت باغترافه وارتشافه عدة مرات فرأيته رحيقا من العلم مختوما ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وأنا أشهد صادقا أن السيد أدى بكتابه إلى العالم الاسلامي أجل الخدمات، وعبّد للباحثين من الغربيين والمصريين منهج البحث الهادىء الرزين، القوي المبين، وأسقط حجج الذين كانوا يحتجون بأنهم غير واجدين من يقدم لهم المطالب سائغة ميسورة. وسيكون له ان شاء الله أثر جليل في توجيه المباحث الدينية وجهة طيبة في صالح الاسلام ومستقبله العتيد باذن الله. ولقد ظهر اخلاص السيد في كتابه فطبع مرتين في أشهر وأقبل عليه الشرق والغرب وترجم الى عدة لغات. أدام الله نفعه، ونشر شذاه وعرفه، وأطال عمر السيد ليتحف العالم الاسلامي بدرره الغالية وتحقيقاته السامية انه أكرم مسئول وعلى كل شيء قدير . مصطفى أحمد الرفاعي اللبان

(المؤلف) فات المقرظ الكلام في دعوة علماء شعوب الحضارة الى الاسلام وتحديهم بمعجزات القرآن

﴿ الوحي المحمدي ﴾

بقلم الاستاذ العلامة المتكلم الفقيه الكاتب النظار ابراهيم إطفيش الميزابي الجزائري

أجل كتاب في علوم القرآن ، وأفخم سفر في جلال القرآن ، ومعجزة من معجزات القرآن . كتاب (الوحي المحمدي) طالع أيها المعتز بالقرآن ، ويا طالب منهاج الهداية المحمدية هذا السفر الجليل تر أبدع مؤلف وأسنى ما جاء به القرآن من هداية البشر أجمعين ، إن (الوحي المحمدي) علم وفق الله اليه مؤلفه العلامة الجليل السيد رشيد رضا ، علم مستخرج من كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لقد كتب في علوم القرآن كتب كثيرة ولكنها لم تبلغ أن تأتي بما جاء في الوحي المحمدي حتى أصبح هذا الكتاب آية في الابداع ، وغاية في كشف معاني الكتاب المنزل على قلب محمد ﷺ . فيه الحجة على البشر أجمعين ، إن القرآن يدعوهم إلى الانضواء تحت لوائه ، ضامنا لهم كمال السعادة ، والشمول بالنعم الرحمانية وجلال العزة ، إن هم أخذوا بما جاء به من عند الله الرحمن الرحيم ، كشف هذا الكتاب مناهج السعادة للامم ، وسبل الهداية الشاملة لطبقات البشر وأجناسه ، حتي أصبح علما برأسه ، يجب أن يعتنى بتدريسه بين الفنون العالية لتخريج رجال عالميين في الهداية إلى شريعة الله التي أكملها وأتم بها نعمته على خلقه

لقد أخرج المصنف هذا الكتاب للامم ، وهو أحسن ما أخرج للناس من جهود العلماء ، فلا ريب أن العلماء في جميع الامم ستتلقاه بالقبول وسيترجم إلى جميع اللغات ، لانه هو الكتاب الذي تنشده اليوم العقول السليمة في كل الشعوب وسيهتدي بهداه من أراد الله له السعادة من بين أولئك العقلاء الذين يسعون وراء الحق لانه الحق ، ويدركون أن القرآن كتاب من عند الله هدى وبشرى لأولي الالباب ، لا سعادة للبشر إلا به ، ولا سلام إلا باتباع هديه

ولعلي أكون قد أديت واجبا إذا لاحظت للمؤلف الجليل أن يعيد النظر في مسألة الرقيق فان الاسلام جعلها حكما مستمراً لما فيه من حكمة اجتماعية ، ولم يوجد وضعاً لابطال الرقيق بالتدريج السريع ولكن الرقيق يبطل بطبيعته إذا دخل كافة الشعوب في الهداية الربانية فوحدوه وعبدوه واتبعوا النور الذي أنزل على محمد ﷺ وعلى آله

(أول كتاب من حضرة صاحب السعادة هارون سليم باشا أبو سحلي)

(مدير المنوفية في ذلك العهد)

سيدي الاستاذ الاجل السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فقد وصلني كتاب الوحي المحمدي الطبعة الثانية يوم سفري في رحلة بحرية إلى مرسيليا وكانت فرصة لمطالعته كله وقد خرجت منه بأنه خير ما أخرج للناس في موضوعه وقد أعطيت التعليمات لمجلس المديرية لطلب ٦٦ نسخة ليكون في كل مدرسة أولية وابتدائية نسخة ولما كان واجب كل مسلم نشر هذا الكتاب بأوسع ما يمكن أرجو أن ترسلوا باسمي ٣٠٠ ثلثمائة نسخة على محطة شبين الكوم لتوزيعها، وثمنها ٣٠ جنيه حسب البيان الوارد في كتابكم نرسلها عند إتمام التوزيع. وأختم كتابي هذا بتوجيه واجب الشكر لكم تلقاء هذا المجهود العظيم المضني، واني في انتظار الجزء الثاني ولكم وافر التحية من المخلص في ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٤ هارون سليم

(المؤلف) ان هارون باشا هذا من خير رجال حكومتنا عناية بالدين علما وعملا، بل لا نعرف له في رجال الادارة مثلا، وقد طلب منا بعد ما تقدم مائتي نسخة ثم ارسل ثمنها، ولما كان المعهود من امثاله رجال الادارة أن يوزعوا على وجهاء مديرياتهم كثيرا من الكتب غير النافعة محاباة لاصحابها فيقبلها الوجهاء ارضاء المدير على كراهة موضوعها وغلاء أثمانها، وكان يعلم أن مثلي ينكر ذلك عليهم ـ كتب إلي انه لم يتبع سننهم وإنما بين للوجهاء موضوع الكتاب في إقامة حجة الدين وبيان حقيقته وانه يعتقد أن قراءته واجبة عليهم وعلى أولادهم ولا سيما تلاميذ المدارس وخيرهم، وأني اذا شئت كتب الي اسماء من اشتروه لأسألهم، فكتبت اليه لا إنكار على من يدعو الى الله فيما يتخذ من حض الناس على معرفة عقيدتهم واصول دينهم، فانه يصدق على هؤلاء ما صح في حديث من «يقادون الى الجنة بالسلاسل» ثم اتفق ان رأيت نقيب الاشراف للمنوفية بمصر فأخبرني بمسلك المدير في الترغيب في الكتاب وكيف تلقوه بالقبول شاكرين

(تقريظ جريدة حضارة السودان)

أهدتنا إدارة مجلة المنار الغراء كتاب (الوحي المحمدي) الذي ألفه العلامة المحقق مصباح الاسلام السيد محمد رشيد رضا منشيء مجلة المنار الغراء

وقد جاءت مباحث هذا الكتاب كسائر مباحث مؤلفه الثمينة سواء في تفسيره القرآن الكريم أو في مباحث مجلة « المنار » نوراً وهدى للناس في تبيان حقائق الدين الاسلامى فهو بلا ريب فتح جديد في الدعوة الى هذا الدين الحنيف القويم، وقد تمكن مؤلفه وهو ذلك العبقرى الديني الذي سيط دين الاسلام بلحمه ودمه من أن يوفق بين الدين والعلم بطريقة يعجز غيره عن الاتيان بها، فالرجل عالم قوي الايمان وناهيك ما تنتجه قوة الايمان اذا توافر معها العلم، والكتاب نفدت نسخ طبعته الاولى قبل أن يحول الحول على طبعها لتهافت العوالم الاسلامية على النهل والعلل من مورده العذب، وقد صدر طبعته الثانية بمقدمة استغرقت عشرة مباحث هي وحدها تعد كتابا، ثم اتى بعدها بفاتحة لها قد اشتملت على اربع مسائل، ثم انتقل الي الفصل الاول وهو يشمل ست مسائل، فالفصل الثاني وفيه عشرة مسائل فالفصل الثالث وقد اشتمل على ١٧ مبحثا فالرابع وقد اشتمل على ستة مباحث فالفصل الخامس وقد اشتمل على ٧٥ مبحثا . وما من مبحث من هذه المباحث يمر عليه المطلع الا ويشعر أنه في أشد الحاجة الى تفهمه من الوجهتين الدينية والمدنية

وقد ذيلت طبعته الثانية بنحو ٢٣ تقريظا في مقدمتها تقريظا العاهلين العربيين ملكي الاسلام، الامام يحيى حميد الدين إمام اليمن وصاحب العظمة السلطان عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد، في كتابين موجهين من لدنهما الى المؤلف، وتقريظ صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي المصلح الاسلامي الكبير المعروف لدي سكان هذه البلاد، وتقريظ أمير البيان المشهور الامير شكيب أرسلان، وغيرهم من الائمة الاعلام ورجال العلم والدين

وإنا لنرى أن هذا السفر واجب على كل مسلم وجوبا عينيا ان يطلع عليه وان يتفهمه ليتذوق منه حلاوة الاسلام ويرى بمرآته بهجة القرآن ونوره ساطعا يهدي الى سواء السبيل عن حضارة السودان بتاريخ ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٣٤

(كتاب للفاضل الغيور الشيخ محمد عثمان في إلدورت غنيا)

﴿ بسم الله ﴾

حجة الله على العالمين فضيلة الاستاذ الأفخم ، والمصلح الأعظم ، السيد محمد رشيد رضا المجدد لدين الله والناشر لوحيه ، أمد الله له في الحياة منصوراً ، ولا زال لاعلاء كلمة الله ظهيراً . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فأرفع لفضيلتكم بأنه وافاني كتابكم الوحي المحمدي فخررت ساجداً لله شكراً عندما ظهر لي انتصار نوره الساطع ، المنذر من لا يؤمن به بعذاب واقع ، ما له من دافع ، وكم كان فرحي عظيما ، وسروري جسيما ، لا أستطيع أن أشرحهما ، فتلوته مراراً وكلما كررته ازداد شغفي حبا لتلاوة كتاب الله وتدبر معانيه ، وزادني همة ونشاطا في تبليغه إلى أبناء وطني المهاجرين ، وحضهم على نشر الدين في هذه المستعمرة وأحيائها التي تقلص منها ظل الاسلام السائد سابقا ، وتهدمت فيها لغة القرآن ، وتقوض منها مجد الاسلام العربي الزاهر في العصر الغابر ، بسبب تفريط مسلميه في نصرته وركونهم إلى التوسل بأصحاب القبور والتقرب اليهم بالقرابين والنذور ، والآن بفضل الله وإرشاد مناركم الأغر ، شرعت تتلاشى البدع والخرافات ، وتضمحل العقائد الفاسدة في أبناء الناطقين بالضاد

نعم يا صاحب الفضيلة لقد أرهقتمونا بنعمكم الروحية ، وتعاليمكم الدينية ، التي أخرستنا حيرة بأي لسان نقدم شكرا ، وجوارحنا وإحساساتنا كلها ألسنة شكر ، ياليت شعري كيف أشكر ، وياويح قلبي كيف أثني وأحمد بعد أن أثنت عليكم نجوم الهدى ، وكواكب الارشاد ، وشموس البلاغة ، وأعلام الاسلام ، وأرباب الاقلام ، وأمراء البيان ، ولا يسعني والضعفاء إلا الدعاء لكم بما يحبه الله ويرضاه ، وأن أهنئكم بأصدق التهاني على نجاحكم الباهر في هذه المساعي الجليلة للاسلام وأهله التي سيشتاقها كل سيد ، ويقصر عن إدراكها المتناول ، لاسيما إبرازكم لهذا الوحي المحمدي

القدس أمام الاديان والملل نقيا من الخرافات والبدع التي ألصقها به علماء السوء المبتدعون، وكن عليه حجابا من اهتداء العقلاء ومفكري الامم الراقية بهديه المبين، ووسائل لمطاعن الملحدين، ومثالب المكذبين، ولما مزقت هذه الحجب الجسام ببيانك، ودمغت حججهم ببلاغته السماوية، انقلبوا على أعقابهم خاسئين، بتحدي آياته الكونية وعجائبه العصرية، ومعجزاته السرمدية: فأخرست أفواههم عن الجدال، وبهرت أعينهم عن الاحتقار، ودككت عقائدهم عن النضال، حتى آمنت القلوب، ولكن الالسنة والافواه بآيات الله يجحدون الخ

﴿ كلمة الاستاذ العلامة النقادة الشيخ محمد البشير النيفر التونسي ﴾

من علماء جامع الزيتونة الاعلام من كتاب طويل له في رمضان سنة ١٣٥٣

وكنت في أثناء هذه المدة أطالع مناركم المنير، وما يتخلف عني من أعداده أشتريه من إحدى المكتبات، وكان فيما قرأت من مباحث التفسير ما كتبتم عن الوحي المحمدي، فحمدت الله أن كان في علماء المسلمين في هذا العصر مثلكم، وكنت أقول: لو قرأ هذا منكرو الرسالة المحمدية بانصاف وفهموه حق فهمه لآمنوا بسيدنا محمد ﷺ كلهم أجمعون

وقد كنت قرأته في المنار متفرقا، ثم أعدت قراءته متصلا في الجزء الحادي عشر من التفسير، فجزاكم الله أفضل ما جزى به خادما لدينه، وبارك في عمركم تخرجون للناس أمثاله، فتكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى

وما أنكرت فيه إلا كلمات في آيات الانبياء عليهم الصلاة والسلام أذكر أنني رأيت مثلها في إحدى مقالاتكم في (شبهات النصارى وحجج الاسلام) اه

قد اختصرت في هذه الطبعة الثالثة أكثر التقاريظ التي نشرت فيما قبلها وحذفت بعضها لطولها وما فيها من التكرار ونقل بعض مسائل الكتاب للتنويه بها أو مشاركة أصحابها لنا فيها، وبهذا وجدنا مكانا لغيرها، ولم نتصرف بشيء من ذلك بزيادة ما، ولا باختصار يغير المعنى

﴿ حكمة نشر هذه التقاريظ ﴾

(ختمت بها تقاريظ الطبعة الثالثة)

الغرض من نشر هذه التقاريظ إعلام قراء الكتاب من غير المسلمين (ومن الجامدين على تقليد المتقدمين منهم الذين إذا رأوا كتابا في الدين لمؤلف عصري أعرضوا عنه ولم يقرءوه لظنهم أن الاحياء لا يوثق بعلمهم) أن ما فيه من أصول الاسلام وحكمته متفق عليه ليس رأيا مني فيه، وإن كان فيه مالا يوجد في غيره

ذلك بأن الاحرار المستقلي الفكر منهم يقيسون دين الاسلام على غيره من الاديان فيظنون أنه أكثر عقائده وأصوله مسلمات غير متفقة مع العقل والعلم الصحيح والمصالح العامة ويظنون أن مايسمعون من حكماء المسلمين موافقا لذلك هو رأي لهم، كما قال بعضهم في رسالة التوحيد للاستاذ الامام إنها فلسفة الشيخ محمد عبده سماها اسلاما، وقال لي مستر متشل انس الانكليزي الذي كان وكيلا للمالية بمصر مرارا عند ماكنت أشرح له بعض أصول الاسلام وحكمته: هذا فلسفة لا دين، حتى قال لي مرة اذا كان علماء الازهر يوافقونك ويوافقون الشيخ محمد عبده على ماتقولون فأنا أعلن أني مسلم

وهذا كتاب فيه من حكم الاسلام في أهم أصوله وفروعه أكثر مما في رسالة التوحيد ومما كان يسمعه مني متشل انس وأمثاله، وفيه من شواهد القرآن مالا يمكن أن يقال معها إنه من رأيي، وقد اتفق على الشهادة له العلماء والادباء والكتاب في الاقطار ومن جميع الطبقات وفي مقدمتهم شيخ الازهر بما هو صريح في تفضيله على جميع الكتب في موضوعه (إثبات الوحي والنبوة وإعجاز القرآن وأصول الاسلام الدينية والمدنية) وسيرون من فائدته في دعوة غير المسلمين الى الاسلام وفي تثبيت المسلمين في دينهم ما هو فوق ذلك إن شاء الله تعالى، ولله الفضل والمنة (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وصلوات الله وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين، وآله وصحبه الهادين المهديين، وجميع المهتدين بهديه إلى يوم الدين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

كتاب حياة محمد (ص)

﴿ الحكم بين المختلفين فيه ﴾

(٢)

(المنكرات التسعة التي خصها الاستاذ الشيخ محمد زهران بالذكر)

أبدأ بكلام وجيز على هذه المنكرات فأبين أنه ليس فيها شيء مما عبر عنه الاستاذ الشيخ محمد زهران بصوادم الحجج القاطعة ، التي لجأ إليَّ لاستئصال شأفتها ببواهر البراهين الساطعة ، ثم أعود إلى مسألة أحاديث المعجزات وهي أهم وأكبر فأقول

(١) قصة أبرهة والكعبة في الصفحة ٦٤

لم أر في هذه الصفحة شيئاً يصح أن يقال انه من الالحاد ، ولا من صوادم البراهين القاطعة ، ولا مما هو من مخالفة أصول الاسلام ولا فروعه . وخلاصة مافيها ان أبرهة أجمع أمره على هدم البيت الحرام وان عبد المطلب ومن معه دعوا واستنصروا آلهتهم وانصرفوا وخلت مكة منهم ، وكان وباء الجدري قد تفشى في جيش أبرهة وفتك بهم فتكا ذريعا لم يعهد من قبل قط وأصابت العدوى أبرهة ملكهم فأمر قومه بالعودة إلى اليمن وبلغ هو صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض حتى لحق بمن مات من جيشه . قال : « وبذلك أرخ أهل مكة بعام الفيل هذا وقدسه القرآن بذكره » وذكر السورة بنصها ولم يقل في تفسيرها شيئاً ، فمهما يقل فيه فهو لا يرد عليه

(٢) أسطورة شق الصدر : هكذا عنوانه ص ٧٢

أخطأ الدكتور محمد حسين هيكل أن نقل خبر هذه المسألة عن مؤلف أصل كتابه بالفرنسية وسيرة ابن هشام واعتمد على نقدهما له ، واستشكال وقوع ذلك في بني سعد إذ كان ﷺ في السنة الثالثة وكان المخبر لحليمة الخبر أخوه ابنها الرضيع للنبي ﷺ وهو في سنه

وقد أخرج هذا الحديث عنها ابن اسحاق وغيره من طريق عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب وهو لم يسمع من حليمة وإنما قال الذي أخرجوه عنه انه قال حدثت عن حليمة ولم يذكر من حدثه . وقد أخرجه ابن اسحاق من طريق نوح بن أبي مريم وهو ممن ثبت عنهم الكذب ووضع الحديث . وعبدالله بن جعفر ولد في الحبشة في عهد الهجرة اليها

وأخرج البيهقي وابن عساكر حديثا آخر عن حليمة فيه هذه المسألة مطولة مخالفة للرواية الاولى في سياقها وفي موضع وقوعها وهي التي يذكرونها في بعض قصص المولد . وهو من طريق محمد بن زكريا الغلابي وقد قال الدارقطني مخرجه عنه : انه كان يضع الحديث وصرح غيره بكذبه أيضا . فمن اطلع على هذه الروايات في تعارضها فله العذر في الطعن عليها مع استشكال متنها وكونه غير معقول

ولكن مسلماً أخرج عن أنس مايقوي معنى رواية عبدالله بن جعفر من طريق شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عنه وشيبان كان يهم اي يخطىء وحماد هذا من أثبت من روى عن ثابت ولكن ثابتا تركه البخاري وقد تغير بعد كبر سنه وساء حفظه، ويقال إن مسلما تحرى من رواية حماد عن ثابت ما سمعه منه قبل تغيره . على أن أنساً نفسه كان بعد كبر سنه ينسى بعض ما حدث به وهو لم يرفع حديثه هذا الى النبي ﷺ

وأخرج أيضا عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر قال سمعت أنس بن مالك يحدثنا عن ليلة أسري بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه — وهو نائم بالمسجد الحرام — وساق الحديث بقصته نحو حديث ثابت البناني وقدم فيه وأخر وزاد ونقص ورواية شريك أخرجها البخاري في كتاب التوحيد برمتها وفيها ان قصة الاسراء والمعراج في جملتها ومنها شق الصدر كانت رؤيا منامية . وقد غلطوا شريكا فيها من جهات خالف فيها من هو أوثق منه

وأقوى الروايات في شق الصدر حديث الاسراء والمعراج الطويل الذي أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة — وليس لمالك غيره — وفيه ان النبي ﷺ حدث عن ليلة أسري به قال «بينما أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر - مضطجعا إذ أتاني آت فقد - قال وسمعته يقول فشق - ما بين هذه وهذه أي وأشار الى ثغرة نحره وآخر بطنه - فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا وحكمة فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد » الخ وفي رواية شريك بن أبي نمر انه جاءه ثلاثة نفر وهو نائم وهم الذين تعاونوا على عملية شق الصدر وأشرنا اليها آنفا

فأنى للدكتور هيكل أن يحيط بهذه الروايات وأسانيدها واختلاف متونها الدال على روايتها بالمعنى في موضوع من الخوارق - ويحكم فيها بين ماحكاه عن المستشرقين وغيرهم حكما معقولا؟ ولقد كنت سئلت عنها فلخصت الروايات بأوسع مما هنا واستظهرت من مجموعها أنه تمثيل لتطهير قلب النبي ﷺ وحفظ نفسه من كل ما لا يليق به من وسوسة الشيطان والشهوات والاهواء كما تمثل له كثير من المعاني والحقائق في تلك الليلة وفي رؤاه الصادقة بصور مناسبة لمعانيها، ولعالم المثال في الكشف الروحاني شأن عظيم عند أهله . ومن المعلوم بالضرورة أن الايمان والحكمة اللذين حشيا في قلبه (ص) ليسا من المواد الجسمانية التي توضع في الطست ثم تحشى في القلب . ومن شاء التفصيل في المسألة فليراجع الفتوى ١٢ من المجلد ١٩ ص ٥٢٩ - ٥٣٧ ودونها ف ٨ ج ٤ م ٣٣

وجملة القول أن الدكتور محمد حسين هيكل لم يطلع على حديث يعتقد صحته ويعبر عنه بأنه أسطورة، فان كان مقصراً في هذا الاطلاع فليس بعليم بأكثر مما يلام أكثر علماء هذا العصر ومما تلام عليه مجلة الازهر (نور الاسلام) بما تذكره كثيراً من الاحاديث الضعيفة ، وكذا الموضوعة أحيانا . فلا يصح ان يجعل طعنا في دينه

(٣) مسألة بدء الوحي ص ٩٥

لا أدري ما الذي أنكره الاستاذ زهران من كلام الدكتور هيكل في هذه المسألة وأما أنا فانني أنكرت عليه متابعته فيها لأميل درمنغام مؤلف الاصل عما يستدل به الماديون على دعوى الوحي النفسي الذي بسطته ورددت عليه في كتاب الوحي المحمدي بالتفصيل كما أشرت إليه في مقدمة المقالة الاولى وسأعود إليه ، فانني رأيت المنكرين على كتاب هيكل والمعجبين به سواء في عدم فهم هذه المسئلة المهمة وهي اساس الدين ، ولهذا أقول إنه يجوز أن يكون مثلهم لم يفطن لكون تلك المسائل العشر شبهات يستدل بها الماديون على أن ذلك الوحي ذكاء نفسي وعمل كسبي استعد له محمد ﷺ بما زعموه من الروايات الباطلة والآراء المخترعة التي فندناها في كتاب الوحي المحمدي تفنيداً

وأنكرت عليهما مع العلم بعذرهما الاعتماد على رواية سيرة ابن هشام في مسألة بدء الوحي وما صورا به جزئياتها من التخيل الشعري الذي تعارض بعضه الروايات ، ولا شك في حسن نية هيكل فيها ومراعاته اللادب الواجب ، فان كان الاستاذ زهران ينكر شيئا كتبه بعينه فعليه أن يكتبه لنا ، لا أن يكلفنا قراءة الكتاب كله والرد على كل ما أنكره هو منه لظنه أن رأينا فيه كرأيه ولكننا أقدر على الرد عليه بما «يروق الكافة ، ويخلب ألباب الخاصة والعامة» كما قال، ورب شيء أنكره انا من هذه السير لا ينكره الاستاذ زهران، وقد ينكر إنكاري ان لم يقف على دليلي مفصلا

إنني يا أخي أنكر كل ما رواه ابن اسحق وما تبعه به ابن هشام مخالفا لرواية الصحيحين في بدء الوحي حتى رواية عبيد بن عمير التي قال شيخنا الاكبر في الحديث (الحافظ ابن حجر) انه يمكن الجمع بينها و بين حديث البخاري في أول صحيحه ، وما أظن أنك أنت ولا أمثالك من المبالغين في الانكار على كتاب (حياة محمد) تنكرون مثلي رواية رؤية النبي ﷺ ملك الوحي في المنام وتلقيه منه أول سورة العلق مكتوبة في صحيفة أقرأه إياها، وهي مرسلة لا ندري لعل الساقط من سندها

أحد زنادقة اليهود ، وأنكر كذلك جميع الروايات التي في كتب السير ودلائل النبوة في انه ﷺ كان يرى ويسمع من الإرهاصات ما اعتقد به انه سيكون نبي هذه الامة فتماق به رجاؤه ، وأنا اعهد ان أمثالكم يطعن على من ينكرها أشد الطعن إلا من طريق علمي كجرح الرواة أو معارضة المتون بمخالفة القرآن مطلقاً والضعف منها للصحاح كما فعلت في كتاب الوحي المحمدي مما تلقاه كل قارئيه بالقبول

(٤) ما نسبه الى السيدة خديجة ص ١٠٠

يعني الاستاذ زهران بهذه المسألة قول الدكتور هيكل إن خديجة قالت للنبي ﷺ عندما فتر الوحي « ما أرى ربك الا قد قلاك » أي ابغضك . وقد تابع بهذا درمنغام وهما لم يخترعاه اختراعا وكان من شأن المنكر عليها ان يعلم ان ابن جرير رواه مرسلا من طريقين قيل ان رواتهما ثقات ، ولكنهما معارضان بما رواه الشيخان عن جندب ، قال اشتكى النبي فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت له يا محمد ما أرى شيطانك الا قد تركك . فأنزل الله (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) اهـ

وأقول إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب عدوته ﷺ وما قيل في الجمع بينهما من أن خديجة قالت له ذلك توجعا وأم جميل قالته شماتة فهو مردود وكان يجب على هيكل ألا يأخذ كلام درمنغام قضية مسلمة ولو بحث وراجع لعرف الصحيح وعلم ان هذه الفترة القصيرة في الوحي ليست هي التي استوحش لها النبي ﷺ وكبر عليه الأمر، بل تلك الفترة هي التي كانت بين بدء الوحي في حراء وبين الامر بالتبليغ وهي ثلاث سنين كما بينته في كتاب الوحي المحمدي وكان ينبغي للدكتور هيكل ان يتأمله ويعتمد عليه فهو لباب التحقيق

بل هذه الفترة مشهورة في كتب الحديث وكتب السير لا ينبغي لمن يجهلها أن يكتب مصنفا في حياته ﷺ يدعي أنه يتحرى فيه الحقائق فماذا فعل بالكتب التي طالعها لأجله

(٥) ما قاله في الاسراء والمعراج ص ١٥٣

أجمل الاستاذ زهران إنكاره على ما كتبه الدكتور في هذه المسألة وكفاني أن أبين ما أنكره منها وأثبت ما أعرفه ، وهو إرهاق يتقاضاني أن أصنف كتابا أو رسالة طويلة فيها ، وقد سبق لي أن ارتجلت محاضرة فيها استغرقت ساعتين ونيفا في جمعية مكارم الاخلاق اذ كانت في قاعة دار السادات

الدكتور يثبت الاسراء والمعراج وينقل فيهما ماهو مشهور بين الناس من الاختلاف بين العلماء هل كانا في النوم أو اليقظة ، وبالروح والجسد أم بالروح فقط ، وينفرد بتعليل القصة بأنها من مشاهد وحدة الوجود الخيالية ، ويصف هذه الوحدة بغير ما يصفها به أهلها من الصوفية الغلاة الذين يعرفون بصوفية الحقائق لانه موضوع ليس من علمه ، كما ان التمييز بين صحاح الروايات وضعافها ومنكراتها واختلاف متونها وتعارضها في المعراج ليس من شأنه بالأولى وقد أشرت إلى بعضها آنفا في الكلام على حديث شق الصدر والجمع بينها متعذر حتى قيل بتعددها وهو لا يعقل

ومما أخطأ فيه كما نرى ما نقله عن موسيو اميل درمنغام في وصف المعراج وقد خلط فيه بين الروايات المضطربة فلم يميز بين صحيحها ومنكرها . ووصفها وصفا شعريا خلب الدكتور ببلاغته الفرنسية فعرج هو من أفقه إلى أفق أبعد منه في التخيل الشعري وهو أفق وحدة الوجود التي يعجز صوفية الهند ومقلدتهم من الافرنج أن يبلغوا فيها شأو محيي الدين بن عربي في نثره وعمر بن الفارض في شعره وقد قال الدكتور فيها بما لم يعقله من الجمع بين الازل والابد

مسألة وحدة الوجود عقيدة هندية قديمة لاتتفق هي وعقيدة الاسلام في كون الخالق تعالى فوق جميع خلقه بائنا منهم، وخلاصتها أن وجوده تعالى وتقدس عين وجودها وهي مظاهر له كمظاهر الماء من جامد ومائع وبخار وغاز كما قال عبد الكريم الجيلي :

وما الخلق في التمثيل إلا كثلجة وأنت لها الماء الذي هو نابع

وأقرب مما ذهب اليه الدكتور في تصوير مسألة الاسراء والمعراج أو تقريبها الى الاذهان بما يوافق العلوم العصرية هو ما ثبت عند القائلين باستحضار الأرواح من تمثل أرواح الموتى المجردة بصور جسدية من الاثير تتكاثف أحيانا بما تستمده

من مادة الكون أو من جسم الوسيط حتى يمكن تصويرها بالآلة العاكسة للنور ، وقد قرأنا في كتاب (المذهب الروحاني) وغيره من الكتب والصحف شواهد على ذلك ، وأصل هذا معروف عند أهل الدين بما ثبت من تمثل أرواح الملائكة والشياطين بصور البشر وغيرهم وأمثلته كثيرة في كتب أهل الكتاب المقدسة وفي القرآن العظيم والاحاديث الصحيحة ، ويحكون في كتب الصوفية أن بعض الروحانيين منهم يتجردون من أجسادهم الكثيفة ويتمكنون من تحويلها إلى أجساد أثيرية لطيفة أحيانا تقطع المسافات البعيدة في طرفة عين وتنفذ من الاجسام الكثيفة ، فالمسألة معروفة مسلمة عند غير الماديين من المليين وغيرهم من الروحانيين

فعلى هذا يمكن أن يقال إن روح النبي ﷺ أعطيت من القوة في تلك الليلة ما كانت به كقوة روح جبريل الذي كان يتمثل له ﷺ بصورة دحية الكلبي وغيره ، وتمثل للسيدة مريم عليها السلام بشرا سويا . وفي هذه الحالة تتصرف الروح بجسدها الاثيري اللطيف فتحمله من مكة الى بيت المقدس ، ومنه إلى حيث شاء الله من السموات العلى إلى سدرة المنتهى ، وقد بينت هذا من قبل في المنار وفي محاضرتي الطويلة التي اشرت اليها آنفا وقلت إنه مذهب الصوفية الموافق لقول جمهور المحدثين إن الاسراء والمعراج كانا بالروح والجسد

ولعل هذا ما أشار اليه الاستاذ الاكبر المراغي في التعريف بالكتاب بقوله (وعلم استحضار الارواح فسر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وامكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة في طي الأبعاد وقد انتفع الدكتور بشيء من هذا في تقريب قصة الاسراء فأتى بشيء طريف) اه

اشتبه بعض قراء هذه العبارة المجملة الوجيزة في فهمها فظنوا أن الاستاذ وافق المؤلف على القول بأن الاسراء كان بالروح منفصلة من الجسم وعلى مسألة وحدة الوجود ولكن قوله (فأتى بشيء طريف) لا يدل على فهمهم هذا ولذلك لم يقل « بشيء طريف فيه » بل هو يشير الى ما قلته .

وجملة القول ان الدكتور هيكلا نقل بعض أقوال علماء المسلمين في مسألة الاسراء والمعراج وقول درمنغام من غير تمحيص ولا تحقيق كما فعل بعض أهل

السير وغيرهم من المسلمين ، وزاد عليها مسألة وحدة الوجود بعبارة مبهمة تدل على أنه لا يعتقد انها مخالفة لنصوص الكتاب والسنة لخفائها المعروف فلا يباح لمنكريها عليه الطعن في دينه ، ولا يصح للمعجبين به أن يقولوا إنه محقق لروايات السيرة

(٦) ما عقب به معجزة الغار ص ١٧٧

يعني الاستاذ الناقد المنكر بهذه المعجزة ما نقله الدكتور هيكل عن اميل درمنغام عن بعض كتب السير كالسيرة الحلبية من أن النبي ﷺ حين دخل مع صاحبه الغار وجاء المشركون يبحثون عنه وجدوا شجرة تدلت فروعها إلى فوهته وبيتا من العنكبوت يستر من فيه وحمامتين باضتا عند بابه . وذكر أن وجه المعجزة في هذه الاشياء انها لم تكن موجودة وإنما وجدت وقتئذ وأن درمنغام قال: «هذه الامور الثلاثة هي وحدها المعجزة التي يقص التاريخ الاسلامي الجد (كذا) وهي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في أرض الله نظائر »

(أقول) حديث هذه الثلاث أخرجه ابن سعد وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم عن أبي مصعب المكي قال أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة ابن شعبة فسمعتهم يتحدثون ان النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله بشجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي ﷺ فسترته ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا في فم الغار ، واقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بعصيهم وهراويهم وسيوفهم الخ

قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ـ ذكر حديث أبي مصعب هذا: قال العقيلي مجهول ذكره في ترجمة عون بن عمرو . وذكر الحافظ في ترجمة عون هذا انه منكر الحديث مجهول وذكر حديثه هذا عن أبي مصعب وقال إنه لا يعرف

فهذه المعجزات لم يصح بها الخبر بل انفرد بروايته مجهول منكر الحديث عن رجل لم يعرف قط ، فالظاهر انه هو الذي وضعه عليه ، ولو كان له أصل لأمكن أن يقال من ذا الذي حقق ان هذه الثلاث وجدت عند دخوله ﷺ في الغار وأنها لم تكن من قبل ، وكيف كان عبد الله بن ابي بكر وراعي غنمه مولاه عامر بن فهيرة يدخلان الغار في كل ليلة ؟ ولم لم يحدثا بها أحدا ولا حدث بها من أكرمه الله بها

وهو النبي ﷺ وكذا صاحبه « رض » حتى حدث بها أبو مصعب المجهول الذي أعيا رجال الجرح والتعديل أن يعرفوه أو يعرفوا عنه شيئا ، ولم يحدث بها عنه إلا عون ابن عمرو المنكر الحديث؟ وأي حاجة إليها في حفظ من كفل الله حفظه وعبر عن ذلك بأنه تعالى معه ومع صاحبه ؟ ههنا يظهر الفرق بين شعور الاستاذ زهران والدكتور هيكل وامثالهما : الفريق الأول يرتاح إلى روايات خوارق العادات مطلقا ويرون أنها أعظم الحجج على إثبات النبوة فلا يعنون بتحقيق رواياتها ، والآخرون ينفرون منها لكثرتها عن جميع الملل ولا يرون فيها حجة قاطعة على النبوة كالآيات العلمية والعقلية وأعظمها القرآن ، ولذلك يميلون إلى تكذيب روايات تلك الخوارق وسنبين تحقيق الحق في ذلك (للنقد بقية)

وفيات الاعيان

(شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي)

فاجأنا في ضحوة يوم شديد الحر من هذا الشهر المحرم (سنة ١٣٥٤ ـ مارس سنة ١٩٣٥) نبأ وفاة شاعر العرب المطبوع وعلم الفصاحة المرفوع الشيخ عبد المحسن الكاظمي بعد مقاساة أمراض طال أمدها عدة سنين صبر عليها صبر الكرام ، ويحزنني أنه لم يتح لي تشييع جنازته ، وقد قمت بكل ما استطعت من حقوق مودته (المادية والادبية) في أكثر من ثلث قرن حتى انني عرضت نفسي لمرض طويل كاد يكون مزمنا بزيارتي له ليلا وأنا مصاب بنزلة صدرية شديدة ، وكان يزورني في وسط العهد بيننا في يوم الجمعة من كل أسبوع وقد يزيد عليها لأسباب عارضة وانني أنشر هنا ما كتبته في شأنه بعد تعارفنا بمصر بأيام قليلة وهو ما تراه في ص ٣٢٨ من مجلد المنار الثالث بتاريخ ربيع الاول سنة ١٣١٨ يوليو سنة ١٩٠٠ بعنوان (القديم في الحديث ، والاول في الآخر) وهذا نصه :

ذهبت بلاغة الشعر العربي بذهاب دول العرب حتى صار القرن يمضي كله ولا يظهر فيه شاعر عربي الاسلوب بليغ الكلام وحتى صرنا نسد وجود مثله

سعادة محمود سامي باشا (البارودي) من قبيل ما يسميه الحكماء بالرجعة كأن السليقة العربية رجعت اليه بالوراثة لاحد أجداده الاولين من غير عناء في كسب ملكتها ، والظاهر أن بلاد العراق لا تزال أقرب الى السليقة العربية من أهل هذه البلاد وان النابغين فيها أكثر منهم في غيرها . ولقد وافى هذه البلاد من أشهر رجل فاضل جدير بلقب (الاديب) وقل الجدير به في هذا العصر ألا وهو الشيخ أبو المكارم عبد المحسن الكاظمي (نسبة الى الكاظمية بلدة في ضواحي بغداد) لقيناه فلقينا الأدب الصحيح والاخلاق الحسنة من الشاعر المفلق، العذب المنطق، الذي ناهز المقدمين ، وخاطر المفرمين ، ومن السجايا الفاضلة الظاهرة فيه الاباء وعزة النفس حتى انك لا تشعر في أول عهدك به بما عنده من لطف المعاشرة ورقة الطبع ولين العريكة . قال صاحب السعادة اسماعيل باشا صبري وكيل الحقانية وأحد أركان الادب في مصر : انني عند ما لقيته أول مرة ظننت أنه لا تطيب معاشرته، فلما خبرته علمت أنه لا تطيب مفارقته ، اه وما أجدره بقول شاعرنا احمد بن مفلح المشهور بابن منير الطرابلسي

إباء فارس في لين الشام مع الظر ف العراقي واللفظ الحجازي

أما شعره فعلى الطريقة العراقية العذبة القديمة — طريقة الشريف (الرضي) ومهيار (الديلمي) وأما انشاده فهو يناسب شعره في التأثير الذي هو المقصود الاهم من بلاغة القول اه

ونشرت بعد هذا قسما من قصيدته العينية وهي أول ما سمعناه من انشاد شعره ونشرت القسم الآخر منها في جزء آخر ، ولعمري إن إنشاده للشعر لأبلغ من نظمه له في إثارة الشعور، بما شاء من شجو وشجن، وحنين إلى سكن ووطن، وشوق إلى لقاء حبيب ، وحزن على فراق عشيق أو صديق ، وإن أنس فلن أنسى إنشاده إيانا قول الشاعر :

وارحمتا للغريب في البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فلئن قال ابن المنير في يائيته :

وما المدامة بالالباب ألعب من فصاحة البدو في ألفاظ تركي

فان لنا أن نقول : ما لعب المدامة بالعقول ، ولا عزف الفارابي بالقانون، بما أضحك الثغور وأثار الشجون ، وأجرى الشئون وران على العيون ، ولا نعي جميل لبثينة أمام دارها ، ولا كلمتها الناعي سافرة نابذة لو قارها ، باعظم سلطانا على القلوب من إنشاد الكاظمي لهذين البيتين بصوته الرخيم ولهجته العراقية، وتقطيعه للبيت بغير أوزانه الشعرية ، كوقوفه على كلمة الغريب ، والنازح ، والعيش ، فانى لأتذكر الآن خفقات قلبي لسماعها ، فاجد الذكرى تعيدها سيرتها الاولى، ولقد كانت كلمة بثينة اشجى كلمة سمعتها من كلام البشر ، ولا بأس بذكرها هنا

لما شعر جميل العذري بدنو أجله في مصر عهد الى رجل أن ينعاه الى بثينة في حي أهلها وأعطاه حلته آية لها ، فوقف فأنشد هنالك

صرح النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول

فخرجت حاسرة وقالت : ياهذا إن كنت كاذبا فقد فضحتني، وإن كنت صادقا فقد قتلتني !! فأخرج لها حلته فأنشدت :

وإن سلوي عن جميل لساعة من الدهر لاحانت ولا حين حينها

سواء علينا ياجميل بن معمر اذا مت بأساء الحياة ولينها

هكذا كان الكاظمي يخلب ألبابنا بانشاده العراقي الشيعي وكل أدباء العراق يخلبون الالباب بضروب الانشاد ، وإن كان لأشجى من سمعنا منهم ، ولقد أحببناه لانشاده ولشعره معا ، ثم اتصل بشيخنا الاستاذ الامام وخصه بمدائحه المؤثرة وكان بالمدائح ضنينا، فعشقناه لتنويهه بالاصلاح وإمامه ، وقد ذكرته في تاريخ الاستاذ الامام منوها بما كان من عطف الامام عليه ومواساته له ، ومما لم أذكره أنه كان له منه راتب شهري قدره عشرة جنيهات ما عدا الهدايا ، وكان انكر ما عددته عليه من كنوده عدم رثائه له ، وكان يعتذر لنا بوجده وكمده ، ثم علمنا أنه انما كان يخشى غضب الخديوي عليه اذا هو رثاه، إذا سعى له صاحب المؤيد عند سموه براتب من الاوقاف .

انني كنت صدقت الكاظمي زعمه أن شدة الحزن والاسى على الامام أخرست لسانه، وحيرت وجدانه، وأطاشت جنانه، فأمسى عاجزا عن رثائه لا يستطيع منه شيئا. وظللت سنين مصدقا له، وأرى من حق الوفاء لاستاذنا علي بره والوفاء له، على أنه حدثني فيما كان يقصه علي من سيرته الشخصية ان الخطوب ليس لها على نفسه سلطان، وان الحزن ليس له في شجون قلبه ولا في شئون عينيه مكان، وانه كاد هجومها عليه يغلبه على جلده مرة أو مرتين ففطن لذلك فكان لارادته الغلب والرجحان، فكان عصي الدمع شيمته الصبر، ليس للحزن عليه نهي ولا أمر

ولقد كان يقول لي انه لم يجد بعد الاستاذ الامام من أخلص له الوفاء مثلي، ويظهر لي انه على رأيي ومذهبي فيما أدعو اليه وأحيا لأجله من الاصلاح الاسلامي والوحدة العربية، وكان ينشدني بعض قصائده في مدح من يرجو برهم ويقف لي عند ما تتضمنه من الاشارة إلى ما أحب من المصلحة العامة، في تضاعيف ما أكره من المدائح الشخصية، بله ما نظمه في المسألة العربية ورجالها، ومنه ما يخصني بزعمه دون غيري، ولم أكن لأحفل بالتصريح بشيء يخصني فكيف أحفل بالتلويح والتعريض الذي لا يكاد يفهم المراد منه أحد؟ ولكن خطر ببالي كثيرا ما لم أذكره له ولا أشرت إليه من تقصيره في رثاء شقيقي اللوذعي الاحوذي السيد حسين الشاعر الاديب الخطيب وقد كان عشقه الكاظمي غراما، ووده له لزاما، وكان وكيلي في إدارة المنار مدة غيبتي في الاستانة عاما كاملا لم يكد يفارقه فيه يوما، ثم عاد الى سورية فقتل بيد مجرم أثيم، فكان من إكبار خطبه عندي ان قلت في تأبينه انه ليعز علي أن أرثيه وكنت أرجو أن يرثيني، وأكبر المصاب فيه أهل الفضل والادب في جميع البلاد العربية، وعقدوا له في بيروت حفلة رثاء وتأبين تبارى فيها أدباء الطوائف الدينية بما كان أقوى مظهر لرابطة الادب الجامعة، فكانت حفلة نادرة في ذلك الوقت، ولكن كان صديقي وصديقه أبخل بشعره عليه منه بدمعه، وهو الغني المليء بالشعر، الفقير الشحيح بالدمع، وانما يجود بالشعر حيث يرجى به النوال الجزل

لقي الملك فيصلا في مصر فرأى من لطفه وتواضعه وتكريمه له ما أحدث

له أملا بأن يحيا بجوده حياة جديدة من الإتراف والسعة أقلها أن يكون له راتب شهري كبير وهو في مصر ، أو ينقل الى منصب كبير ، في بغداد ، فمدحه كما مدح أخاه الامير عبدالله وبيتهم الشريف بقصائد غر ، كان ينشدنيها كلها أو بعضها قبل ارسالها ، ويحاول إرضائي وأنا المنكر لسياستهم البريطانية بما فيها من التنويه بالاصلاح والوحدة العربية ، حتى اذا ماخاب أمله فيهم ، وغلبهم ابن السعود على الحجاز وحدث له من الرجاء في جوده وسخائه ما يئس من مثله منهم ، طفق يمدح هذا وآله ، ويعرض بل يصرح بهجو أولئك ، ومن ذلك قصيدة في الفرق بين الفيصلين فيصل بن عبدالعزيز وفيصل بن الحسين ، وكان يدعي انه لم يكن له من باعث على هذا وذاك إلا ما يهمنا جميعا من مصلحة العرب والاسلام

كذلك كان يستشيرني في القصائد التي كان ينظمها في القضية العربية التي يقيمها حزب الاتحاد السوري فاللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ويكل إلي السعي لما يرجوه من الجائزة عليها من الوجيه ميشيل بك لطف الله ، وهي من غر قصائده

وكثيراً ما كان يزيد في هذه القصائد التي نظمها ولم يكتبها ، وكثيراً ما كان يرتجل غيرها ، فقد ثبت عندنا أنه أوتي من ملكة الارتجال ما يسامي به فحول العرب من الجاهلين والمخضرمين والمولدين ، وهو يعد من فصحائهم لا من بلغائهم ، فشعره فحل في لغته وأسلوبه ، دون فلسفته وتأثيره الروحي

وما كان لي أن أطمع بارجاعه عما يبغيه من الكسب بشعره وهو بضاعته الرائجة ، فكنت أحمد من قصائده ما فيها من الآراء العامة ، وأقتصد في الانكار على المبالغة الشعرية في المدح فيوافقني على ما أقول ، ولا أدري ما يكتبه بعد ذلك ويرسله ، وما يثبته في ديوانه الذي يدخره لمستقبله وورثته ، فقد كان يحفظ كل ما ينظمه وينشدني وينشد غيري من حفظه ، وقد ينقح ما ينتقده عليه السامع في المجلس ، ويزيد فيه ما شاء وينقص منه ، وكان يرجو أن يبذل له أحد الملوك أو الامراء أو الكبراء ما يكفي لوفاء ما يذكر من دينه وطبع ديوانه ، فان لم يتح له

ما يرجو وكل أمر طبعه من بعده الى أبر الاوفياء له الذي اختار أن يجعله وصيا على كريمته الرباب ، واياي كان يعني

هذه خلاصة ما يقال في شعره وأدبه ومودته وكسبه ، ولقد علمت انه كان له كسب نسائي خفي من كتابة التمائم للحب والبغض، وكان أمين سره في هذا العمل صديقه المرحوم توفيق أفندي الرافعي ، وأول من أفشاه لنا امرأته الاولى التي عشق أختها وتزوجها ، حملت الى أهل بيتنا بعض هذه التمائم فأبيت أن انظر فيها ، وحدثتهن عن اسرافه في النفقة ، وما كان يوهمني (قبل بنته الرباب) من أن له عيالا ينفق عليهم ، وقد سمعت منه ورأيت مايعد من عجائب اسرافه ، فلقد كان يشتري ثمر المنجا الجيدة بالعشرات أومئة بعد مئة وهي اغلا الثمار ثمنا ، وكان دائما يشكو الحاجة أو الضرورة، ويطرق أبواب الكبراء الواسعة والضيقة، وقد لجأ أخيراً الى المرحوم سعد باشا زغلول ومدحه بالقصائد الفياضة التي ذكر فيها الاستاذ الامام أول مرة بعد وفاته !! ثم لجأ الى زعيم الوفد من بعده، وظهر في هذه الاثناء بشعر بنته الرباب، وقد شبت على استبدال البرنيطة بالحجاب

وجملة القول فيه انه كان شاعر العرب المرتجل المفلق كما كان قال قبل اختيار هذا اللقب لنفسه

لتخل القوافي ميادينها فقد عصف الشاعر المفلق

وكانت حياته الشخصية في داره ومع اصدقائه وزواره مفاكهات أدبية أكثرها في شعره وأغراضه منه ، ثم لم يكن يتحدث في السنين الاخيرة الا عن مصائبه وامراضه وخلته ، حتى صار مملولا بالطبع . نذكر هذا للعبرة والموعظة ، ونسأل الله تعالى لنا وله العفو والمغفرة ، والرحمة الواسعة

ويسرنا جد السرور عناية الحكومة العراقية باكمال تربية كريمته ، وعناية أدبائها وأدباء فلسطين وسورية بتأبينه ، وهمّ بعض أصحابنا باقامة حفلة تأبين له حافلة ، ثم أرجؤها إلى انتهاء هجير الصيف ، وما كان لمصر أن تهضم حق أدبه وما كان ظهوره واشتهاره الا فيها ،

﴿ باب مختارات الصحف ﴾

تفاقم شر الطلاق في اميركا

لمراسل الاهرام في امريكا

أشرت في احدى رسائلي الماضية الى القاضي بن لندسي في مدينة لوس انجلوس بولاية كليفورنيا الملقب بقاضي الطلاق لتساهله في تسهيل سبيله على الطالبين ولكثرة عدد الذين أعتقهم من ربقة الزواج كما يعتق السجناء حال انتهاء المدة المحكوم عليهم بها ، وقد أعلن هذا القاضي اليوم اعتقاداً جديداً أبداه بشكل نبوءة مفادها امحاق عهد الزواج بهذه البلاد في وقت غير بعيد إذ قال :

« إن الزواج في هذه البلاد صائر الى حالة توجب الاسف وتحمل على الاحتساب فان لم نفتح عيوننا للحقائق و نصرح بها غير متهيبين ونعمل على تغيير ما نفهمه من علائق الجنسين تصبح الاباحة في الحب والفوضى في الزواج والتطرف في حسبان الطلاق من ضروريات المعيشة الهنيئة شيئا سهلا وواجبا وإن كان مخالفا لما قررته الاديان وأوجبته قوانين الهيئة الاجتماعية

« فالزواج عندنا قد أصبح ألعوبة أو مهزلة بحيث لا يختلف عن شركة تجارية يعقدها شخصان ويبقيان فيها متعاونين ما بقيت رابحة وما اتفق ذوقاهما ، وينفصلان عند ما يشعران بالخسارة أو بالنفور المتبادل . ولا ريب في أن البواعث الطارئة على تمدننا في هذا الزمان تعمل على تقويض أركان التوازن الديني وتشويه آداب المجتمع ، وتمهد السبل للطبيعية البشرية الميالة الى الشر في طغيانها فتتمادى فيه بلا وازع من الدين ولا رادع من القانون . والقاضي الذي تبدو له هذه المساويء في القضايا المختلفة لا يرى سوى علاج واحد ناجع وهو أن تستمين الهيئة الاجتماعية بالدين والعلم والتهذيب على استئصال ما طرأ في هذا العصر من التطورات الغريبة العاملة على خراب الحياة الزوجية وفساد أخلاق الناشئة

« وقد يحسبني بعضهم من المفكرين المتفوقين في هذا الباب بالنظر إلى كثرة عدد الذين أفلتوا من قيود الزواج في محكمتي ، فأنا على الرغم مما يقال من تساهلي

في حل ما عقده الشرع من أشد الناس تمسكا بزي الزواج القديم القائل ببقاء الاثنين جسدا واحدا الى أن يفرقهما الموت ولا يحل هذا المشكل الا العمل بهذه القاعدة، وأعتقد ان أجدادنا كانوا أسعد حالا وأهنأ عيشا من الوجهة الزوجية مما نحن عليه الآن

« ومهما كان اعتقادنا بنظرياتهم فان تلك النظريات قد انطوت ومعها الحياة الزوجية القديمة المبنية عليها أو انها تنطوي الآن بسرعة وحل محلها جنوح(١) لا يعترف بقيود ، خال من كل مسؤولية ومن الحب الحقيقي في تعاقد الجنسين بحيث اصبح الناس يعتقدون أن الزواج قضية موقتة يحافظون عليها ما وفرت لهم الغبطة وضروب الشهوات والمسرات فاذا عدمت هذه الميزات ذهبوا إلى المحامي

ويظن هذا القاضي أن الحالة الاقتصادية في الحياة العصرية التي تزاحم فيها المرأة الرجل في الاعمال على اختلافها والتي جعلت الزواج صعبا أو مستحيلا على الشبان من سن ٢٠ الى ٣٠ لقلة دخلهم هي التي سببت هذا التشويش والفوضى في الطلاق ايضا . لان الزوجة التي تفرك(٢) او يحاول زوجها التخلص منها قلما تعارض لانفتاح ابواب العمل امامها بخلاف ما كانت الحال عليه في الماضي

وتنبأ القاضي لندسي من سبع سنوات عن ان عدد المطلقين في السنوات العشر التالية سيضارع عدد الذين يتزوجون وقد مضى من تلك الاعوام سبعة وبقي ثلاثة ومع ذلك فقد تم ما خمنه قبل انتهائها حسبما يقول اه

(المنار) إن سوء عاقبة هذا الفساد أكبر مما يحسب هذا القاضي ويقدره، وإن له اسبابا وعللا كثيرة ، وان علة العلل كلها انحلال العقيدة الدينية وما تعقبه مع الحرية الواسعة من اباحة الشهوات ، وقد كان الدين عندهم نظاما اجتماعيا أدبيا تكفله التربية والتعليم وتحميه القوانين فضعفت الكفالة والحماية بحرية التعليم العالي للنساء والرجال معا فصار من المتعذر أن يدين هؤلاء بالنصرانية المبنية على التسليم بما يقال لهم من غير برهان معقول مقنع ، وهذا الدين لا يجدونه الا بالاسلام فهو العلاج الوحيد لجميع مفاسد الحضارة الغربية كما فصلناه في كتاب الوحي المحمدي،

---

(١) كذا والجنوح الميل ومنه ميل السفينة الى حيث ترتطم بوحل فتقف

(٢) فركت المرأة ابغضت زوجها فهي فارك وفروك

باب الرسائل

العقبة من الحجاز في عهد الدولة العثمانية

حضرة الاستاذ العلامة حجة الاسلام بهذا العصر ، وقائد كتيبة المحققين الذي كتب له النصر ، السيد رشيد رضا أطال الله بقاءه ونفع به

قرأت في الجزء المؤرخ في ٣٠ المحرم ١٣٥٤ من المنار فصلا وافيا عن العقبة وفيه كلام نقلتموه عن أمين أفندي سعيد معناه ان العقبة أدخلت سنة ١٩٠٦ ضمن الحدود العثمانية وألحقت بلواء الكرك (شرقي الاردن اليوم) وصارت جزءاً من أجزائه

والذي أعرفه أنا أن العقبة لم تلحق في وقت من الاوقات بلواء الكرك ، وهذا هو أصل المعترك ، فان الانجليز يريدون أن يجعلوا العقبة من البلاد التي كانت الدولة العثمانيــة ألحقتها بلواء الكرك حتى يقولوا إنهم لم يغيروا شيئًا من الوضع القديم بل أبقوا العقبة تابعة للخطة التى كانت تابعة لها من قبل . والحقيقة أنه لما تشكل لواء الكرك ألحقوا به قصبة معان وتوابعها ماعدا العقبة ، وكان ذلك من الدولة قصداً وعمداً حتى لا تجعل العقبة تخرج من أرض الحجاز نظراً لاستثناء الحجاز من أمور كثيرة كان متفقًا عليها بين الدولة والدول الاجنبية ومن جملتها عدم جواز تملك الاجانب . وقد كنت مرة في دمشق في أيام ولاية ناظم باشا وعلمت من المرحوم محمد فوزي باشا العظم وكان هو عمدة مجلس الادارة ان ولاية سورية راجعت الباب العالى في أن العقبة باتصالها بأرض معان وبكونها ميناء لمعان وبلاد الشراه يجب إلحاقها بمتصرفية الكرك تسهيلا للاشغال .

فأجاب الباب العالى ولاية سورية قائلا : ان هذه الملاحظة لاتخفى علينا ولكن هناك ملاحظات سياسية أهم منها وهي أنه اذ ألحقت العقبة بلواء الكرك صارت من ولاية سورية ودخلت تحت المعاهدات التي بين الدولة والدول الاجنبية فصار يجوز للاجانب أن يتملكوا فيها بخلاف ما إذا كانت تابعة للحجاز فليس للاجانب

حتى أن يتملكوا شيئا في الحجاز وهو أمر متفق عليه بين الدولة والدول. فبقيت العقبة اذن تابعة للحجاز ولم تتبع الكرك كما طلبت ولاية سورية، فقصدت ان اصحح هذه الرواية التي نقلتموها عن أمين أفندى سعيد والتي لو صحت لما كان محل للتعجب من سعي الانكليز بالحاق العقبة بشرقي الاردن لانهم يكونون حينئذ بنوا على اساس قديم. والحال أن هذا الاساس لم يوجد، وان العقبة كانت ولم تخرج من الحجاز لا أولا ولا اخيرا ووضعها الحاضر لا يستند على شيء قانوني والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

جنيف شكيب أرسلان

(المنار) هذا ما يقال من جهة ما يسمى التشكيلات الادارية في الدولة. وأما من الجهة الشرعية الاسلامية فالعقبة وما حولها من الحجاز وبصفة أوسع نقول من جزيرة العرب التي أوصى النبي ﷺ بأن لا يبقى فيها دينان كما بيناه مرارا، فاحتيال انكلترة للاستيلاء عليها أفظع اعتداء على دين الاسلام

﴿ وزير مسيحي يصف الشريعة الاسلامية ﴾

خطب الاستاذ فارس بك الخوري الوزير السوري الاسبق ومن كبار مسيحيي سوريا في احدى الحفلات التي أقيمت بدمشق لاحياء ذكرى المولد النبوي ومما قاله :

«إن محمداً أعظم عظماء العالم ولم يجد الدهر بعد بمثله، والدين الذي جاء به أوفى الاديان وأتمها وأكملها، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس اليها باسم الله وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لارقى النظم والحقائق العلمية

« ان محمداً الذي تحتفلون به وتكرمون ذكراه أعظم عظماء الارض سابقهم ولاحقهم، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها» (المقطم)

مأساة أميرة شرقية (*)

بقلم الاستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي نزيل البصرة

(٢)

ونحن مع احترامنا للنبي المكرم عيسى نقول : قد أجاد الاستاذ في تنظيره وتمثيله ، ألا يعلم لويس أن شرب الدخان في النارجيلة أو غيرها إنما حدث بعد اكتشاف كولومبوس أميريكا ولم ينتشر الا في الازمنة الاخيرة ، بل في هذا الزمان نفسه لو دخلت مجلس أمير من بني تميم أهل اليمامة لم تر فيها نارجيلة فضلا عن الخمر ، فهل بلغ به هوان نفسه عليه أن يزعم ان مجالس أمراء ابي بكر وعمر كانت محتوية على الخمر؟ سبحانك هذا بهتان عظيم، فأي رجل من زنوج أفريقية بل قبائل أسكيمو يلقي نظرة إجمالية على التاريخ ويتوهم وجود الخمر في مجالس أمراء الخلفاء ولم تمض على انتقال النبي الى الرفيق الاعلى الا أيام قلائل ولم يرو لنا التاريخ شرب الخمر في مجالس الامراء الا بعد ذلك بازمان طويلة ؟

وليس مقصودي ان ابرىء خالداً من الوجهة الدينية أو ادعي له العصمة الواجبة للانبياء ، لان الكاتب لم يتصد لهذا الامر الا من الوجهة التاريخية والادبية ولذلك أحصر ردي عليه فيهما فهل يستطيع ان ينقل لنا كلمة واحدة من التواريخ المعتبرة يثبت بها ما افتعله ؟ هيهات ذلك .

لقد كنا نظن أن مجلاتنا الادبية لما تصل بعد الى المستوى الاعلى من التحقيق في التاريخ والادب وان كتابنا لا تزال بضائعهم مزجاة في ذلك، ولكننا بمدمار أينا

(*) نشرها (كرهام لويس) المستشرق الانكليزي في جريدة المصور الاسبوعي للهند صور فيها الصحابي خالد بن الوليد القائد الحربي الاعظم في فسطاط كمجالس راجات الهند تدار فيه كؤس المدام واصطفت نراجيل دخان التبغ وصور ليلى بنت جويد متزينة بأحدث أزياء نساء أوربة وحلي الشرق تدخل عليه لتشفع لمالك بن نويرة زوجها بزعمه اذ اسرها معه في حرب الردة فعشقها وأمر بقتله وتزوجها . وقد

هذا المقال اغتبطنا أيما اغتباط بمجلاتنا وكتابنا. وكنا نظن ان كاتبا شهيراً قد تصدى لكتابة سلسلة مقالات في التاريخ والادب الشرقيين في أشهر المجلات الانكليزية في الهند وعرضها على علماء الشرق والغرب يربأ بنفسه أن يرتكب الخلط والخبط والكذب البحت، ولكن أبى الله الا ان يفضح هذا الاديب الكبير ليعلم مطايا الافرنج ومقلدوهم أن أدباءهم ليسوا معصومين كما يزعمون من الوهم والغلط والجهل والكذب بل ربما فاقوا غيرهم في ذلك، وسترى في الرد على مقاله ما يجلو كل شك ويلاشي كل ريب

ومن العجيب أن الاديب كوهام جعل من خالد خالدين، ولرجل واحد صورتين، فالصورة الاولى التي تقدم الكلام عليها تخالف تماما صورة خالد التي نشر تحتها ترجمة خالد بن الوليد وأعماله وسيرته في المجلة نفسها، في جزء ٨ اكتوبر ١٩٣٣ فخالد الاول مستطيل الوجه مائلا الى الاستدارة ذو لحية مقصوصة قصاً غير بليغ وأما الثاني فان وجهه صغير مخروطي وملامحه مخالفة أشد المخالفة لملامح الاول، ذو لحية فرنسية مخروطية منهوكة بلا عارضين. فهكذا يكون التخبط والا فلا

﴿ الرد على مقاله ومناقشته الحساب ﴾

(١) زعم الكاتب الكاذب أن ليلى بنت الجودي الغسانية كانت زوجا لمالك ابن نويرة ثم تزوجها خالد بن الوليد ثم تعشقها وغنى بحبها عبد الرحمن يعنى ابن أبي بكر الصديق وما زال ملحا في طلابها إلى أن ظفر بها أخيراً ففتن بها حتى أعرض عن نسائه وسراريه وجعلها سيدة البيت، ثم لم يلبث ان هجرها وفارقها فرجعت الى بيت والدها بدمشق وقضت بقية حياتها فيه - هذا ملخص قصة ليلى بزعمه

أقول وهذا كذب محض وجهل فاضح فان ليلى بنت الجودي لم يتزوج بها مالك بن نويرة وكيف يتزوج بها وهو من أهل اليمامة في قلب جزيرة العرب وكان وثنياً مشركا وليلى بنت الجودي نصرانية وأبوها أحد رؤساء النصرانية في دمشق. وامرأة مالك بن نويرة التي تزوجها خالد بعد قتل زوجها اسمها أم تميم بنت المنهال. لم يتعشقها عبد الرحمن ولم يتغن بحبها ولا تزوجها، وقد التبس الامر على هذا الكاتب المسكين لفقره في الادب الشرقي فمزج امرأتين وعجنهما وجعلهما شيئا واحداً لحول في عين بصيرته، وسيجيء الكلام على ليلى بنت الجودى في آخر الرد ان شاء الله

(٢) زعم أن ليلى زوجة مالك بن نويرة وقعت مع زوجها في أسر خالد وهو كذب أيضا إذ لم يذكر أحد من المؤرخين (فيما نعلم) ان خيل خالد اخذت مع مالك زوجته ، والحقيقة كما في الطبري والكامل وابن خلدون وغيرها ان خالد ابن الوليد نزل بالبطاح وبث سراياه فجاءته الخيل بجماعة من بني يربوع منهم مالك بن نويرة فسأل خالد الذين جاءوا بهم أهم مسلمون فيبقيهم أم مرتدون فيقتلهم ، فاختلفوا فشهد أبو قتادة ونفر أنهم مسلمون وانهم أذنوا وصلوا معهم، وشهد آخرون انهم غير مسلمين فامر بهم خالد فقتلوا ، ولم يذكر أحد انه كانت معهم امرأة مع ان الرواة ذكروا كل شيء حتى أنهم لم يغفلوا عن ذكر أن ذلك كان ليلا وان البرد كان شديداً

(٣) زعم ان امرأة مالك كانت قد وهبت قلبها لزوجها وأزمعت ان تبذل كل مرتخص وغال في فدية زوجها فتزينت بحليها وحللها وذهبت الى خالد لتشفع لزوجها،فلما رآها عشقها واصدر أمره بقتل زوجها ودعوة إمام لعقد النكاح ، وخلق لها عباءة كثيفة وزعم ان النساء يومئذ كن محتجبات وكان كشف وجوههن عاراً ، وهذا كله كذب وجهل، فان الحجاب لم يكن له وجود في ذلك الزمان حتى في نساء المسلمين فكيف بنساء المرتدين؟! وانما حدث الحجاب بعد ذلك بزمن طويل، أنظر كتابنا (الاسفار في مسألة الحجاب والسفور) ولم يكن عقد النكاح يتوقف على إمام المسجد في بلاد العرب في ذلك الزمان ولا في هذا أيضاً وانما هي عادة من عادات المسلمين في الهند وفي كثير من البلاد الاسلامية ،وليس ذلك بمشروع في الاسلام ،ويكفي لعقد النكاح ان يشهد شاهدا عدل من المسلمين ولكن أهل البلاد المتحضرة يحضرون القاضي أو نائبه عادة وأما خالد فلم يكن له امام بل هو القائد والامام كما هي العادة في ذلك الزمان أن يكون الامير هو الامام، ولم يدخل خالد بامرأته في تلك الليلة بل تركها حتى تنقضي عدتها كما في ابن جرير مجلد ٤ ص ١٩٢٦

(٤) لو فرضنا ان أم تميم ذهبت الى خالد لتشفع في زوجها لما أمكن ان

من حلي وحلل وتذهب في الليل البهيم فتدخل على رجل أجنبي يملك ناصيتها وتخاوبه في خيمته ، لامور

(ا) أن التجمل والتحلي انما يكون وقت الفرح لا وقت الحزن ولا سيما في ذلك الوقت العصيب حين أحب الاحباب اليها تحت خطر الموت ينتظر كلمة تخرج من بين شفتي القائد تحييه أو تقتله فتزينها في ذلك الوقت مما لا يعقله أحد يعرف عادات العرب وأحوالهم لانها لو فعلت ذلك لقضت على نفسها وعلى خالد ، إذ الخلوة بالاجنبية ولا سيما في الليل فسق موجب للعزل والتعزير، ولا يمكن لامرأة عرفت بذلك ان تكون زوجة لسيد من سادات العرب بل ولا من أوساطهم ولا لرجل عرف بذلك ان يكون أميراً لابي بكر

(ب) ان (الديمقراطية) عند العرب كانت في عنفوان شبابها ولم يكن الجنود يخضعون ولا يطيعون الامير اذا رأوا منه منكراً، والدليل موجود في نفس القصة وهو شيئان (الاول) أن بعض الجند وهم الانصار اختلفوا مع قائدهم خالد في التوجه الى البطاح [1] فقال لهم خالد لا اكره أحداً منكم أما انا فذاهب فتخلفوا عنه وذهب، ثم بعد ذلك ندموا ولحقوا به (الثاني) ان أبا قتادة أعلن إنكاره على خالد في قتل مالك وأصحابه حتي ذهب مغاضبا له إلى المدينة واشتكي لابي بكر الصديق الخليفة مارأي من خالد واستعان بعمر واجتهدا ان يحملا أبا بكر على عزل خالد فلم يفعل

(ج) لو ان أبا قتادة ومن وافقه من الناقمين على خالد وفيهم عمر بن الخطاب الذي كان كالوزير لابي بكر وكان إذ ذاك مجتهداً في حمل ابي بكر على عزل خالد وبقيت في قلبه حزازة على خالد حتي إنه حين تولى الخلافة عجل بعزله فلو أن أبا قتادة رأي خالدا قد خلا بامرأة مالك ليلا قبل عقد النكاح بل في حياة زوجها لاخبر بذلك عمر وكانت حجته قائمة على فسق خالد ثم لشنع عمر بذلك على خالد وألزم أبا بكر عزله فلا يجد منه بدا

(٤) وبما تكون العادة عند الاوربيين ـ قوم الكاتب ـ ان المرأة اذا أرادت

(١) أرض بني يربوع قوم مالك بن نويرة

أن تشفع عند أمير تجملت وتزينت وتغنجت وتدللت لتسبي قلب ذلك الأمير فيقضي حاجتها، وأما العرب فان العادة عندهم على خلاف ذلك فان المرأة اذا ذهبت إلى رجل أجنبي ولو لم يكن أميراً تذهب اليه حزينة متبذلة باكية حيية خاشعة، وأما المرأة التي تتزين وتتبرج وتذهب للاجانب فهي في نظر العرب بغي فاجرة لا تتمكن من الدخول على الاشراف،

(٥) زعم كراهام لويس ان تلك الليلة كانت ليلة هياط ومياط وأكل وشرب وسكر ورقص وخلاعة وبطر احتفالا بالنصر والظفر وقد زل حماره في الطين في هذا أيضاً، ولو أشرف إشرافة على التاريخ الاسلامي أو ألم إلمامة به ولا سيما في أوله لعلم أنه كاذب ولخجل من نفسه (كما يقول الانكليز) قبل خجله من الناس: لو كانت الجنود المحمدية يامستر كراهام محتفل عند الانتصار بالاكل والزمر والخمر والعهر ما أكلت جنود أسلافكم وسادتكم الذين استعبدوكم قرونا أعني الروم الجبابرة في ربع قرن أو أقل على قلة عددهم وعددهم

اني أرثي لجهلك يامستر كراهام وأتمنى ان تعلم ولو قليلا سيرة محمد وأصحابه الابرار الأطهار. أفتظن أن أصحاب محمد كأصحاب نابليون وكجنودكم في الوقت الحاضر كلما انتصروا فزعوا الى اللهو والفواحش كالدواب؟ ان أصحاب محمد كانوا يحيون لياليهم في معسكرهم بالصلاة وتلاوة القرآن اقتداء بنبيهم، إقرأ يا كراهام في سورة السجدة من القرآن (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون) ثم اقرأ في سورة الفتح (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود) ثم اقرأ في سورة الذاريات (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون *وبالاسحار هم يستغفرون* وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) وكذلك كان هدي نبيهم وإمامهم كما وصفه الشاعر بقوله

وفينا رسول الله يتلو كتابه . اذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا . به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه . اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

(يتبع)

تقريظ المطبوعات (تأخر عدة أشهر)

كتاب المحلى للامام أبي محمد علي ابن حزم

من حسنات المطابع في هذا العصر أن يسرت لكل مشتغل بفقه الحديث أن يقتني كتاب المحلى مطبوعا أحسن طبع على أجود ورق في أحد عشر جزءا ، بعد أن كان من كنوز أغنى الخزائن ، وأندر الذخائر ، وحسبك من فضله ونفعه شهادة سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام انه هو والمغني لابن قدامة أحسن ما كتب المسلمون في الفقه ، فهي تغني عن وصفه و بيان امامة مؤلفه وفضله ، وثمن النسخة منه ١٥٠ قرش وهو يطلب من طابعه الاستاذ الشيخ محمد منير الدمشقي ومن مكتبة المنار

﴿ كتاب الفتح الرباني — لترتيب مسند الامام أحمد الشيباني ﴾

(وكتاب بلوغ الاماني ، من أسرار الفتح الرباني)

الامام أحمد رحمه الله تعالى إمام أئمة السنة حفظا ورواية ودراية وفقها ، وجرحا وتعديلا ، ومسنده أوسع الأصول في الحديث وأعمها فائدة ، والمسانيد موضوعة لحفاظ الحديث يشق على غيرهم الاستفادة منها ، فان كان تلاميذه منهم لم يحتاجوا الى ترتيب أحاديثه على أبواب كتب السنن كما فعل الحافظ أبو داود السجستاني من اعلامهم ، فالفقهاء من أتباعه كانوا أحوج الناس الى ذلك ، ونحن لا ندري هل وجد فيهم من قام بهذه الخدمة أم لا ، وانما ندري انه ليس في الايدي شيء من ذلك ، وكأن الله تعالى ادخرها لاحد إخواننا أصدقاء المنار وهو الاستاذ الفاضل خادم السنة السنية الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ، ولعمري انه لقد قاسى من العناء في هذا الترتيب مالم يكن يظن ان أحدا يطيقه في هذا العصر ، وسلك فيه سبيلا لم يسبق إلى مثله : جعل الكتاب كله اثني عشر جزءا وكل جزء منه أربعين ملزمة (كراسة) من ملازم الطبع بالقطع الكامل . وعد أحاديث كل كتاب بالارقام واقتصر في السند على اسم الصحابي وطبعها بحرف كبير مضبوط بالشكل الكامل فهذا كتاب الفتح الرباني ، وأما كتاب بلوغ الاماني فهو شرح وجيز له في أدنى الصفحات بحرف أصغر من حرف المتن . يبدأ فيه بذكر السند فتفسير غريب الحديث فالضروري من معناه فتخريجه فمبحث الهدين بالسنة على المبادرة إلى اقتنائه

﴿ سبب تأخر هذا الجزء من المنار وسيكون ما بعده أكبر وأحسن ﴾

أخرنا هذا الجزء وهو الأول من هذا العام انتظارا لاجوبة المشتركين الذين خيرناهم في الجزء الماضي بين أكرم الخصال وأشرف الخلال، ولم أرض لأحد منهم إلا ما يرضاه الله عز وجل للذين اورثهم الكتاب من عباده المصطفين لدينه (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) ويؤسفنا أن كثيراً منهم رضى لنفسه ما لا يرضاه الله لأحد من أهل دينه ووارثي كتابه حتى ادني الطبقات وهم الظالمون لأنفسهم، رضوا بأن يأكلوا حقه بالباطل سحتاواختاروه على أكله حلالا عن سماح ورضى ، وعفو عما مضى، كما علم كل من قرأ الجزءالماضى، ومنهم من وفى واعتذر فقبلنا عذره، ومنهم من وعد وطلب النظرة الى الميسرة فانظرناه ، ومنهم من طلب العفو والسماح فسامحناه ، ولكن أكثر مشتركى هذا القطر لما يردوا لنا جواباً فهؤلاء لانرسل اليهم هذا الجزء وان جاز ان يكون بعضهم لم يقرأ خطاب التخيير بعد ، وأما أهل الاقطار البعيدة ولا سيما جزائر الهند الشرقية فموعد رجع الخطاب منهم قد صار قريباً

وعدت بتجديد حياة المنار صورة ومعنى، فاما الورق فكما يرى القراء جودة وحسنا ،وأما الحروف فلما يتم كل ما أوصينا عليه منها ، واما الصحائف فقد زدنا في هذا الجزء كراسة ونرجو ان نزيد فيما بعده أيضاً حتى يعود مجلده كما كان- اذ كانت سنته اثني عشر شهرا اوا كثر- إن وفى لنا المشتركون في تجديد النظام، وصاروا يؤدون قيمة الاشتراك فى اوائل العام، ونفتح لهم فيه الابواب الادبية والعلمية التى عزمنا عليها

ونحمدالله ان الذين يعرفون قدر المنار لا يعدلون به غيره من المجلات الدينية التى قلما يجدون فيها شيئا الا منقولا من الكتب المطبوعة الرخيصة يمكن ان يستغنوا به عنها ،وما يجدونه فيه من حقائق التفسير وحل المشكلات بالفتاوى وغيرها لا يجدونه فى غيره البتة ، وانما يجدون شيئا تطمئن به القلوب، وتنشرح له الصدور ، كما تراه في تفسير أمر يعقوب عليه السلام أبناءه بالدخول من أبواب متفرقة، والحاجة التي كانت فى نفس يعقوب فقضاها بهذه الوصية، فاقرأ جميع التفاسير من اقدمها الى احدثها ثم ارجع الى تفسير المنار، وكذلك سائر ما تقدم وما تأخر من هذه السورة وغيرها، واسأل عقلك واستفت قلبك فى ذلك كله



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

أنشئ ١٣١٥

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٥٤ برج الاسد سنة ١٣١٣ هـ ش ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٥

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

(٦٩) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧٠) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧١) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ؟ (٧٢) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٣) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ

(٧٤) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ (٧٥) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٦) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

﴿٦٩ ولما دخلوا على يوسف﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم البلد أو باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ﴿ آوى اليه أخاه ﴾ أي ضم اليه أخاه الشقيق وهو بنيامين من دونهم ، وهذا ما كان يتوقع يعقوب أو أكثر مما كان يتوقع من حدب عليه يظهر أثره في وجهه أو عناية يختصه بها ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ يوسف الذي فقدتموه في صغره . وقيل إنه لم يصرح له بأنه أخوه الشقيق وإنما قال هذا من باب التجوز والتشبيه ، ويرد هذا تأكيد الجملة الخبرية الاسمية بإن وبتأكيد ضمير المتكلم ، ويدل على الحقيقة قوله ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ أي فلا يرهقنك بعد الآن بؤس أي مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك . فالابتئاس افتعال واهتمام بالاسباب التي تجلب البؤس والشقاء.

وفي سفر التكوين أن أباهم أرسل معهم هدية إلى الرجل فوق الفضة التي يشترون بها القمح والفضة التي كانت ردت اليهم لاحتمال أن تكون ردت سهواً وقال لهم « ٤٢ : ١٣ وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا الى الرجل ١٤ والله القدير يعطيكم رحمته أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر (١) وبنيامين وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم ١٥ فأخذ الرجال هذه الهدية وأخذوا ضعف الفضة في أياديهم (كذا) وبنيامين وقاموا ونزلوا الى مصر ووقفوا أمام يوسف ١٦ فلما رأى

(١) يعني بأخيهم الآخر شمعون إذ كان على روايته قد أمسكه عنده رهنا ليأتوا ببنيامين

يوسف بنيامين معهم قال للذي على بيته أدخل الرجال إلى البيت واذبح ذبيحة وهيء (طعاما) لان الرجال يأكلون معي عند الظهر ففعل الرجل كما قال يوسف » وفيه أنهم خافوا لما أدخلوا إلى بيت يوسف أن يوقع بهم ويأخذ عبيدهم وحميرهم فقصوا على الرجل قصتهم ومنها ما وجدوه في رحالهم من الفضة المادة اليهم فطمأنهم وأخرج اليهم أخاهم شمعون وأكرمهم إلى أن جاء يوسف وقت الظهر ليأكل معهم ، فلما جاء قدموا له الهدية وسجدوا له إلى الارض وسألهم عن سلامتهم وسلامة أبيهم أحي هو ؟ (٢٨ فقالوا عبدك أبونا سالم هو حي بعد وخروا وسجدوا ٢٩ ورفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه وقال : أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ؟ ثم قال الله ينعم عليك يا ابني ٣٠ واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه وطلب مكانا ليبكي ، فدخل المخدع وبكى هناك ٣١ ثم غسل وجهه وخرج وتجلد . وقال قدموا طعاما ٣٢ فقدموا له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ، لان المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين ، لانه رجس عند المصريين ٣٣ فجلسوا قدامه البكر بحسب بكوريته والصغير بحسب صغره فبهت الرجال بعضهم الى بعض ودفع حصصا من قدامه اليهم فكانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم خمسة أضعاف » وهذه الرواية ذكرها الزمخشري بما هو ألطف مما في سفر التكوين ولم يذكر المصريين بل ذكر انه أجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل منكم بيتا (أي حجرة) وهذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وقال له (إني أنا أخوك) الخ وهذا قريب من العقل والفطرة ، وفيه من عواطف الرحم وإيثار الاخ الشقيق على غيره ما سنتكلم عنه في الخلاصة الاجمالية إن شاء الله تعالى

٧٠ ﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ تقدم مثله قريبا ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾
السقاية بالكسر : المكان الذي يسقى فيه الناس، وولاية سقيهم حيث تكون حرفة (أو مصلحة كما يقال في عرف هذا العصر) ومنه سقاية الحج المعروفة قبل الاسلام وبعده الى أن كثر الماء بمكة وكثر الحجاج . قالوا : وتطلق على إناء أو وعاء يسقى به وهو الذي عبر عنه في الآية ٧٢ بصواع الملك ، وهو كالصاع مكيال معلوم يكال به الحب وغيره ، ويلوح لي انه يسمى سقاية إذا كيل به الشراب الذي يوزع على المستقين كالحجاج إذ كانوا يسقون نبيذ التمر (أي نقيعه) فيكفي عدة منهم، لا انه ما يكفي الواحد كالكأس والكوب ، وقد أطلقه المفسرون على المكيال الذي يسمى المكوك (مذكر) وهو ثلاث كيلجات ، والكيلجة بكسر الكاف وفتح اللام : كيل معروف لأهل العراق وهي منا وسبعة أثمان منا ، والمنا رطلان اه من المصباح . وفي الافصاح ان المكوك نصف الويبة وهي اثنان وعشرون مدا بمد النبي ﷺ أو ثلاث كيلجات ، والمد مكيل وهو رطلان أو رطل وثلث وهو أيضا ربع الصاع اه فالمكوك على هذا كيلة مصرية ، فالسقاية والصواع إذاً كيل من ١٢ من الاردب المصري المعروف الآن ، والظاهر أن إضافته إلى الملك يراد به أنه المكيال الرسمي الذي صدر به أمره ، لا كما يفهم من أكثر التفاسير انه كان كأسا من الذهب أو الفضة لشربه ، فما المناسبة بين كأس الشراب ، ومكيال بيع الطعام؟ وفي سفر التكوين انه طاس ليوسف من الفضة كان يشرب فيه ولو لم يسم إلا بالسقاية لصح أن يوافق هذا المعنى . والصاع يصح أن يشرب منه لا به

وأما رواة التفسير المأثور فأخرجوا عن ابن عباس في السقاية قال : هو الصواع وكل شيء يشرب منه فهو صواع ، وفي رواية أخرى عنه في صواع الملك قال شيء يشبه المكوك من فضة كانوا يشربون فيه ، وفي رواية ان نافع بن الازرق قال له اخبرني عن قوله [صواع الملك] قال الصواع الكأس الذي يشرب فيه . قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت الاعشى وهو يقول :

له درمك في رأسه ومشارب وقدر وطباخ وصاع وديسق

وفي رواية عنه : صواع الملك كان من نحاس ، وعن عكرمة كان من ذهب على

مايذكرون ، وفي رواية أخرى عنه كان من فضة ، وعن سعيد بن جبير في صواع الملك هو المكوك الذي يلتقي طرفاه كانت تشرب فيه الاعاجم الخ وفي رواية انه كان فضة مموهة بالذهب . وهذه الروايات لا يمكن أن تكون مأخوذة من اللغة كما علمت وإن ذكرت أقوالهم في بعض كتبها ، وبيت الاعشى لا يدل على أن الصواع الكأس الذي يشرب الناس به ، وروي عن بعضهم أنهم كانوا يسقون به الحمير وهو أقرب ، ولا من التاريخ إلا ما ذكرنا ه من عبارة سفر التكوين زادوا عليها ما زادوا مما لا دليل عليه . وليس فيها حديث مرفوع صحيح ولا ضعيف ، فهي إذاً من الاسرائيليات التي لا قيمة لها

﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ أي نادى مناد وقف بينهم ليسمعوا كلهم من التأذين وهو تكرار الاذان وكثرته ، وهو الاعلام بالشيء الذي تدركه الاذن ، يقال آذنه بالشيء إيذانا : أي أعلمه به ، وأذن الناس بكذا أي أعلمهم المرة به بعد المرة ومنه المؤذن بالصلاة ﴿ أيتها العير انكم لسارقون ﴾ العير بالكسر الابل التي عليها الاحمال لانها تعير أي تجيء وتذهب ، وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير بالفتح (كبيت) وهو الحمار ، وفي سفر التكوين ان قافلتهم كانت من الحمير — أي نادى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا انكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم ، والظاهر من السياق أن يوسف (ع.م) وضع السقاية في رحل أخيه بيده ولم يكله الى أحد من فتيانه كتجهيزهم الاول والثاني لئلا يطلعوا على مكيدته ، وكان من شأنهم أن افتقدوا السقاية لانها الصواع الذي يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أي كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان ، وليس في العبارة ولا في السياق ما يدل على أنه قال هذا بأمر يوسف حتى يقال كيف أمره بالكذب ويحتاج الى تأويله له كما تكلفه بعض المفسرين وسرق من باب ضرب والمصدر السرق بالتحرك والاسم السرق والسرقة بكسر الراء

﴿ ٧١ قالوا وأقبلوا عليهم ﴾ أي قال اخوة يوسف لجماعة المؤذن وقد تركوا رحالهم وأقبلوا عليهم ﴿ ماذا تفقدون ؟ ﴾ من فقد الشيء الموجود أي غاب عنه

وعدمه فلم يجده حيث يعهده ، وتفقده تعهده وفتش عنه حيث يعهده

٧٢﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي نفقد الصاع الرسمي الذي عليه شارة الملك ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ أي وسق جمل من الطعام وهو القمح وهذا يدل على أن عيرهم كانت الابل لا الحمير إلا أن يقال إن الاحمال كانت تقدر بما يحمله البعير وان حملت على غيره ﴿ وأنا به زعيم ﴾ يقول المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير أجعله حلوانا للذي يجيء به ، يعني ان كان مفقوداً غير مسروق أوجاء به غير سارقه

٧٣﴿ قالوا تالله لقد علمتم ﴾ القسم بالتاء خاص باسم الجلالة وسمع: ترب الكعبة ، أي لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا في امتيارنا الاول وفي عودتنا وإعادتنا لبضاعتنا التي ردت الينا مع غيرها لما نبغيه من الميرة الثانية اننا ﴿ ماجئنا لنفسد في الارض ﴾ أي في أرض مصر بسرقة ولا غيرها من الاعتداء على الحقوق ﴿ وما كنا سارقين ﴾ أي وما كان من شأننا ولا مما يباح في ديننا وأدبنا أن نسرق ، فهذا من نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل كما بيناه مراراً

٧٤﴿ قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ﴾ أي قال فتيان يوسف لهم فما جزاء الصواع على سارقه أو ما جزاء سارقه ان كنتم كاذبين في جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

٧٥﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله ﴾ أي جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبداً لصاحبه ﴿ فهو جزاؤه ﴾ تقرير للحكم وتأكيد له في شرع يعقوب وآله وهو أن يسترق السارق سنة ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم في شرعنا ، فنحن أشد الناس عقابا لهم وهذا زيادة في تأكيد قولهم لثقتهم ببراءة أنفسهم ، ولا يجوز أن تجعل هذه الجملة من كلام فتيان يوسف كما قيل

٧٦﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ أي فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم

التي تشتمل عليها رحالهم ابتعاداً عن الشبهة وظن التهمة بالحيلة ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ أي ثم انه بعد الفراغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج منه السقاية ، وقيل يصح عود الضمير المؤنث الى الصواع لانه يذكر ويؤنث كما قال الزجاج ، ولكن لا يناسب تأنيث ضميره بعد تذكيره في قوله (ولمن جاء به حمل بعير)

ومن دقائق القرآن التي يعز استخراجها على غير مهرة الغواصين على اللآلىء قوله تعالى (استخرجها) بدلا من أخرجها ، فان الاستفعال في أصل اللغة طلب الفعل لا إيجاده ، والطلب يكون بالقول ويكون بالفعل ، ونكتة البلاغة فيه هنا ان يوسف فعل الاسباب التي انتهت الى خروج السقاية من وعاء أخيه سواء فعل ذلك بيده أو بأمره لغلمانه وأتباعه ، فهذا ابتغاء وطلب لها بفعل أسبابها ومقدماتها، ومن أخرج الشيء من الشيء ابتداء بغير تكلف أسباب ولا مقدمات لا يصح أن يقال استخرجه : يقال أخرج يدك من جيبك ولا يصح أن يقال استخرجها ، وقالوا استخرجت الشيء من المعدن بمعنى خلصته من ترابه ، فصيغة الاستفعال هنا على أصلها كالتي في الآية ، ومنه المستخرجات عند المحدثين فتأمله

﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ مثل هذا الكيد الخفي - وهو التدبير الذي يخفى ظاهره على ناظريه والمتعاملين به حتى يؤدي الى باطنه المراد منه - كدنا ليوسف اى ألهمناه إياه وأوحينا اليه أن يفعله ﴿ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك﴾ هذا استئناف لبيان الكيد له معناه أنه ما كان من شأنه ولا مما تبيحه له امانته لملك مصر أن يخالف دينه أي شرعه الذي يدين الله تعالى به في أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرجوع معهم وهو ملتزم له بتفويضه الحكم في بلاده به ، فأخذه بغير جرم يبيحه له ظلم واستبداد ، وللسرقة عقاب دون أخذ السارق واسترقاقه

بيان هذا الكيد الالهي انه لما كان استبقاء بنيامين عند يوسف مصلحة اقتضتها الحكمة الربانية في تربية إخوته وعقابهم بما فرطوا في يوسف وتمحيصهم وتصفيتهم واصطفاء أبيهم أيضا واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بصفة غير

استبدادية وغير ماتقتضيه شريعة الملك ، وما هو إلا أن يكون بحكم اختياري من إخوته على أنفسهم بمقتضى شريعتهم ، يذرقون به أمله ومرارته فيما لا لوم به على أحد غير أنفسهم ، ولا سبيل إلى هذا الحكم منهم إلا وقوع شبهة السرق على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته .

ولما كانت هذه الوسيلة الوحيدة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة الظاهر لأنها تهمة باطلة وكان من شأن يوسف أن يتأثم بها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى بين تعالى أنه فعل ذلك بمشيئته وإذنه فقال ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فهو نص صريح في أنه فعل ذلك باذن الله تعالى ووحيه لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة ، واحتال بها لمخالفة الشريعة ، كما يزعمه علماء السوء أصحاب الحيل التي يخترعونها لاتباع أهوائهم والخروج عن حكمة ربهم ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ في العلم والايمان كما رفعنا درجة يوسف ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ وأوسع إحاطة وأرفع درجة منه في العلم المطلق إما علمه وإما غير علمه الذي تفوق فيه كما تدل عليه قصة موسى مع الخضر ، فلا يوجد أحد من علماء الخلق يحيط علما بكل شيء فيكون فوقهم كلهم ولا يكون فوقه أحد ، وإنما الذي أحاط بكل شيء علما وهو فوق كل ذي علم على الاطلاق فهو الله رب العالمين عز وجل الذي أحاط بكل شيء علما

---

(٧٧) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٨) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٩) قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ

ماذا قال اخوة يوسف العشرة عندما رأوا السقاية قد استخرجت من وعاء بنيامين؟

٧٧ ﴿ قالوا إن يسرق ﴾ هذا من دوننا وما كانت السرقة من شأننا ودأبنا ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون يوسف عليه السلام وان العلة فيه وفي أخيه واحدة وهي أمهما ، كأنهما ورثا هذه الجريمة منها ؛ إذ لا ينفردان دونهم إلا بها ، وهذه التهمة دليل على أن حسدهم لهما لا يزال كامنا في قلوبهم وإن علته الاولى اختلاف الامهات، وزيادة عطف الاب عليهما كما قلنا في تفسير أول السورة. ويجوز أن تكون هذه التهمة كاذبة كقولهم (أكله الذئب) وأن يكون لها شبهة كشبهة سرق بنيامين

اختلف المفسرون في هذا وذاك ورووا فيه روايات لا يعرف لها أصل إلا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال «سرق يوسف (ع.م) صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فعيره بذلك اخوته» وعن سعيد ابن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ولم يخرج المرفوع أحد من رواة التفسير المأثور غير ابن مردويه ولم يعتمده منهم أحد بل عبر بعضهم عنه بقيل . وقيل كان الصنم لخاله يعبده فأمرته أمه يسرقته وكانت مسلمة ، وقيل سرقه من كنيسة وقيل سرق مكحلة لخالته ، وقيل بيضة وقيل دجاجة ، وقيل أخذ شيئا من الطعام عن المائدة فتصدق به. وكل هذه روايات إسرائيلية سخيفة كان زنادقة اليهود يضحكون بها على المسلمين وأليقها بالمقام ما أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد وهو: قال كان أول ما دخل على يوسف (ع.م) من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد اسحاق عليه السلام وكانت اليها منطقة اسحاق فكانوا يتوارثونها بالكبر وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها واليها فلم يحب احد شيئا من الاشياء كحبها إياه حتى اذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أخية(١) سلمي إلي يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياما أنظر اليه لعل ذلك يسليني عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت الى منطقة اسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة اسحاق فانظروا من أخذها ومن

(١) تصغير اخت للتحبب

أصابها فالتمست ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام فقالت والله انه لسلم لي أصنع فيه ماشئت، فأتاها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر فقال لها: أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت عليها السلام، فهو الذي يقول اخوة يوسف عليهم السلام حين صنع بأخيه ماصنع (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) والروايات لا يوثق بها ولا يدل شيء منها على سرقة حقيقية

﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ أي فكتم هذه القولة أو الكلمة التي سمعها يوسف منهم في نفسه ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ أي لم يؤاخذهم بها قولا ولا عملا لانه بلغ منهم كل ما أراد من حيث لم يتعرف اليهم ولكنه ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تفترونه، يعني انكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده اليه وعرضتموه للهلاك والرق، وقلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ وهو أنكم كاذبون فهو يجازيكم عليه في الدنيا الآن. والظاهر انه قال هذا في نفسه فهو استئناف بياني، ورجح بعضهم أن هذه الجملة تفسير للضمير في (أسرها) على أنه مما يسميه النحاة الاضمار على شريطة التفسير الذي يجوزون به عود الضمير المتقدم على المتأخر عنه لفظا ورتبة وله شواهد ونازع فيه بعض أئمتهم بما لا محل له في تفسيرنا

٧٨ ﴿ قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا ﴾ بالغا غاية الكبر في الشيخوخة أو كبير القدر جديراً بالرعاية كما علمت مما قصصناه عليك من خبره وتعلقه به ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ بدله إذ استحققت أخذه فهو يحل محله عندك فيما تشاء من الخدمة التي تراد من الرقيق، من حيث ترحم هذا الشيخ الكبير فيما لا يضيرك ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ الذين لا يأبون إحسانا يقدرون عليه أو من المحسنين الينا في ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا، وهذا الذي نرجوه منك الآن، هو غاية الاحسان

٧٩ ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ ﴾ اي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿ الا من

وجدنا متاعنا ﴾ وهو الصواع ﴿عنده﴾ وهو بنيامين، ولم يقل الامن سرق متاعنا اتقاء للكذب فانه يعلم انه ليس بسارق ، وقول المنادي «انكم لسارقون» مبني على الظاهر له من فقد الصواع فقد قال ما اعتقد ولم يكن يعلم المكيدة كما تقدم على أنه ليس كيوسف في تحرى الحق ﴿ إنا اذاً ﴾ أي اذا أخذنا غيره ﴿ لظالمون ﴾ بمخالفة حكم شرعكم ونص فتواكم من إحدى الناحيتين ولشريعة الملك من الثانية

(٨٠) فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨١) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨٢) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٣) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٤) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

٨٠ ﴿فلما استيأسوا منه﴾ أي استحكم اليأس في أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم لاقامته الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وكون فعله حينئذ يكون ظلما بحكم الشريعتين : شريعتهم وشريعة ملك مصر ، أو استيأسوا من بنيامين ان يعود معهم الى ابيهم ، فالاستيئاس هنا اخص من اليأس الذي يقع ابتداء من غير

طلب لاسباب الرجاء التي تحول دونه فهو على اصل معنى الصيغة كما قلنا آنفا في كلمة (استخرجها) وعبروا عنه بالمبالغة في اليأس ﴿ خلصوا نجيا ﴾ انفصلوا من كل شيء كانوا فيه وانجمعوا دون يوسف واخيه وفتيانه لا يخالطهم أحد ولا شيء خالصين للمناجاة والمسارة في امرهم كأنهم نجي واحد أو كأنهم نفس المناجاة، فالنجي يطلق بمعنى المناجي كالمشير والسمير بمعنى المعاشر والسامر ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) وبمعنى المصدر أواسمه اي التناجي والنجوى فيستوى فيه الفرد والمثنى والجمع فيقال هم نجي ونجوى ومنه قوله تعالى (وإذ هم نجوى)

وهذه الجملة في منتهى البلاغة وإعجاز الايجاز، يتمثل للعربي عند سماعها أولئك الاخوة العشرة وقد أعرض كبيرهم عن استعطاف العزيز، وغادر كل واحد رحله وما كان فيه، وانكمش بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهفوا آذانهم للنجوى ﴿ قال كبيرهم ﴾ في السن والرأي ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ أي عهداً مؤكداً بالقسم بالله لتأتنه ببنيامين إلا أن يحاط بكم فلا يبقى منكم أحد وما الوقت ببعيد فينسى ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ التفريط في الشيء المبالغة في التقصير والاهمال له، وضده الافراط وهو المبالغة فوق الحاجة — أي ومن قبل هذا ماقصرتم في حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه، أو تفريطكم فيه، وما قاساه أبوكم من الحزن عليه ﴿ فلن أبرح الارض ﴾ أي فلن أفارق هذه الارض أو أرض مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ بتركها وبنيامين فيها والرجوع اليه ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ بأمر من عنده مما هو غيب في علمه كأن يترك العزيز لي أخي بإلهام منه تعالى. أو بسبب آخر، فالحكم هنا تكويني لا تكليفي وهو المعبر عنه بالقضاء والقدر ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لانه لا يحكم إلا بالحق وهو المقدر للاقدار، والمسخر للاسباب

٨١ ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق ﴾ صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالامر في مصر عملا بشريعتنا إذ اضطررنا إلى إنبائه بها بعد أن استفتانا ، والاكتفاء بكلمة «سرق» من ايجاز القرآن في السكوت عن المعروف به

بالقرينة أو غيرها من الدلائل كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون)

﴿ وما شهدنا ﴾ عليه بالسرقة بسماع او إشاعة أو تهمة : ماشهدنا ﴿ إلا بما علمنا ﴾ إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه ، أو ماشهدنا للعزيز بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شرعنا علما قطعيا جرى به العمل ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ فنعلم انه يسرق — او فنعلم كيف وقع له هذا : هل هو حق او كيد كيد له؟ ولو كنا نعلم الغيب لما آتيناك الموثق علينا

٨٢ ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ اي وأضف الى شهادتنا هذه سؤال أهل القرية التي كنا نمتار فيها ، وهي مصر ، قال الراغب القرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا ويستعمل في كل واحد منهما ، ومنه قرية النمل ، ويقال قريت الماء في الحوض وقريت الضيف قرى وقري (بالفتح وبالكسر) وقريان الماء مجتمعه

﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي أصحابها ممن كانوا يمتارون معنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في شهادتنا سواء أسألت غيرنا ام لا . انتهى ما لقنهم اياه كبيرهم

٨٣ ﴿ قال بل سولت لكم انفسكم امراً ﴾ اي فرجع الاخوة التسعة الى ابيهم فقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم على تأكيدهم للخبر وانما قال لهم ما معناه ان الامر ليس كما تقولون بل سولت لكم انفسكم امراً كيدا آخر اي هيئته وزينته لكم فنفذتموه ، فان لم تكونوا تريدون بأخيكم سوءاً فلم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به ؟ ﴿ فصبر جميل ﴾ فالذي علي والمصيبة قد وقعت صبر جميل أتجمل به بين الناس وأشكو امري الى الله دونهم وأنوط الرجاء به وحده

﴿ عسى الله ان يأتيني بهم جميعا ﴾ يعني اولاده الثلاث : يوسف وبنيامين وكبيرهم الذي بقي مرابطا في مصر ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ الذي يحيط علما بحالي وحالهم وله فينا حكمة بالغة هي ولا بد بالغة أجلها ، وهذا يلاقي قوله ليوسف إذ قص عليه رؤياه (وكذلك يجتبيك ربك) الى قوله (ان ربك عليم حكيم) فتأمل وتدبر ، وتذكر واعتبر

٨٤ ﴿ وتولى عنهم ﴾ أي أعرض عن اولاده قطعا للكلام معهم كراهة له ﴿ وقال يا أسفا على يوسف ﴾ أي ياحزني ويا حسرتي عليه، اقبلي فقد حقت كلمتك علي، قال الزمخشري الاسف أشد الحزن والحسرة ، وقال الراغب : الاسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وذكر أن ابن عباس (رض) سئل عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنا وجزعا اه مختصرا ومن استعماله في الغضب قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقال الزجاج: الاصل (يا أسفي) فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة . والاسف شدة الجزع وقيل شدة الحزن ومناداة الاسف تعبير عن الشعور بأن الوقت وقته فهو قد وقع بحق فان الطبيعة مقتضية له فلا مناص منه لما تجدد من سبب اهتياجه اذ كان ينتظر ان يأتوه من مصر ببشرى لقاء يوسف كما علم مما قلناه في تفسير الحاجة التي كانت مطوية في سويداء قلبه اذ نصح لهم بالدخول من ابواب متفرقة ، فخاب امله وحل محله ذهاب ابنه المسلي عنه ، ولم يشركه معه بالاسف عليه لان مكان حب يوسف والرجاء فيه، قد ملأ سويداء القلب ومحانيه ، وانما محل غيره وراء شغافه وجداره الخارجي

﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ اي عميتا أو اصابتهما غشاوة بيضاء ذهبت ببصرهما موقتا مع بقاء عصبهما المدرك للمبصرات صحيحا ﴿ فهو كظيم ﴾ أي مملوء غيظا على أولاده قد كتمه في نفسه وفسروه بالمغموم وبالميكروب وبالكمد والمكمود ، وقال قتاده : كظم على الحزن فلم يقل الا خيرا ، وفي لفظ يرد حزنه في جوفه ولم يتكلم بسوء . وهو من كظم السقاء إذا شده بعد ملئه ، و كظم البعير إذا ترك الاجترار ، والكظم مخرج النفس ويقال لمن يكتم مافي نفسه ككتم نفسه كظيم ومكظوم ، والحزن عرض من أعراض النفس الطبيعية لا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه الجزع أن يقول أو يفعل ما لا يرضي الله تعالى كما قال سيد الصابرين ﷺ عند موت ولده ابراهيم وقد جعلت عيناه تذرفان فقال له بن عوف : وأنت يا رسول الله ! فقال « يا ابن عوف انها رحمة » ثم أتبعها باخرى « فقال ان

العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول الا ما يرضي ربنا ، وانا بفراقك يا ابراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما

ولكن الأنفس العالية لا يبلغ منها الحزن غايته إلا اذا كان المحرك له أمر إلهي يليق بها كما يعلم من الآية الآتية في جواب يعقوب لأولاده على عذلهم له

وفي التفسير المأثور عن النبي ﷺ قال « إن داود عليه السلام قال يارب ان بني اسرائيل يسألونك بابراهيم وإسحاق ويعقوب فاجعلني لهم رابعاً . فأوحى الله اليه أن ياداود إن ابراهيم ألقي في النار بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وان اسحاق بذل مهجة دمه بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وان يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن وتلك بلية لم تنلك » وهذا حديث مرسل أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن الحسن عن الاحنف بن قيس ، وعلي بن زيد بن جدعان هذا ضعيف له مناكير ضعفه الامام أحمد كما روى ذلك عنه أولاده : حنبل وعبد الله وصالح وغيرهم وقال الجوزجاني : واهي الحديث ضعيف وفيه ميل عن القصد . قالوا وكان رافضيا وقد اختلط في آخر عمره وقالوا انه كان يقلب الاحاديث ورفاعا أي يرفع إلى النبي ﷺ ما ليس بمرفوع . وقال الحافظ ابن كثير في هذا الحديث : وهذا مرسل وفيه نكارة فان الصحيح أن اسماعيل هو الذبيح ولكن علي بن زيد ابن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة والله أعلم . وأقرب ما في هذا ان الاحنف ابن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني اسرائيل ككعب الاحبار ووهب ونحوهما والله أعلم فان بني اسرائيل ينقلون ان يعقوب كتب الى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه : إنا أهل بيت مصابون بالبلاء فابراهيم ابتلي بالنار واسحاق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لا يصح والله أعلم اهـ

---

(٨٥) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٦) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٧) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا

مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَـٰفِرُونَ

٨٥ ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتلهج به لا تفتر ولا تنسى همه ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ أي مشفيا على التلف ومشرفا على الهلاك من شدة الحزن والجزع ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ بالفعل فتموت كمدا

الاصل في فعل فتىء أن يستعمل منفيا كأخواته: « مازال وما برح وما انفك » فيقال ما فتىء ولا تفتؤ فحذف (لا) مع القسم لانه لا يلتبس بالاثبات لان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات كان على النفي . ومن الشواهد عليه قول أمرىء القيس

فقلت يمينَ الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

والحرض مصدر حرض (كتعب) إذا أشرف على الهلاك من مرض أو حزن أو خوف فهو حرض بالتحريك يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا لأنه مصدر وقال الراغب : الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك. وفي الأساس : نهك فلان مرضا ، حتى أصبح حرضا ، وهو المشفي على الهلاك ولا تأكل كذا فانه يمرضك ويحرضك اه

٨٦ ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ أصل البث تفريق المجتمع وإثارة الكامن ، وبث النفس إظهار ما انطوت عليه من الغم أو السر ، أي لم تلوموني وأنا لم أشك اليكم ولا الى أحد من الخلق كمدي الذي ضاق صدري عن حبسه فبثثته ، وحزني الذي أمضني كتمانه فأفشيته بهذه الكلمة (يا أسفي على يوسف)؟ إنما أشكو ذلك إلى الله وحده ﴿ وأعلم من الله ﴾ في ابتلائي بفراق يوسف وخفاء حاله علي ﴿ ما لا تعلمون ﴾ أعلم منه انه حي يرزق وان الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب وذريته به في الدنيا والآخرة ، وأرى البلاء يتناوشكم من كل جانب

جذنو بكم وبتفريطكم بيوسف من قبل، وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعد ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاستُرِقّ ، وتحسبون أني يحزنني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاه فلا مردّ له ، وأنا أعلم ان له أجلا فيه هو بالغه، كلا، هذا مايدل عليه حال يعقوب (ع . م) ثم راجعت الدر المنثور فرأيت في تفسير الآية روايات وعظية لا يصح منها شيء ولا يليق بنبي الله مبنية على عدم التفرقة بين الشكوى من الله والشكوى الى الله التي هي مناجاة واسترحام ، ومن أكذبها ماعزاه وهب بن منبه الى التوراة وانما الفهم الصحيح منها ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (رض) في تفسير (واعلم من الله ما لاتعلمون) يقول اعلم ان رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له

٨٧ ﴿ يابنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ أي اذهبوا إلى مصر فتكلفوا أن تدركوا بحواسكم من سمع وبصر شيئا من حال يوسف وأخيه حتى تكونوا على يقين من أمرهما ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ أي فرجه وتنفيسه عن النفس لهذا الكرب، وترويحه بما ترتاح له الروح ويطمئن به القلب ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ بقدرته وسعة رحمته الذين لا يتجاوز علمهم بشئون أنفسهم وأحداث زمانهم دائرة ظنونهم واختبارهم الناقص الى ما لله عز وجل في عباده من حكم بالغة ولطف خفي ، فاذا تقطعت بهم الاسباب دون ما يبغونه من كشف ضر أو جلب خير بخعوا أنفسهم أسفا، وانتحروا بأيديهم همًا وحزنا ، فأنفع ما يمتاز به المؤمن على الكافر أن المصائب والشدائد لا تقنطه من رحمة ربه وتفريجه لكربه ، وان عظم عليه المصاب وتقطعت به الاسباب

ثم اعلم أن الروح (بالفتح) ماترتاح له الروح (بالضم) وهما من مادة الريح، كما إن مرادفها وهو النفس (بالفتح) من مادة النفس (بالتحريك) وهو نسيم

الهواء الذي يتنفسه الإنسان فيطهر دمه ويحفظ حياة نفسه الحيوانية، وما سميت اللطيفة الربانية المدركة العاقلة نفسا وروحا - وهي من عالم الغيب - إلا لأن نسيم الهواء أقرب ما في عالم الشهادة إليها في لطافتها وما في معناها من معنى الحياة. قال الشاعر :

* وحل من نفسي محل النفس *

فروح الله لطفه الذي هو واسطة بين الحياتين الروحية والحيوانية بما فيه من تنفيس كرب النفس، ويسمى الفرج بعد الضيق نفسا (بالتحريك) ومنه حديث « إني لأجد نفس الرحمن من ههنا » وأشار إلى اليمن وله تتمة رواه الطبراني عن سلمة بن نفيل، وحديث « لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تعالى » الخ رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والنسائي والحاكم عن أبيّ

---

(٨٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٩) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ (٩٠) قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩١) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ (٩٢) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ (٩٣) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

﴿ الفصل الرابع في الفرج القريب، وعطف الحبيب على الحبيب ﴾

٨٨ ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ أي أصابنا ضر المجاعة من هزال وضعف ، شكوا هذه المرة مالم يشكوا من قبل ليروا تأثير الشكوى فيه ، وغرضهم الاول التحسس لا الامتيار ، شعروا أن أيامهم يرجح أنه هو يوسف فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ رديئة من شأنها أن يدفعها التجار ويردوها احتقاراً لها ، إذ لم يبق عندنا غيرها ، من أزجى الشيء وزجاه إذا دفعه برفق ، ومنه (ألم تر أن الله يزجي سحابا) وفي المصباح : وبضاعة مزجاة تدفع بها الايام لقلتها ، وأزجيت الامر أخرته ، وذكر بعض رواة المأثور نوع هذه البضاعة ولا مستند له ، وهذه العودة بين مصر وفلسطين لم تذكر في سفر التكوين ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ كعادتك الحميدة ومقتضى إحسانك ﴿ وتصدق علينا ﴾ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد اغماضك عن رداءتها ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾ بأخلاف ما ينفقونه والمضاعفة لهم بما هو خير منه، بالغوا في التذلل والاستماحة وإظهار الذل والحاجة لما ذكرنا آنفا من تحسس تأثير ذلك في معارف وجهه ، وجرس صوته ، ومغالبة دمعه ، واستشكل المفسرون طلب الصدقة وهي لا تحل للانبياء قياساً على خاتمهم عليه وعليهم السلام ، والقياس مع الفارق ، والجماعة لم يكونوا أنبياء، وما فعلوه معه كاف في الدلالة على بعدهم عن النبوة واختصاصه بها دونهم كما تقدم، ولقد كان تحسسهم في موضعه ، فماذا قال يوسف؟

٨٩ ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ أي هل علمتم الآن ما آن لكم أن تعلموه بالتجارب في هذه السن من عاقبة ما فعلتم بيوسف من قبل وأخيه بنيامين من بعد ، وقد قرب العهد ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ قبح فعلكم ، في نظر ربكم ، وحكم شرعكم ، وحقوق بر الوالد ، ورحمة الرحم ، أي في الحال التي كان يغلب عليكم الجهل بهذه الحقوق ، وبعاقبة البغي والعقوق ، ويجوز أن يكون مراده بالجهل ما يقابل العقل والحلم ، لا ما يضاد العلم ، وهو الطيش والنزق واتباع الهوى

وطاعة الحسد والاثرة ، والمختار عندي الجمع بين المعنيين فكلاهما كان واقعا

قال يوسف هذا تمهيداً لتعريفهم بنفسه إذ آن أن يصارحهم بها ، وقد بلغت الاقدار من تربيتها له ولهم غايتها، ولم يبق بعد هذا التمهيد إلا التصريح، وتأويل رؤياه التي كانت السبب الاول لكل هاتيك الافاعيل ، وقد كان هذا التمهيد عجبا في بلاغته ، وما يدل عليه من شعور يوسف الصديق النبي (ع.م) وخلقه ودينه وأدبه ، إذ فصل بهذا السؤال الوجيز الساذج في قضية يحار في الفصل فيها أوسع القضاة عدلا ورحمة ، ويعيا بالتعبير المرضي عنها أبلغ الادباء علما وحكمة ، وهي مقابلة طرفين تعمد أحدهما اقتراف جناية على الآخر طال عليهما المدى عشرات السنين ، وكانت غايتها أن يقف الجاني بين يدي المجني عليه وهو يجهله موقف البائس الفقير ، المستجدي الحقير ، على ما نشأ عليه من عزة النفس ، وشرف الحسب والنسب ، واقتضت الحال أن يتعارفا وهما اخوان ، وأن يتناسيا ما كان ، فكيف يتقابلان ؟

المقام مقام خجل من الجاني وخسوف وكسوف، واسوداد وجوه، وتنكيس أبصار، واعتذار واستغفار ، يذيب الفؤاد ويخرس اللسان ، يقابله حلم وعفو وكرم من المجني عليه ، ربما كان الاعتزاز بها على الجاني لأول وهلة أقتل لعزة نفسه وإبائه من العتاب ومما هو أشد منه وهو التأنيب والتثريب، فكيف كان المخرج ليوسف عليه السلام ، من هذا المأزق الذي تحار فيه الافهام ، ويضطرب فيه الوجدان ، بما يكون خير أسوة لصلة الارحام ، ومحو الاساءة بالاحسان ؟

ذكر اخوته بذنوبهم قبل أن يتعرف اليهم ، تذكيراً مجملا مقرونا بذكر العذر الطبيعي دون الشرعي ، وهو الجهل بقبح الذنب في نفسه وبسوء عاقبته، وبالجهالة التي تزينه لفاعله، وتمكن لنزغ الشيطان من نفسه الامارة بالسوء ، بل بهما جميعا . ذكرهم هذا بسؤالهم سؤال العارف باستفهام التقرير، لا التقريع والتوبيخ كما قيل ، فانه يرده ما يأتي من نفي التثريب ، واستغفار العفو والصفح ، وأما سهم أخيه من فعلتهم فهي ما اقتضاه إشراكهم إياه في حسدهم له من أول نشأته الدال عليه قولهم أولاً (ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) وقول أبيهم آخراً (هل آمنكم

عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟) واتهامه اياهم بأنهم ما أفتوا عزيز مصر باسترقاقه بالسرقة إلا بما أضمروه له من حقد، وما سولته لهم أنفسهم من أمر، ولا يخفى على ذكي ولا بليد، كيف يعيش الفرد المحسود الضعيف، مع جماعة تحسده وتكيد له

هذا ما أفهمه من عرض القضية على ما نعلم من طباع البشر وسنة الله في الاجتماع ويقرب منه من إحدى النواحي ويبعد عنه من سائرها ما قاله الزمخشري وقد افترصه لترجيح قول جماعته (المعتزلة) على خصومهم (الاشعرية) في مسألة التقبيح والتحسين، وإنا نورده لبلاغة عبارته واتباع غيره له فيه ثم نشير إلى ما فيه وهو:

(قال هل علمتم) أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟) لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه، يعني هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه؟ لان علم القبح يدعو إلى الاستقباح والاستقباح يجر الى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبا، إيثاراً لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الانبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها، وقيل لم يرد نفي العلم عنهم لانهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم جاهلين، وقيل معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة، روي أنهم لما قالوا (مسنا وأهلنا الضر) وتضرعوا اليه ارفضت عيناه ثم قال هذا القول. وقيل أدوا اليه كتاب يعقوب:

«من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله إلى عزيز مصر. أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاما، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به

فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا، فان رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام» فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب : اصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا اه قول الزمخشري وأقره ابن المنير وغيره عليه ، بل اتبعوه فيه

أقول : أما ماقاله في تفسير سؤالهم عن العلم بأنه نفي علمهم بقبحه وعلله بأنهم لو علموه لما فعلوه فهو تكلف مخالف لطباع البشر فانهم يفعلون القبيح وهم يعلمون قبحه طاعة للحسد والاثرة ، وترجيحا للهوى على الهدى الخ ، وأما الرواية التي ذكرها في كتاب يعقوب (ع.م) الى عزيز مصر فهي من الاسرائيليات الباطلة، وأسلوبه اسلامي مصنوع ، ومن أغراض كعب الاحبار ووهب بن منبه فيه المروي عنه اقناع المسلمين بأن الذبيح إسحاق لا اسماعيل كما تقدم في تفسير الآية ٨٦ خلافا للمتواتر عند العرب الذي أقره الاسلام وجعلت الاضاحي وهي سنته في فداء ولده اسماعيل من مناسك الحج حيث فداه الله في منى من ضواحي مكة وطن اسماعيل فبث زنادقة اليهود في التفسير المأثور أن الذبيح اسحاق، وقد صار هذا مذهبا يؤخذ بالتقليد ويحرف لاجله تفسير القرآن ، فان القصة في سورة الصافات صريحة في أن الذبيح هو ولد ابراهيم الاول (اسماعيل) وأن الله قد بشره على احسانه فيها بولده الثاني (اسحاق) إذ قال في آخرها ٣٧: ١٠٦ إن هذا لهو البلاء المبين ١٠٧ وفديناه بذبح عظيم ـ الى قوله ـ ١١٢ وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين)

---

٩٠ ﴿ قالوا أءنك لأنت يوسف ﴾ قرأه ابن كثير (إنك) بهمزة واحدة والجمهور بهمزتين ، كان سؤاله اياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه سؤال عارف بأمرهم معهما من أوله البعيد جداً الى آخره القريب جداً ، مصداقا لما أوحاه الله اليه حين ألقوه في غيابة الجب (وأوحينا اليه لتنبأنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) ودليلا راجحا على أنه هو يوسف إذ يبعد أن يعرف غيره هذا، وأرادوا أن يتثبتوا منه بالعلم اليقين الذي يذهب بكل احتمال لما يعترضه من الشبهة بوجوده في هذا المنصب

السامي فوجهوا اليه الاستفهام بجملة اسمية مؤكدة بان في اسمها وباللام في خبرها وبضمير الفصل بينهما ، يعنون أمن المؤكد القطعي الذي لاريب فيه انك أنت يوسف ؟ ولولا هذا لكان يكفيهم أن يقولوا : أأنت يوسف ؟

ومن العجيب أن يتكلف المفسرون سببا لهذا السؤال ينتحلونه أو ينقلونه عمن يتقولون مثله من رواة الاسرائيليات كقول بعضهم إنه تبسم فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم ، وما كان هذا المقام معهم بمقام تبسم ، وكان أولى منه بالتبسم يوم ضيافتهم ، ومجلس مؤاكلتهم ، وقول آخر إنه رفع التاج عن رأسه فنظروا الى علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء !! ونقول : من ذا الذي رأى هذا القرن فرواه باسناده المتصل في هذه القرون الطويلة ؟ ولم يسلم من التكلفة أو السخافة من قارب الصواب منهم فقال إنهم عرفوه بالخطاب الذي لا يصدر إلا عن حنيف مسلم من سنخ ابراهيم ، نعم إنهم عرفوه بخطابه معرفة ظنية راجحة كما قلنا ، ولكنه خطاب لا يدل على الاسلام ولا على نسب ابراهيم ﷺ بل خطاب عارف بما وقع، وكونه مسلما من سنخ ابراهيم ليس من مدلول خطابه بنص ولا فحوى وإن كان هو الواقع بالفعل ، فلله العجب من افتتان جماهير الناس بهذه الروايات وتقليد بعض المفسرين فيها لبعض ، من غير تأمل ولا بحث ، كأنها من كلام الله الذي يجب تلقيه بالقبول والتسليم

﴿ قال أنا يوسف ﴾ صرح باسمه العلم لانه نص قطعي الدلالة مطابق للسؤال

﴿ وهذا أخي ﴾ الذي فرقتم بيني وبينه ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ فجمع بيننا على أحسن حال في ديننا ودنيانا ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ أي ان الامر الواقع والحق الثابت باستقراء التجارب هو ما تنطق به هذه القضية : من يتق الله فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما جرت به سنته في الاجتماع البشري ، ويصبر على ما أصابه من المصائب والمحن وفتن الشهوات والاهواء حتى يبلغ الكتاب أجله فيها فلا يستعجل الاقدار بشيء منها قبل أوانه ﴿ فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ بل يوفيهم أجورهم في الدنيا ثم في الآخرة ، علق الجزاء على الاحسان في الاعمال فوضع الظاهر موضع

الضمير ، فلم يقل لا يضيع أجرهم لأنه تعليق على الوصف الجامع الذي هو علته ، وبيان للقاعدة العامة في السنة الالهية فيه ، وتواضع في وضع التعريض بنفسه في موضع التصريح بأنه كان عليه السلام كذلك في تقوى الله العامة ، وفي الصبر على الشدائد المرهقة، وعن الشهوات الفاتنة، ولا غرو فقد شهد له ربه بأنه من المحسنين، وفي الآية تذكير بأن من لم يكن من المتقين الصابرين ، بأن كان من المطيعين للنفس الامارة بالسوء ، والمتبعين لنزغات الشيطان، فان عاقبتهم الذل والخزي في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وأشد وأبقى ، إلا من تاب وعمل صالحا ثم اهتدى

٩١ ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أي اختارك وفضلك علينا في كل شيء من خلق وخلق وعلم وعمل وجزاء واحسان . يدل على هذا العموم السكوت عن متعلق الايثار والعلم بأنه الحق الواقع بالفعل ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي والحال ان شأننا معك هو أنا كنا مذنبين متعمدين للخطيئة لاعذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس . أصل الايثار التفضيل بالآثار، وهي ما يؤثر ويروى من الفضل أو ما يظهر أثره أو يبقى ، والخاطيء فاعل الخطء (بالكسر) وهو الذنب. قال في المصباح: والخطأ مهموز بفتحتين ويقصر ويمد وهو اسم من أخطأ فهو مخطىء ، قال أبو عبيد خطيء خطأ من باب علم وأخطأ بمعنى واحد لمن يذنب على غير عمد ، وقال غيره خطيء في الدين وأخطأ في كل شيء عامداً كان أو غير عامد ، وقيل خطيء إذا تعمد ما نهى الله عنه فهو خاطيء ، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار الى غيره ، فان أراد غير الصواب وفعله ، قيل قصده أو تعمده ، والخطء الذنب تسمية بالمصدر ، وخطأته بالتثقيل قلت له أخطأت أو جعلته مخطئا ، وأخطأه الحق إذا بعد عنه ، وأخطأه السهم تجاوزه ولم يصبه ، وتخفيف الرباعي جائز اه

٩٢ ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي لا محل لأي شيء من اللوم والتعنيف عليكم في هذا اليوم الذي هو مظنته فانني أعده يوم عفو وسماح وعيد، ودخول في عصر جديد، قال في المصباح: ثرب عليه من باب ضرب عتب ولام، وثرب (بالتشديد) مبالغة وتكثير. ونقل بعض المفسرين عن ثعلب : ثرب فلان على فلان اذا عدد عليه ذنوبه .

قال ابن الانباري قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب ، وقال تبع :

فعفوت عنهم عفو غير مثرب وتركتهم لعقاب يوم سرمد

ولكن يوسف عليه السلام عفا عنهم عفو غير مثرب وتركهم لمغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته فقال بعد نفي جنس التثريب ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ دعا لهم بان يغفر الله لهم خطاياهم معه إذ غفر هو لهم والله أولى وأحق بالمغفرة وهو أرحم الراحمين من الاقربين وغيرهم، والاصل في الدعاء أن يكون بفعل المستقبل وإنما يذكر بالفعل الماضي للتفاؤل، ويحتمل أن يتعلق الظرف (اليوم) بالدعاء على سبيل البشارة، وقد تمثل النبي (ص) بالآية يوم الفتح فروي عنه أنه طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال «ماذا تقولون أو ماذا تظنون؟» قالوا نقول خيرا ونظن خيرا : ابن اخ وابن عم كريم ، وفي رواية حليم رحيم ، فقال «أقول كما قال أخي يوسف (لا تثريب عليكم) الآية ، فخرجوا كأنما نشروا من القبور . أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة وأبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقد كانت أخلاقه ﷺ أكرم وأحلم وأسمح وأسجح فان قومه أخرجوه (نفوه) وقاتلوه لأجل دينه وعذبوا ضعفاء أتباعه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وكان له بحسب نظام الحرب المتبع عندهم وعند غيرهم أن يقتلهم تقتيلا أو يتخذهم عبيدا

٩٣ ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ وأشار الى قميص كان على بدنه أو بيده ﴿ فألقوه على وجه أبي ﴾ عند وصولكم اليه بلا تأخير ﴿ يأت بصيراً ﴾ أي يصر بصيراً في الحال أو يعود ويرتد بصيراً . هذا ما يدل عليه عطف هذه الجملة الشرطية بالفاء وسأتكلم على ما قيل في القميص وسبب تأثيره ﴿ وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ من الرجال والنساء والذراري لاجل الاقامة عندي في جواري آمنين

(٩٤) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٥) قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ (٩٦) فَلَمَّا

أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٧) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٨) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

---

٩٤ ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي انفصلت عير بني يعقوب من عريش مصر أو حدودها قافلة الى أرض الشام ، يقال فصل من البلد وانفصل منه ﴿ قال أبوهم ﴾ لمن حضره وكان عنده من أحفاده وغيرهم ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ في نفحة طيبة هبت علي من روحه أو أشم رائحة ذاته كما عرفتها في صغره ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أي لولا تفنيدكم إياي أي نسبتي إلى الفند وهو بالتحريك فساد الرأي ، وضعف العقل والخرف من سوء الكبر ، لصدقتموني في انني أجد رائحته حقيقة غير متوهم وانه حي قد قرب موعد لقائه والتمتع بقربه ورؤيته، عن ابن عباس قال : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف قال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون : تسفهون ، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ، وفي رواية من عشرة أيام وفي رواية ثمانين فرسخا، والمراد من مسافة بعيدة جداً اختلفت الاقوال فيها لتعذر العلم بتحديدها، وصاحب الوجدان لا يبالي ما يقال فيه إلا مراعاة لحرمان العاذل من الشعور بمثله ، وعلمه بانه لو شعر لعذر وما عذل ، قال جرير بن عطية:

يا عاذلي دعا الملام وأقصرا طال الهوى واطلتما التفنيدا

---

٩٥ ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي قال حاضروا مجلسه تالله إنك لفي خطئك الذي طال أمده في اعتقادك أن يوسف حي يرجى لقاؤه وقد قرب ، أو في الافراط في حبه والاصرار على اللهج به، وتوهمك وجدان رائحته، فالضلال يطلق على الخطأ في الطريق الحسي والمعنوي ومنه الخطأ في الرأي والاعتقاد والحب

والبغض والعمل ولا غرو فللخلي أن يقول في عذل الشجي مايشاء، فاذنه عن العذل صماء

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

سلوتي عنكم احتمال بعيد وافتضاحي بكم ضلال قديم

كل من يدعي المحبة فيكم ثم يخشى اللام فهو مليم

٩٦ ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ وهو ابنه الذي يحمل القميص من يوسف ، وعن ابن عباس والضحاك أنه البريد ، ويتجه أن يكون قد سبق المير اليه بريداً وبشيرا ومن المعقول ما قيل من أنه هو الذي حمل اليه قميصه الملطخ بالدم الكذب تحرى ذلك ليمحو السيئة بالحسنة ، قالوا وهو يهوذا ، وهذا الرأي يحتاج الى رواية مثله في حسنه تؤيده ، فن أين جاء به مجاهد والسدي ؟

﴿ ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما كان ، وزاد بعضهم انه عادت اليه سائر قواه ، ولا غرو فالشفاء من الامراض وتجدد قوى الارواح والابدان بتأثير السرور العظيم غير منكر عند الاطباء ولا في تجارب الناس، فما القول بتجارب الانبياء والاصفياء، وبما يزاد لهم بعناية الله من خوارق العادات ، والآيات البينات ، ورووا انه سأل البشير عن دين يوسف فيما هو فيه من زينة الملك وعظمته ؟ فقال الاسلام . قال الآن تمت النعمة!! وأقول إن مخترع هذا السؤال لقليل العلم ضعيف الذوق، فلو كان يعقوب يخاف على دين يوسف فيشك فيه لما كان وجده به ما علمنا ، وحزنه عليه ماقرأنا وسمعنا ، بل كان مؤمنا منذ قص عليه رؤياه بأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به كما أتمها على أبويه من قبل ابراهيم واسحاق ، فكيف يسأل عن دينه سؤال الشاك المرتاب، تأملوا كيف أجاب العاذلين بما كان عليه من العلم الالهي القطعي؟!

﴿ قال إني أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ فذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو انه يعلم من أمر يوسف مالا يعلمون، وان علمه هذا وحي من الله عز وجل لا من خطرات الاوهام ، ولا من أخيلة الحب والغرام، واننا في هذا المقام نبسط القول في وجدان يعقوب ريح ولده مع التصريح

بأنه يكفي احدنا الايمان بظاهره من غير بحث عن حقيقته وصفة وقوعه، ومادام مصدقا للقرآن ، فهو في حظيرة أهل الايمان

﴿ بحث في وجدان يعقوب رائحة يوسف والوجوه فيها ﴾

قد ثبت عند علماء الغرب في هذا العصر ان الرياح تحمل الغبار وما فيه من المواد المختلفة من أفريقية الى أوربة مثلا في مسافات أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام العليا (فلسطين) وهي تحمل رائحة ماله رائحة منها بالطبع، ولكن الغرابة في شم البشر لها من مسافة بعيدة كهذه ، وبعض الحيوان من الوحوش والحشرات أقوى وأبعد شما من الناس ؛ والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الانسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ، ومن الناس من يميز بين روائح الاسرة الواحدة بل الاخوة منهم ، ولكن مانحن فيه من خوارق العادات، وخواص عالم الغيب لاسنن المواد والاجسام، فقد قيل ان قميص يوسف هذا كان لجده ابراهيم ﷺ وان جبريل جاءه به من الجنة حين ألقي في النار فكانت عليه برداً وسلاما ، وان الرائحة التي وجدها يعقوب هي رائحة الجنة ، والمعجزات لا تنكر على أهل هذا البيت المرحوم المبارك عليهم السلام ، ولكن أفرادها لا تثبت عند الناس إلا بدليل حسي أو بوحي إلهي ، والوحي يقول حكاية عن يعقوب إنه وجد ريح يوسف لا ريح الجنة من قميصه وانما ريح قميصه بالطبع ريح بدنه

وقد ثبت عند الروحانيين أن للارواح رائحة بل روائح مختلفة متفاوتة ، فللعصاة الفاسقين روائح خبيثة تنتشر في الهواء فتدنسه على الذين يشمونها من طاهري الارواح ، كاتنتشر فيه ميكروبات أنفاس المرضى فتفسده، يعرف هذا أطباء الاجسام، ويعرف ذاك أطباء الارواح ، قال بعضهم لمريده : قم يابني نستنشق نسيم الصباح قبل أن تدنسه أنفاس العصاة ، وقد جهل هذا أبو المتاهية إذ قال :

أحسن الله بنا أن المعاصي لا تفوح

فهي تفوح ولكن لا يدرك رائحتها إلا بعض الافراد في بعض الاوقات ، وكذلك الروائح الذكية، للارواح الزكية ، انما تدرك في بعض الاحوال التي تغلب

بها الروحانية، أو توجه الارادة، وقد يشمها غيرهم بتوجههم كما تواتر عن الشيخ على العمري من معاصرينا وحكى الشيخ محيي الدين في الفتوحات أن الشيخ عبد القادر الجيلي كان يعرف الرجال - أي درجاتهم في المعرفة - بالشم، فجاءه محمد بن قائد وكان يظن ان له درجة عالية في المعرفة، فشمه عبد القادر فأنكره وقال له لا أعرفك! فعلت همة ابن قائد حتى التحق بالافراد، وكان لشيخنا الاستاذ الامام أخت روحانية فكانت تصعد الى سطح دارهم في محلة نصر وتستنشق ريح أخيها وهو في الازهر وتعرف في بعض الاحيان من رائحته أنه خرج من مصر قاصداً بلدهم فتخبر به فتصدق. أخبرني شيخنا بهذا وقلما كان يتحدث بمثله الى أحد من أصحابه لأن رأيه أنه لا ينبغي التحدث بذلك إلا لاهله أو من لا يفتتن به، فان من الناس من يكذب هذا وكل ماهو غير طبيعي معتاد من أمور الناس، ومنهم من يصدق كل مايسمعه منه وأكثره دعاوي باطلة وخرافات تستغل وتستثمر، إذ يظن مصدقوها ان أصحابها أولياء قديسون، وانهم يضرون وينفعون، فتفسد عقائدهم بجعلهم شركاء لله في التصرف في العالم بما هو مخالف للسنن العامة في الاسباب والمسببات

فأنا أكتب هذا لتعليل آية الله لهذين النبيين عليهما السلام بشيء هو من سنة الله في بعض الروحانيين، مع اتقاء الكذب عليهم وعلى الله بدعوى خاصة بعالم الغيب لم يثبت بها النقل الصحيح، اعني قولهم ان القميص من الجنة الخ

(فان قيل) عهدناك مفسرا يجمع بين نصوص الوحي وقضايا العقل وتجارب العلم، فهل تقول إذن إن الآية تثبت أن للارواح رائحة قد تشم من المسافات البعيدة كبعد أرض مصر من أرض كنعان في فلسطين وانه يجب علينا دينا أن نؤمن بهذا ؟ أم ماذا يجب علينا اعتماده في الآية

(قلت) إن نص الآية أن يعقوب عليه السلام أخبر عن نفسه أنه وجد رائحة ولده يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، وهذا أمر وجداني نفسي لا يجب على كل مؤمن أن يعرف كنهه أو سببه، وإنما علينا أن نصدقه لانه معصوم عن الكذب وقد تبين صدقه بالفعل، وفي العبارة وجوه ونظريات تختلف باختلاف الافكار والتربية والتعليم وهي أربع :

(١) إذا صور ذلك أحد المفكرين الذين تغلب عليهم الافكار المادية بأنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الاولى ، كان مصدقاله في أمر لا يعارضه العقل ولا ينقضه العلم ، وإن كان هذا الشعور من النوع الذي يسمونه بالوهم ، ولكنه يكون ميلا عن التفويض الى التأويل لحالة بشرية لا لصفة من صفات الله تعالى فتأويله لاخطر فيه

(٢) إذا قال المؤمن بالظواهر من غير تعليل لها ولا تصوير لكيفيتها انني أصدقه ولا يكلفني ديني أن أعرف كيف وجد تلك الرائحة لان هذه المدارك الوجدانية كثيرة يظهر منها في كل زمن ما يعجز العلماء الباحثون عن معرفة سببه فضلا عن كنهه — لم يكن هذا القائل بعيدا في إيمانه هذا عن العقل ولا عن العلم ، فلا خلاف بين العلماء بأن مايجهله الباحثون أضعاف مايعرفونه ، وهو أقرب الى الصواب ممن قبله لانه مفوض لا متأول أو مؤول ، على أن التأويل لصفات الله تعالى هو المخالف لهدي السلف ويليه أخبار عالم الغيب ، لا التأويل لوجدان فيما يحتمل أن يكون من شئون البشر

(٣) إذا ذهب اللغوي البياني الى أن هذه الجملة استعارة أو كناية عبر بها نبي الله عن وجدانه وشعوره بقرب لقاء ابنه المحبوب حتى كأنه حاضر يشم رائحته لم يكن بعيداً — فان بلغاء العرب يعبرون عن الشيء بلازمه ويشبهون المعاني النفسية بالمدركات الحسية وعكسه، ومنه: اننا نشم من هذا الكلام رائحة الاعتزال، وهذا كلام ليس فيه رائحة الاخلاص ، ومن أبلغ ماسمع في هذا الباب قول امرأة كعب بن الاشراف له : انني اسمع صوتا يقطر منه الدم ، أي يدل على قصد الاغتيال .

وليس هذا من تأويل المتكلمين الذي هو خروج عن الظاهر لمانع يمنع منه

(٤) إذا جنح الصوفي لقول الروحانيين إن وجدان هذه الريح كان من مدارك الروح الخاصة ، — لم يكن جانحا الى محال في نظر العقل ، ولا ناكبا عن أصل قطعي من أصول العلم ، فان الذين يثبتون ذلك من كبار العلماء والصوفية أجدر بالثقة في النقل من الذين يثبتون في هذا العصر غرائب التنويم المغناطيسي واستحضار الارواح وقراءة الافكار ومراسلتها ، فهذا وسط بين المصدق المفوض

في الخبر من غير تعليل ، وبين الذي يذهب فيه إلى ماتقدم من تأويل ،وأما من وقع له مثله من خصائص الارواح فهو عنده من عين اليقين ودونه علم اليقين ولكنه خاص بصاحبه،اذ لا يدركه الا مثله ولولا ذلك لعد من الحسيات المادية

(فان قيل) علمنا من هذا التفصيل أن المؤمن بالقرآن يجب عليه في هذه المسألة أن يعتقد أن يعقوب عليه السلام كان صادقا فيما أخبر به عن وجدانه ولا يضره ترجيح وجه من الوجوه الاربعة في فهمها ،ويظهر انك ترجح الاخير منها فما وجه هذا الترجيح ؟

(قلت) المتبادر من الآية أن فيها خصوصية تنظم هذا الوجدان في سلك خوارق العادات، والاصل في مثل ذلك أن يفوض كنهه أو كيفيته الى من وقع له من الانبياء مادام ممكنا ، إلا من اتفق له ادراك جنس هذه الكيفية وعلم أنها من السنن الروحية كابراء المسيح للاكمة والابرص باذن الله لا كمعجزة العصا واليد لموسى عليهما السلام . وإني خبرت هذا الوجدان نفسه بنفسي ، وأدركت رائحة الارواح الطيبة كأني أشمها بأنفي ،ولولا انها حالة خاصة لما قلت كأني ، وكنت فيه دقيق البحث لئلا أكون واهما أو مخدوعا ، وطالما ظننت فيما كان منه مشتركا بين جماعة أن الذي يعقد رابطة التوجه بينهم وبين الروح الذي يذكر اسم صاحبه — وهو كمستحضر الروح عند الافرنج — أنه يلقي رائحة عطرية غريبة الذكاء بينهم،حتى صرت أجد ذلك خاليا و كان يكون متقطعا ، وكنت أتردد قبل ذلك في أخبار من لا أتهمهم بالكذب فيها ، ولا أرى بسط ذلك في التفسير وقد ذكرت شيئا منه في غيره (ككتاب المنار والازهر) ولولا أن هذه المسائل الروحية قد كثر البحث عنها في هذا العهد عند علماء الغرب لما تعرضت لها فرارا من فتون أكثر أهل بلادنا بل الشرق كله بكل ماهو مخالف للسنن العامة

(فان قيل) ان الذين يعنون باستحضار الارواح لم ينقل عنهم أنهم يشمون لها رائحة

(قلت) لم يثبت عن هؤلاء احضار روح عالية قدسية وإن الراجح عندي فيما يصح عندهم أنه من تمثيل الجن لهم لا من أرواح البشر ، وأن الصوفية من

المسلمين والهنود يتمثل لهم الجنسان ، ولا يميز بينهما إلا الانبياء وعلماء القرآن والسنة من الصالحين، وأن ماوجده يعقوب كان من توجه روح يوسف له عند ماأذن له أن يتعرف اليه بالروح قبل الجسد ،وكان في وجدانه ريحه على علم من الله تعالى لا من خيال الوهم ولا من ضلال الشيطان،

(فان قيل) أليس من ثبت عنه انه يرى الارواح العالية ويشم ريحها ويسمع كلامها يكون وليا صاحب كرامات يرجى نفعه ويخشى ضره بما هو وراء الاسباب والسنن العامة ؟ أو يؤخذ كلامه في العلم والدين بالقبول والتسليم ؟

(قلت) لا لا ، إن من يقع له إدراك شيء مما ذكر إنما يقع له بسبب من الرياضة الخاصة ، وقد يقع له الخطأ فيه والوهم، وقد يكون مايجهله من جنسه أكثر مما يعلمه، دع ماليس من جنسه كالعلوم التي لا تعرف إلا بالتلقين، ثم انه لا يمكن أن يكون قادرا على نفع الناس أو ضرهم من غير طريق الاسباب العامة ، ولا يوثق بعلمه في الدين إلا إذا كان مستمداً من الكتاب والسنة ، وقد فصلنا هذا مراراً ، فمثل الذي يقف على حقيقة روحية بتأثير الرياضة الخاصة في نفسه كمثل الذي يقف على بعض الحقائق من طريق البحث الحسي والعقلي فهم فيهما سواء ، والولاية الشرعية انما تكون بمعرفة كتاب الله وسنة رسوله والتزامهما بالعمل والاخلاق ، مع الصدق والاخلاص، فتأمل هذه المسائل فانها تحل لك كثيرا من المشاكل ،وانت حر في قبولها وردها

٩٧ ﴿ قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي قال أولاده وكانوا قد وصلوا في إثر البشير أو معه وانما تقدمهم استعجالا لنعمة البشارة وماتبعها من ارتداد البصر وغيره من السرور والنشاط والعافية : ياأبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا الكثيرة التي اقترفناها من عقوقك وايذاء أخينا أو أخوينا ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ متعمدين لهذه الخطيئة عاصين لله بها ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين ، اعترفوا له بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف ،ولكن يوسف بادر الى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ،واسمع ما كان جواب أبيهم

٩٨ ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ وعدهم باستغفار ربه لهم في المستقبل

المبهم وعلله بقوله ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ فكرر اسم الرب مضافا اليه ووصفه بالمغفرة والرحمة الواسعة التي لا ينقطع منها رجاء المؤمن وان أساء وظلم، فالفرق بين جوابه وجواب يوسف من وجوه اقتضتها الحكمة

(الاول) ان حال يوسف معهم حال الحاكم القادر بل الملك القاهر مع المسيء اليه الضعيف لديه، الذي كبرت اساءته فاستحيا من طلب غفرانها بشفاعته ودعائه ، فتبرع لهم به تأمينا لهم من خوف الانتقام وكان قادرا عليه ، وتعجيلا لهم بسرور الحياة الجديدة التي جعل الله أزمة نعمها بيديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، والمثل الاعلى في حسن الاسوة ، وما يجب ان يكون عليه الاخوة ، وهو الجزاء بالاحسان على الاساءة ، فهذه أفضل تربية وأكمل عبرة من الاخ الكامل لاخيه الناقص ، ولو أخر هذا لكان تأخيره ضربا من الانتقام منهم، اذ يكونون في وجل مما سيحل بهم

(الثاني) ان حال أبيهم معهم حال المربي المرشد للمذنب الذي لا يخشى منه انتقاما ، وليس من حسن التربية ان يريهم أن ذنبهم هين لديه، وانه ليس بينهم وبين شفاعته لهم عند الله بغفرانه الا كلمة يقولونها بألسنتهم

(الثالث) أن ذنبهم لم يكن موجها اليه بالذات وانما كان موجها إلى يوسف وأخيه بالذات وأصابه هو بالعرض أو بالتبع واللزوم ، ومن العدل أن يكون استغفاره لهم بعد العلم بحالهم معهما وعفوهما عنهم ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم

(الرابع) ان هذا الذنب الكبير من الآثام التي طال عليها العهد ونشأ منها ما نشأ من الضرر لا تغفر بحسب شرع الله وسنته في تأثير الاعمال في الانفس الا بتوبة نصوح تطهر النفس من خبثها ، فلا يحسن من المرشد الحكيم أن يسارع الى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه متصلا به كأنها من اللمم، الذي يغفر بمبادرة من الندم ، فكان من حكمة هذا الاب الحكيم الرحيم أن يتمكث في الاستغفار لهم الى أجل مجهول ليعلم هو ذلك كله ، وأن يعلمهم بانه سوف يتوجه به إلى ربه الذي

رباه بفضله ورحمته ، وأعاد لفظ الرب مضافا اليه لاشعارهم أن هذه الاضافة هي محل الرجاء في الاستجابة له ان يغفر خطاياهم ، وإنما مغفرتها سترها ومحوظلمتها من قلوبهم ، بعد جعل توبتهم التي يشبه ان تكون اضطرارية توبة نصوحا

ولا ينافي هذه المعاني والحكم التي من الله علينا بفهمها وبيانها ما روي عن ابن مسعود موقوفا وابن عباس موقوفا ومرفوعا من انه اخرهم إلى السحر لان دعاء السحر مستجاب، وفي رواية عن الثاني انه اخرهم حتى تاتي ليلة الجمعة ، بل يؤيده لانه لم يتحر وقت الرجاء في الاستجابة وان تأخر على اقتضاء رحمته الوالدية التعجيل الا لأن الامر جالل يتعارض فيه الخوف والرجاء . وقد ذكر العماد ابن كثير في تفسيره وتاريخه عن ابن جرير حديث ليلة الجمعة بسنده وقال : وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه، والاشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس (رض) ولا يصح شيء مما روي في دعاء يعقوب لهم وحده ولا مع يوسف وفيما أوحى اليه من استجابته تعالى له فيهم وجعلهم في ديوان الانبياء

خاتمة قصة يوسف عليه السلام في تأويل رؤياه

وما فهمه أبوه منها

---

(٩٩) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (١٠٠) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

ههنا كلام يدل عليه السياق بالاجمال حذف إيجازاً على منهج القرآن في الاقتصار على ما فيه العبرة المرادة من الكلام ، والمعنى أن إخوة يوسف بلغوا أباهم وسائر أهلهم مكانة يوسف في مصر وأنه هو الحاكم المفوض المستقل في أمرها (ديكتاتور) من قبل ملكها ، وأنه محبوب مجمع على إجلاله فيها ، وأنه يدعوهم كلهم للاقامة معه فيها والتمتع بحضارتها، فرحلوا بقضهم وقضيضهم، وإنعامهم ودوابهم ، حتى بلغوها واستقبلوا فيها بما يليق بمقامه

٩٩ ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ﴾ ظاهر العبارة أن أمه كانت لا تزال حية ، وقال الذين أخذوا بقول اليهود إنها كانت قد ماتت : إن المراد بأبويه والده وخالته وقد كان أبوه تزوجها بعد أمه ، وهذا جائز في اللغة إن صح الخبر ونحن لا ثقة لنا بصحته فنأخذ بظاهر الآية دون غيره كما قال ابن جرير الطبري (ر ح) ومعنى إيوائهما إليه ضمهما الى نفسه، وجعله إياهما معه في قصره وهو مأواه الخاص به ﴿ وقال ادخلوا مصر ﴾ أي وقال لسائر أهله ومن معهم ادخلوا مصر قال ابن عباس معناه أقيموا فيها ، إذ كانوا قد دخلوها فكان الأمر بدخولها عبارة عن الاذن باستيطانها، وقيل إن يوسف استقبلهم في الطريق احتفاء بهم فقال لهم ذلك في مكان الاستقبال أو عند الوصول الى العاصمة ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ على أنفسكم ومواشيكم من المنع المعتاد للغرباء ، أو من الجوع والهلاك فان سني القحط لم تكن انتهت بعد ، والتعليق بمشيئته تعالى هو شأن المؤمنين ولا سيما الانبياء والصديقين، فيوسف في إسداء هذه النعمة إلى أهله يتبرأ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخره لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم

وفي سفر التكوين أن يوسف (ع . م) عرف نفسه الى اخوته عقب مجيئهم ببنيامين شقيقه، وأرسلهم لاستحضار أبيهم وأهلهم فجاؤا فأقطعهم أرض جاسان (وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدة من جوار أبو زعبل الى البحر الاحمر) وأرسل اليهم العربات لتحملهم، وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ،فلما وصلوا اليها (٤٦: ٢٩ شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقي اسرائيل أباه في جاسان فلما ظهر

له ألقى بنفسه على عنقه وبكى على عنقه طويلا ثم استأذنهم ليذهب الى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقرهم عليه لانهم رعاة وأرض جاسان خصبة ، ففعل ثم أخذ وفداً منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون ، فيظهر أن هذا اللقاء كان هو الاول لهم ، ثم إنه بعد لقاء فرعون قال لهم (ادخلوا مصر) الخ ، ثم عاد بهم الى قصره الخاص

١٠٠ ﴿ ورفع أبويه على العرش﴾ أي أصعد أبويه إلى السرير الذي كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك ، فالعرش كرسي تدبير الملك ، لا كل كرسي يجلس عليه الملك ﴿ وخروا له سجداً ﴾ أي وأهوى أبواه واخوته إلى الارض وخروا له سجدا ، وكان السجود تحية الملوك والعظماء في عصرهم حتى إن يعقوب سجد لاخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق وكان يخاف عاقبة ذلك التلاقي كما تراه في سفر التكوين . والسجود ليس عبادة بذاته وإنما جعله الدين عبادة فهو يكون عبادة بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ أي إن هذا السجود منكما ومن إخوتي الاحد عشر هو المآل الذي آلت اليه رؤياي التي رأيتها من قبل في صغري إذ (رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) ﴿ قد جعلها ربي حقا ﴾ واقعا ولم تكن حديث نفس من أضغاث الاحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الاحد عشر ، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر ، ولا غرو فهذه الاسرة هي التي أراد الله بها حفظ ذرية اسحاق بن ابراهيم لنشر دين التوحيد في العالمين فكانت خير أسر البشر ﴿وقد أحسن بي﴾ ربي : يقال أحسن به وأحسن اليه ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ الى عرش الملك ، ذكر آخر المحن والفتن (البلاء والاختبار) المتصل بغاية النعم ، ومن العجب أن يستشكل المفسرون عدم ذكر الاخراج من الجب هنا ويبحثوا له عن علة ، وكان أول البلاء وقد خرج منه الى الرق وبيعه بثمن بخس ، وما اتصل به من تلك السلسلة الطويلة في الفتنة

﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونتها ووحشيتها الى الحضر حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق والتعاون على العلوم والصناعات ، فالبدو خلاف الحضر ومعناه الاشتقاقي كل مكان يبدو كل مايعن ويعرض فيه الانظار : من بدا يبدو إذا ظهر ظهوراً بيناً ، يقال بدي الى البادية بداوة (بالفتح والكسر) أي خرج فهو باد . ومنه (يودون لو أنهم بادون في الاعراب) وفيه تفضيل الحضارة على البداوة ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ أي أفسد ما بيننا من عاطفة الاخوة وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القربى باغراء الحسد وتهييج الشر : هذا ما يدل عليه نزغ الشيطان فان أصل النزغ نخس الرائض الفرس ونحوه بالمهماز لازعاجه للجري ، يقال نزغه ونخسه ونسغه ، والعامة تقول نغزه : بقلب نزغه بمعنى طعنه بما يهيجه ويزعجه . قال في الاساس : ومن المجاز نزغه الشيطان كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي ، ونزغ بين الناس أفسد بينهم بالحث على الشر اه ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وآدب وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة: جعل ذلك النزغ المزعج إلى أجزاء الشر والافساد كأنه كان مشتركا بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما ، وما كان الا من جانب واحد ، ثم قال ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي بالغ أقصى اللطف بعباده في التدبير والرفق في التسخير لتنفيذ مايشاء في خلقه من الحكمة البالغة والوصول الى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة ، بحيث لا يشعر من لطف به عند وقوع الاسباب والوسائل بغايتها الا عند وصوله اليها ، فمن ذا الذي كان يخطر بباله أن الالقاء في الجب وما أعقبه من الرق ، وما تلا الرق من فتنة العشق ، يفضي الى السجن ، وان السجن ينتهي بالسيادة والملك ؟ ﴿ إنه هو العليم ﴾ بما لكل قدر من عمل ، وما لكل عمل من أجل ، ﴿ الحكيم ﴾ في بلوغ مشيئته في ذلك كله كمال المصلحة في جزاء الذين احسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين ، فحمد يوسف لربه على لطفه في مشيئته ، وعلمه وحكمته ، من أجل الحمد والثناء ، وناهيك بجعله مقدمة لما تلاه من الدعاء ، وهو

﴿ دعاء يوسف عليه السلام بحسن الخاتمة ﴾

(١٠١) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

تحول عليه السلام عن خطاب والده في بيان هذه العاقبة المثلى، في مقام الشكر لربه وحمده بما يناسب المقام من صفاته، الى مناجاة ربه في الاعتراف بها والشكر عليها، وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا الرافعة الى منتهى السعادة في الآخرة، لشعوره بأن ما خلقه له من الخير والنعمة قد تم كما فهمه أبوه، وكل شيء بلغ حده في هذه الحياة انتهى فقال:

﴿١٠١ رب قد آتيتني من الملك﴾ اقصى ماينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه، فجعلتني متصرفا في ملك مصر العظيم بالفعل، وإن كان لغيرى بالاسم والرسم، فكان تصرفي مرضياً له ولقومه، لم يثر علي حسد حاسد ولا بغي باغ ماذقت مرارته بمجرد تصور وقوعه على تقدير صدق الرؤيا الدالة عليه ﴿وعلمتني من تأويل الاحاديث﴾ ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت ﴿أنت وليي﴾ الذي توليت ولا تزال تتولى أموري كلها ﴿في الدنيا والآخرة﴾ لاحول لي في شيء منها ولا قوة ﴿توفني مسلماً﴾ لك اذ تتوفاني بما تم لي وصية آبائي وأجدادى، وهي المشار اليها بقوله تعالى (٢: ١٣١ ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب: يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) ﴿وألحقني بالصالحين﴾ منهم واحشرني معهم، فهذا الدعاء العظيم، بمعنى قوله تعالى في فاتحة القرآن (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم) أي من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الاسلام

فتاوى المنار

﴿ سؤالان عن الربا في دار الحرب وعن كون الاسلام دين سياسة ام لا ﴾

(س ٣ و ٤) من صاحب الامضاء في بنجر نقارا (جاوه).

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاستاذ القدير السيد محمد رشيد رضا المحترم — أطال الله عمره

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فان لمناركم الاغر مكانة في قلب كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبما كان للاسلام من مجد لعبت به الاهواء ، لا زال مناركم يرسل أشعته إلى أقصى بلاد الشرق والغرب ، ليستضيء بنوره من أضله الله وأعماه عن الحق.

وبعد فأقدم لفضيلتكم سؤالين أيها البحر الزاخر علما مسترحم الجواب عليهما على صفحات مجلتكم الغراء لتعم الفائدة والله ولي التوفيق.

(١) إن الربا انتشر في أرض جاوا في هذه الايام انتشاراً لاعهد لنا به حتى إن بعض الاساتذة الذين كانوا في مقدمة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمقاومين للربا خرجوا من المدارس وأصبحوا اليوم في مقدمة المرابين . فاذا سألناهم عن الدافع إلى هذا أجابونا بلسان واحد بأن صاحب المنار أفتى بجواز الربا على الافرنج ، وإذا رأينا أحدا يرابي على الوطنيين أجابنا بأن موظفي الحكومة لادينيين ، وأننا في دار حرب . وقد أفتى صاحب المنار بجواز الربا في دار الحرب ، فهل لما أشيع عن مناركم من صحة ؟ إذا قلتم نعم ، فستقفل الحوانيت ويقف دولاب تجارة العرب بجاوا ويتوجهون إلى الربا اعتماداً على فتواكم فما رأي فضيلتكم ؟ أرجو الجواب في أول عدد من مناركم ليحق الحق ويزهق الباطل (إن الباطل كان زهوقا)

(٢) هل الدين الاسلامي دين سياسة أم لا ؟

لان في أرض جاوا حزبين كبيرين متشاجرين أحدهما حزب المحمديين، والآخر شركة إسلام اندونسيا وهذان الحزبان مع اتفاقهما في المبادىء السلفية مازالا مختلفين في هذا الامر

فالمحمديون يقولون بأن الدين الاسلامي ليس دين سياسة ولا يمنعنا عن الاشتراك مع الحكومة والتوظف بدوائرها السياسية وغيرها وحجتهم قوله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) الى آخر الآية ومدارسهم مرتبطة بوزارة المعارف . أما حزب شركة اسلام فانهم يقولون إن الدين الاسلامي دين سياسة ولا يسمح لنا بالتوظف في دائرة الحكومة والارتباط بدوائرها السياسية وغيرها وحجتهم قوله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) الى آخر الآية

ويحتجون على حجج المحمديين بأن الله نهانا عن الذين قاتلونا في الدين، والقتال يكون بالسيف أو بالضغط والارهاق والاضطهاد ومنع نشر الاسلام وفضائله، لهذا أرجو أن تشرحوا لنا الحق في هذا الامر لعل الله يهدي الفريقين والذي مال عن الطريق السوي فيتفق الفريقان على نشر الاسلام ومبادىء السلف الصالح بدلا عن النزاع الذي لانتيجة من ورائه إلا الاضمحلال

أرجو نشر الجواب في أول عدد من ناركم والسلام عليكم

من تلميذكم المخلص

أبو بكر بن سعيد باسلامة

﴿ جواب المنار ﴾

(١) أخذ الربا من الافرنج في دار الحرب

إن ماتعنونه من إفتائي بحل أخذ الربا من الافرنج في دار الحرب ليس كما ذكرتم أونقلتم، وانما هو جواب عن سؤال ورد على المنار من مدير جريدة الوفاق (ببيتنزرغ (جاوه) ونشر في (ج ٨ مجلد ٢٧) الذي صدر في ربيع الآخر سنة

١٣٤٦ « في فتوى بعض العلماء بحل أموال أهل الحرب فيما عدا السرقة والخيانة ونحوها مما كان برضاهم وعقودهم فهو حل لنا مهما يكن أصله حتى الربا الصريح »

هذا موضوع الاستفتاء ، والستفتي فيه منكر له أشد الانكار كما هو مبين بنص كلامه في السؤال إذ جعل هذه الفتوى خطراً على التوحيد ومقتضية لتحليل جميع المحرمات . وقد بينا في جوابه أصل الشريعة في إباحة أموال الحرب باجماع المسلمين وما قيد العلماء به عمومه . ولم يخالفنا أحد في ذلك فراجعوا فتوانا في (ص ٥٧٥ من مجلد المنار ٢٧) فان بقي في أنفسكم شبهة فيه فبينوه لنا . وقد كتبنا في آخره « ان تلك الفتوى لا خطر فيها على التوحيد ولا تقتضي تحريم شيء من المحرمات . ومن لا يطمئن قلبه للعمل بها فلا يعملن بها » اه

وجملة القول إني ما أفتيت في شيء انفردت به في هذا الموضوع ، وان الذين ذكرتم انهم يستحلون أخذ الربا من المسلمين بدعوى انهم « لا دينيين » أي كفار تعطيل وإباحة ، لا يمكنهم أن يدعوا ان صاحب المنار أفتى بتكفيرهم ولا بأخذ الربا منهم ، ولا بجعله حرفة المسلمين ، وانما يتبعون أهواءهم ، على أننا سنصدر ان شاء الله تعالى في هذا العام كتابنا في مباحث الربا والمعاملات المالية العصرية التي نشرناها في مجلدات المنار بعد تلك الفتوى فانتظروا فالمسألة ليست من البداهة بحيث يحررها المرابون والتجار ، وخطر الاستدانة من الافرنج بالربا أضعاف ما تتصورون من عكسه ، بل هو الذي جعل المسلمين افقر الشعوب ،

(٢) الدين الاسلامي دين سياسة أم لا ؟

ان قول حزب المحمديين ان الاسلام ليس دين سياسة خطأ ، وان استنباطهم من هذا القول ان الاسلام لا يمنعهم من الاشتراك مع الحكومة في وظائفها وأعمالها غريب فهو مبني على أصل فاسد ، ولو لم يكن الاسلام دين سياسة لكان منعه من الاشتراك مع غير المسلمين في أعمال حكومة غير اسلامية أشد وأقوى

وأما احتجاجهم بآيات سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله ..) الخ فهو في غير محله فان موضوعها ان الاسلام لا ينهى أهله في داره عن البر والعدل في معاملة

الكفار غير المحاربين لهم في دينهم ووطنهم، وانما ينهاهم عن تولي المحاربين المنازعين لهم في دينهم ووطنهم، والمراد بتوليهم مساعدتهم على اعمالهم الحربية وكل ما فيه جعل السلطان والقوة لهم على المسلمين . فاذا كان جعل مدارسهم تابعة لمدارس الحكومة غير الاسلامية يضر الذين يتعلمون فيها بافساد عقائدهم وأخلاقهم ودينهم أو يؤيد سلطانهم عليهم ـ تكون تابعيتها لها مما نهى الله عنه من توليهم سواء سمي الاسلام سياسيا أم لا، فان الحكم منوط بنص القرآن لا بتسمية الدين سياسيا أو عدمه ، وإذا كان ذلك نافعا المسلمين بحفظ حقوقهم ويمنع أو يخفف الأذى الذي يقع عليهم فانه لا يكون محرما ، وقد يكون بمقتضي السياسة الاسلامية مستحبا أو واجبا ، فهؤلاء أحوج الى اثبات كون الاسلام دينا سياسيا فيما يعملونه ويطلبونه.

وأما قول « حزب شركة اسلام » ان دين الاسلام دين سياسي فهو لا يبيح لهم التوظف في مصالح حكومة بلادهم غير الاسلامية فأصله هو الصحيح ، وما بني عليه من الحكم ففيه نظر ظاهر فان سياسة الملة والامة ليست منصوصة في الكتاب والسنة بعبارات جلية يفهمها كل أحد أو يقدر كل أحد على استنباطها من النص — وإنما أساسها المصلحة العامة وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال ، وأقوم وسائلها التشاور بين أهل الحل والعقد من عقلاء علماء الامة بمصالحها لا علماء الاصطلاحات الفقهية وحدها ، ألم تر كيف كان سياسي الخلفاء الراشدين بل إمام سياسة الاسلام لاعظم عمر بن الخطاب يختار أمراءه من دهاة الاذكياء ، لا من عباد الفقهاء

وأظهر قواعد أئمة الفقه فيها قاعدة الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى المأخوذة من سياسة السنة وسيرة الخلفاء الراشدين وهي ان احكام العبادات تبنى على العمل بظواهر نصوص الكتاب والسنة . واحكام السياسة والمعاملات الدنيوية تبنى على جلب المصالح ودرء المفاسد دون ظواهر النصوص فان تعارضا يؤول النص لمراعاة المصلحة

وعندنا من مجربات الشعوب الاسلامية في ذلك ما وقع لمسلمي الهند مع الدولة الانكليزية فقد كان المسلمون هم حكام الهند فسلبت هذه الدولة منهم

الحكم بجهلهم ، فظنوا ان دينهم يوجب عليهم عداوتها عداوة سلبية بأن يجتنبوا مشاركتها في شيء من اعمال الحكومة الادارية والقضائية وان يجتنبوا تعلم لغتها وعلومها فكانت عاقبة ذلك أن أضاعوا ثروتهم وقوتهم فصاروا أفقر من الوثنيين والبرس (أي الفرس) وأضعف ، فهل هذا مقتضى السياسة الاسلامية التي تحفظ بها مصالح الاسلام والمسلمين ؟؟ كلا إن المسألة أكبر مما فهمه هؤلاء وأولئك فيجب درسها وتمحيصها على الجامعين بين معرفة نصوص الشرع وحكمه ومعرفة شئون العصر على الاساس الذي وضعناه لهم

﴿ الربا والزكاة والضرائب ودار الحرب ﴾

(س ٥ — ٧) من صاحب الامضاء في بيروت

لصاحب الفضيلة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا منشيء مجلة (المنار) المعظم . السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . وبعد أرجوكم أن تتفضلوا بنشر أسئلتي المحررة أدناه مع الاجابة عليها في (المنار) وتكرموا بقبول خالص الشكر ومزيد الاحترام .

(١) هل يجوز شرعا وضع مال في احد المصارف الاجنبية واخذ ربا عنه ودفعه (اي الربا) الى الحكومة عن الضرائب المتنوعة التي تفرضها وتجبر الناس على دفعها ؟

(٢) هل يجوز دفع الضرائب — كاعشار الزروع وغيرها — الى الحكومة من اموال الزكاة ؟

(٣) متى يدعى الاجنبي وامته (امة محاربة) بعرف الشرع ؟ وما هي (بلاد الحرب) ؟

احد قراء المنار
عزت المرادي

(المنار) هذه المسائل من متمات المسألة الأولى من مسائل استفتاء جاوه الذي قبله ، ونجيب عنها بالايجاز

(٥) أخذ الربح من المصارف الاجنبية

ان الربا المحرم قطعا لايحل إلا لضرورة يضطر صاحبها اليه اضطراراً كالاضطرار إلى أكل الميتة ولحم الخنزير ، فهل الربح المسئول عنه كله من الربا القطعي ؟ وهل دفع الضرائب الاجبارية من الضرورات الاضطرارية التي تبيحه ؟ المشهور أن الربح الذي تعطيه المصارف لأصحاب الاموال هو حصص من الربح العام الذي تستغله منها . وهو أنواع أقلها ما هو من الربا الذي عرفه الامام أحمد وغيره من أئمة السلف — وقد سئل عن الربا الذي لا شك فيه فقال — هو أنه كان يكون للرجل على الرجل دين مؤجل فاذا جاء الاجل ولم يكن عنده ما يقضي به زاده في المال وزاده صاحب المال في الاجل ، وهذا بعض ربح المصارف المالية وليس منه ماتأخذه ولاما تعطيه لاصحاب سهامها ولا المودعين لاموالهم فيها ، وأما كونه بعض مالها المحرم في الاسلام فمثله كثير من أموال الناس ، والعبرة في مثله بصفة أخذه لا بأصله ولا سيما في هذا العصر الذي قلما يوجد فيه كسب يلتزم فيه الشرع في بلاد الاسلام فما القول في بلاد الافرنج ومستعمراتهم ؟ فمن اعتقد مع هذا كله أنه من الربا المحرم لايجوز له أخذه لاجل أن يدفعه في الضرائب المحرمة — من باب دفع الفاسد بالفاسد — لأنه ليس ثمت ضرورة تبيح له ذلك . ومن اعتقد أنه غير ربا شرعي قطعي لم يحرم عليه ، فان التحريم هو حكم الله المقتضي للترك اقتضاء جازما ، واشترط الحنفية وجمهور السلف أن يكون بنص قطعي ، بل قال أبو يوسف انه لا يقال في شيء انه حرام إلا إذا كان بينا في كتاب الله بغير تفسير — ومن كان عنده شبهة فيه دون التحريم كان دفعه في ضرائب الظلم الاجبارية أولى من دفع الاموال التي لا شبهة فيها . وقد بينا حكم الشبهات من قبل في مباحث الربا والمعاملات المالية التي تصدر في كتاب مستقل

(٦) دفع الضرائب من أموال الزكاة

أموال الزكاة المستحقة على صاحبها لايجوز دفعها إلا للاصناف التي بينها الله تعالى في آيتها المعروفة (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الخ وزكاة الزرع كالاعشار

إذا أخذتها الحكومة تسقط عن صاحب الزرع المستحقة عليه ولكن لا يسقط عنه زكاة النقدين بدفعها الى الحكومة أداء لضرائب الظلم . وفي هذا الباب مشكلات تختلف باختلاف الحكومات إسلامية وغير إسلامية

(٧) الامة المحاربة التي تسمى بلادها دار الحرب

دار الحرب مقابلة لدار الاسلام التي تكون فيها الحكومة الاسلامية التي تقيم أحكام الاسلام، فكل أمة أجنبية لا تعقد حكومتها مع الحكومة الاسلامية معاهدة على السلام والامان وعدم الاعتداء تكون أمة محاربة وتكون دارها دار حرب لان الحرب فيها عرضة للوقوع في كل وقت إذ لا عهد يمنعها ، وللفقهاء تعريف لهما لوحظ فيهما جريان الاحكام من الجانبين

عقد العلامة ابن مفلح الفقيه الحنبلي فصلا وجيزاً لهذه المسألة في كتابه (الآداب الشرعية) قال فيه مانصه (ج١ص٢١٣): فكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار الاسلام ، وان غلب عليها أحكام الكفار فدار الكفر ولادار لغيرهما. وقال الشيخ تقي الدين وسئل عن ماردين هل هي دار حرب أو دار إسلام؟ قال هي مركبة فيها المعنيان ليست بمنزلة دار الاسلام التي يجري عليها أحكام الاسلام لكون جندها مسلمين ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار ، بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه ويعامل الخارج عن شريعة الاسلام بما يستحقه ، والاول هو الذى ذكره القاضي والاصحاب والله أعلم . اه

وقال في كشاف اصطلاحات الفنون «ودار الاسلام عندهم مايجري فيه حكم إمام المسلمين من البلاد . ودار الحرب عندهم مايجري فيه أمر رئيس الكفار (كلمة الكفار تشمل في الاصطلاح الشرعي غير المسلمين من كتابيين ووثنيين ومعطلة) من البلاد كما في الكافي ، وفي الزاهدي ان دار الاسلام ماغلب فيه المسلمون وكانوا فيه آمنين ، ودار الحرب ماخافوا فيه من الكافرين . ولاخلاف في أنه يصير دار الحرب دار إسلام باجراء بعض أحكام الاسلام فيها . وأما صيرورتها دار الحرب — نعوذ بالله — فعنده بشروط (أحدها) إجراء أحكام الكفر اشتهاراً بأن يحكم

الحاكم ولا يرجعون إلى قضاة المسلمين ، ولا يحكم بحكم من أحكام الاسلام - كما يأتي في الحرة - (وثانيها) الاتصال بدار الحرب بحيث لا تكون بينهما بلدة من بلاد الاسلام يلحقهم المدد منها (وثالثها) زوال الامان الاول أي لم يبق مسلم ولا ذمي آمنا إلا بأمان الكفار (أي غير المسلمين) ولم يبق الامان الذي كان للمسلم باسلامه وللذمي بعقد الذمة قبل استيلاء الكفرة . وعندهما لا يشترط إلا الشرط الاول اه ويعني بقوله فعنده الامام أبا حنيفة وبقوله وعندهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن رحمهم الله

ولفقهاء المذاهب أقوال أخرى في دار الاسلام ودار الحرب وأحكامهما ، والاصل فيها ان دار الاسلام ما كان أهلها من المسلمين وغيرهم آمنين بسلطان الاسلام وحكمه العدل وجارية فيهم أحكامه ، ودار الحرب ما كان امانها واحكامها بسلطان غير المسلمين وغير أحكام الاسلام سواء كانت بينهم حرب أم لا ، فيدخل في دار الحرب ما كان حكامها من المعاهدين المسلمين ، ولهذه المسألة فروع مشكلة في هذا فان بعض البلاد التي تسمى حكوماتها إسلامية لا تجري فيها الاحكام الاسلامية من حيث هي إسلامية بل لها تشريع وضعي مخالف للشرع الاسلامي يسمى باسم البلد أو القطر ويسمى رئيس حكومتها شارعا وتنفذ الاحكام باسمه بمعنى أنه هو الشارع والمنفذ لها بسلطانه واسمه ، لا بحكم الله واسمه ، ولا نخوض في بسط هذه المسائل

(س٨ - ١٠) من صاحب الامضاء بدمشق « الشام»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قال الله تعالى (فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)

حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فان الامر قد أشكل علينا في بعض المسائل ولم نعثر على شيء منها ونريد منكم أن تبينوا أحكامها بالتفصيل التام ولم نر أحداً نعتمد بعد الله تعالى إلا جنابكم وهاهي الاسئلة

١ — ما حكم استعمال الذهب في الكتب الاسلامية وغيرها (أي تذهيب الكتاب في الكعب)

٢ — ماحكم طبع الكتب للاديان الباطلة وتجليدها

٣ — هل يجوز حفر الصليب على النحاس أو على الزنك وطبعها بالذهب على ظهر الكتاب . أفتونا وانشروها في صفحات مناركم الغراء ولكم الاجر والثواب على الله تعالى ودمتم للمسلمين ذخراً

الداعي
محمد منصور نجاتي

(٨) تذهيب جلد الكتب

تزيين الكتب المجلدة بطبع أسمائها وأرقام عددها وغير ذلك من الزينة بالمادة الذهبية المعروفة عند المجلدين مباح لايدخل فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة ولا مما زيد على ذلك خاصا بالذهب كما بيناه من قبل مراراً في باب الفتاوى فلا نعيده

(٩) طبع كتب الاديان الباطلة وتجليد كتبها

نشر الاديان الباطلة والمساعدة عليه إقرار لها ومساعدة على الدعوة اليها أو معرفتها والاطمئنان بها فهو حرام على الاقل في حال إنكارها والبراءة منها، وأما الرضى بها واستحلال نشرها والمساعدة عليه فهو كفر

(١٠) حفر الصليب على النحاس أو الزنك وطبعه

الصليب شعار لدين غير الاسلام فلا ينبغي لمسلم أن يساعد أهله على إظهاره ولا أن يعارضهم فيه في دار الاسلام ولكن أهله قد يتخذونه علامة لبعض مصنوعاتهم وتجاراتهم فلايكون فيه إقرار لشيء من عقائد أهله ولا من عباداتهم ففي هذه الحالة لا يعد من يحفره في المعدن لاعلان تجاري مثلا موافقا لشيء من دين أهله ولا جانيا على دينه هو

حفلة الازهر بشيخه الاستاذ الاكبر

﴿الشيخ محمد مصطفى المراغي﴾

عزم جماعة من طبقات الامة العالية والوسطى إقامة حفلة تكريم عامة لشيخ الاسلام المراغي ابتهاجا بعودته إلى مشيخة الازهر ورياسة المعاهد الدينية بعد فترة خمس سنين كادت تقضي على ما كان فيه من دين قويم وخلق كريم وعلم نافع، وتجعله بيئة دسائس ورياء وفتن وأهواء وخرافات ونزغات مادية، فكانت كسني يوسف السبع الشداد، وكان هذا العام بعودة المراغي كذلك العام الذي أغاث الله به الناس، ذلك العام كان غوثا من القحط والجدب الذي كاد يقضي على الحياة البدنية، وجاء هذا العام غوثا من الجهل وفساد الاخلاق الذي كاد يقضي على الحياة الدينية العلمية

ولقد سعى الاستاذ لصرف الناس عن إقامة هذه الحفلة، زهداً منه في هذا الظهور والشهرة. بيد أن الازهر علماءه وطلابه لم يتسن لاستاذهم ورئيسهم صرفهم عن الانفراد باقامة حفلة باسمهم خاصة بهم ورياسته عليهم إسلاميـة من أقوى دعائمها اتباع الاجماع وكانوا على التكريم مجمعين، والعلم باجماعهم كان نطقياً لا سكوتياً لانهم محصورون، فجمعوا النفقة المقدرة للاحتفال من أنفسهم بنظام اختياري عادل، واختاروا للاحتفال أفسح مكان في مصر وهو معرض الجمعية الزراعية الذي تعرض فيه نتائج زراعة القطر وصناعاته، فراعوا النظير بعرض نتائج العقول والفنون فيه ودعوا إلى حضوره ألوفا من رجال الطبقات العليا والوسطى وفي مقدمتهم أمراء البيت المالك والوزراء العاملون والقاعدون وكبار رجال القصر والدواوين، وممثلوا الدول الاسلامية السياسيين، ووضعوا من موائد الشاي وما يتبعه عادة من أنواع الحلوى والفطائر ما يسع المئين أو الالوف: منها ما وضع للمتعارفين من جمع القلة، ومنها ما وضع للمتجانسين من جمع الكثرة، ووضع للمحتفل به ولاعضاء لجنة الاحتفال مائدة في صدر المكان مزينة بالرياحين والازهار بجانب منبر الخطابة. وبجانبه الآخر موائد الامراء والوزراء، وأمام موقف الخطابة آلة المذياع الكهربائي (الراديو) ووضع

في جو المكان أصوار أو أبواق متفرقة من مضخمات الصوت لتسمع كل من فيه مايلقى على المنبر كأنه بجانبه .

وكان وراء هذا المجلس الفسيح الخاص بالمدعوين مجلس آخر للالوف المؤلفة من مجاوري الازهر وهم مع علمائهم أصحاب الدعوة، وقد جلسوا بترتيب ونظام تام كنظام الجيش الالماني

ولما كمل الجمع أقبل الشيخ الاكبر فانتصب القاعدون وقوفا إجلالا له وتكريما، وهتفت جيوش المجاورين دعاء وترحيبا ، ثم أديرت كئوس الشاي على جميع الموائد في وقت واحد ، وتلاها الطواف بأكواب شراب الليمون والبرتقال المثلوج ، بنظام دقيق سريع ، ولما فرغ الجموع مما لذ لهم وطاب أكلا وشربا افتتحت الحفلة بتلاوة أشهر القراء لآيات من الذكر الحكيم ، ثم نهض رئيس لجنة الاحتفال صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد اللبان فألقى خطبة الافتتاح ، وتلاه الخطباء والشعراء من علماء الازهر ونابغي طلابه ، وكان أولهم أشهر علماء الازهر في الخطابة الارتجالية والكتابة العصرية : صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني ، فبدأ خطبته بما يعهد به من مراعاة مقتضى الحال ، بصوته الجهوري المعتاد ، وما لبث أن هاجته ذكرى ما سامته المشيخة الساقطة من هضم ، وما أرهقته من عسر وظلم ، وما انقلب اليه بانقلابها من عزة وكرامة في وقفته هذه على أعين عظماء الامة ، ومرأى ومسمع من رجال الدولة ، فاذا به وقد غلبه على رأيه ورويته غاشية من مراقبة الله عز وجل شغلته عن المضي في خطبته بمداراة خشوعه ، وكفكفة دموعه ، فمكث هنيهة يستنجد قلبه ، ويستلهم ربه ، فألهمه حسن المخلص بتوجيه التهنئة على هذه النعمة الى الامة لان ظفر الازهر ظفر لها ، وأن يكل أمر تكريم المراغي الى الله الذي رفع ذكره ، وأعلى قدره، ووضعه في الموضع اللائق به ، ومكنه من الاصلاح الذي خلق له ، وختم الخطبة بالدعاء لجلالة الملك وولي عهده

لا يتسع المنار لما تحيط به الصحف اليومية من وصف هذه الحفلة بالتفصيل ، ونشر ما ألقاه أعلام الازهر فيها من الخطب والقصائد ، وانما الواجب عليه أن يبدأ بنشر خطبة المحتفل به فهي أفصحها لفظا، وأبلغها معنى ، وأصحها بيانا لما ينويه من الاصلاح، على منهج المصلح الاول الاستاذ الامام قدس الله روحه ، وجعله خير خلف له ، فيما نوه به من رفع ذكره ، وتخليد حمده وشكره :

خطبة الاستاذ الاكبر
في حفلة تكريمه

حضرات السادة الاعزاء :

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة في نفوسكم ، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم، وعاطفة الحب الفياض البادية في قولهم وفعلهم ، في شعرهم ونثرهم ، ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم

ويسهل علي قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لي في صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصي الضعيف، واعتبارها كلها موجهة إلى الازهر الشريف ، الذي تجلونه جميعا وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الاسلامية في مصر وغيرها من البلاد

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الاول على غرض التكريم فقد دل بالاشارة والتبع على معان أسمى من غرض التكريم

دل على ان الازهر خرج عن عزلته التي طال أمدها، ونهض يشارك الامة في الحياة العامة وملابساتها، وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد، وهذه ظاهرة من ظواهر تغيير الاتجاه الفكري الذي نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه، وعن شعوره بأن في الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف، وطرائق

في التعليم يجب أن نحتذي ونهتدي بها . ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ في الازهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ، ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة في داره على شرط أن نكتم الامر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة ، والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة ، وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية

ومن الحق أيها السادة علينا ألا ننسى في هذه المناسبة والحديث حديث الازهر والازهريين ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدي به في حياة الازهر العامة ويهتدى به علماء الاقطار الاسلامية في فهم روح الاسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم ، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الاخلاق ، ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ ، ذلك هو الاستاذ الامام (محمد عبده) قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة ، ومن الوفاء بعد مضي هذه السنين ونحن نتحدث عن الازهر أن نجعل لذكراه المكان الاول في هذا الحفل ، فهو مشرق النور وباعث الحياة ، وعين الماء الصافية التي نلجأ اليها اذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التي نأوي الى ظلها اذا قوي لفح الهجير

الازهر كما تعلمون أيها السادة هو البيئة التي يدرس فيها الدين الاسلامي الذي أوجد أمما من العدم ، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة ، وكان له هذا الاثر الضخم في الارض ، فهو يوحي بطبعه الى شيوخه وأبنائه واجبات انسانية ، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية ، يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس

اذا هم تهاونوا في أدائها ، وانهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم الا اذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف الماضين ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة اليه مما هو متصل بالدين، أصوله وفروعه، وعرفوا بعض اللغات التي تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم ، وتمكنهم من نشر الثقافة الاسلامية في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية ، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طي مراحل السير في هدوء ونظام وجد ، وصدق نيـة ، وكمال توجه إلى الله ، وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله

وللمسلمين في الازهر آمال من الحق أن يتنبه أهله لها

أولا — تعليم الامم الاسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الاسلامي وتاريخ الاسلام ورجاله، وقد كثر تطلع هذه الامم إلى الازهر في هذه الايام وزاد قاصدوه منها أفراداً وجماعات، واشتد طلبها لعلماء الازهر يرحلون اليها لاداء أمانة الدين وهي بيانه ونشره

ثانيا — إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الاسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية، وهي مجموعة مرتبط بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات ، وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهوداً مضنية ، وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها غير صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة ، على ان بعضها متصل بالآخر كما هو الحال في دراسة الازهر، فاذا وفق الله أهل الازهر إلى التعمق في دراسة هذه المجموعة دراسة قديمة حديثة، ودراسة المعارف المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة ـ أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضا صحيحا صادقا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث ، وإذ ذاك يكونون أداة اتصال

جيدة بين الحاضر والماضي، ويطلعون العالم على مايبهر الانظار من آثار الاقدمين وأعتقد أن التعليم الازهري على النحو الذي أشرت اليه هو الذي يرجى لتحقيق الامل وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله

ثالثا — عرض الاسلام على الامم غير المسلمة عرضا صحيحا في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل عليه وزيد فيه، ومن الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعا — العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها، فان الامة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرقة ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدي إلى الحق في أكثر الاوقات ، وان بعض هـذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها، وهذه المذاهب فرقت الامة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعا في الاصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل مايقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي غير كفء لبنت الحنفي، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة ، وعذبات العمائم وطول اللحى حتى ان بعض الطوائف لا تستحيي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لانشاء مساجد خاصة

من الخير والحق أن نتدارك هذا وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير، لما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة، دراسة من شأنها أن تقوي الرابطة بين العبد وربه ، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا

باشا للحق ، مستعداً لقبوله ، عاطفا على اخوانه في الانسانيـة ، كارها للبغضاء والشحناء بين المسلمين ،

قد أتهم بأني تخيلت فخلت ، ولا أبالي بهذه التهمة في سبيل رسم الحدود ، ولفت النظر اليها ، وفضل الله واسع ، وقدرته شاملة ، وما ذلك على الله بعزيز

الآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين في الازهر، ترون أيها السادة أن العبء الملقى على عاتق الازهر ليس هين الحمل، فانه في حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون إما بالمال أو العقل، أو بالمعارف والتجارب، وكل شيء يبذل في طريق تحقيق هـذه الآمال ، هين اذا أنتجت الجهود بهـذه الثمرات الطيبة المباركة

أيها السادة :

أكرر لكم شكري وأبعث من هذا المكان وفي هذا الجمع المبارك تحية الازهر إلى العالم الاسلامي وإلى دور العلم ومعاهده . وأتشرف برفع ولاء الازهر إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرش مصر الملك فؤاد الاول وصاحب الفضل العميم في الازهر في العصر الحديث ، أدام الله عزه ومتع جلالته بالصحة التامة والتوفيق الدائم وأقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكي أمـير الصعيد ولي العهد المحبوب . والسلام عليكم ورحمة الله

﴿ خطبة الاستاذ الـكبير الشيخ عبد المجيد اللبان ﴾

رئيس لجنة الاحتفال

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات أصحاب السمو . . .

حضرات أصحاب الدولة والمعالى . .

حضرات السادة . .

أحييكم أطيب تحية . . وأشكر لكم أصدق الشكر تلبيتكم دعوتنا ، فقد برهنتم بذلك على ما للازهر من المنزلة الرفيعة في نفوسكم ، والمكانة السـامية في

قلوبكم ، وضاعفتم معنى التكريم الذي أراده الازهريون لشيخهم من إقامة هذه الحفلة الكبرى . إذ أعلنتم بهذا الاشتراك أن مقام المشيخة الاسلامية الذي يرقاه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى هو هو مقام الرياسة الدينية العظمى ، الذي يحيطه المصريون بمظاهر الاحترام والاجلال ، ويتوجه اليه المسلمون في شؤون دينهم بأسمى الامال ، كما يدل اشتراككم على أن مصر ممثلة في صفوة أولي الرأي من رجالها تعرف ما للاستاذ المراغى من أياد بيضاء على التعليم الديني ، وجهود بارزة في سبيل إصلاح المعاهد الدينية وإعلاء شأنها ، واني باسم الازهر وباسم لجنة الاحتفال التي شرفتني برياستها أرحب بكم وأحيي من قلبي تلك الرابطة الوثيقة التي تربط الازهر بهذا الوطن العزيز وبالعالم الاسلامى أجمع وأحيي هذا الشعور النبيل الذى يتجلى نحو هذا المعهد الديني الاكبر في جميع المناسبات

حضرات السادة :

أنشيء الجامع الازهر من نحو ألف عام وتاريخه في هذا الزمن الطويل يكاد يكون تاريخ الحياة العلمية والدينية والاجتماعية لمصر ولسائر بلاد العالم الاسلامى ، اذ كان هو مصدر العلوم ومقر الدراسات لهذه البلاد جميعها (١) ثم طرأت بعد ذلك طوارىء كان من أثرها هذا التحول في الحياة العامة ، وفي أساليب التعليم واتجاهاته، وزخر تيار هذه الاتجاهات الجديدة وزاحمت الازهر بما لها من قوة الشيء الجديد ، وكاد الازهر وسط هذا التطور العام ينفصل عن البيئة المصرية وتصبح تعاليمه السمحة مقصورة على رجاله ، وأوشك بفعل الزمن أن يصير وطناً مستقلا في قلب هذا الوطن ، وكادت فائدته تخفى على بعض الناس ، وشعر الازهريون أنفسهم أنهم يبتعدون عن شعب مهمتهم الكبرى إرشاده وهدايته . وينفصلون عن مجتمع عملهم في الحياة تهذيبه وتثقيفه ، وإذ ذاك لاحت

---

(١) في هذه الدعوى غلو وشطط وقد أشرنا الى الحق في موضوعه في كتاب «المنار والازهر»

بارقة أمل خلال جهود المصلحين في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ثم جاء عصر جلالة مولانا الملك المعظم فتوجهت عنايته السامية الى اصلاح الازهر والمعاهد الدينية اصلاحا شاملا ، فوضعت له الانظمة واللوائح الحالية ، وقسمت الدراسات العالية فيه الى كليات تقوم كل واحدة منها بنوع من الدراسات الاسلامية والعربية . على نمط جامعي، خشى معه بعض الناس أن يتحول الازهر عن تقاليده ومميزاته الى نظام المدارس المدنية، لكنهم مالبثوا ان شهدوا معجزة الازهر تبرز امام العيون واضحة جلية فاذا العلوم والفنون الازهرية التى استقرت في كتبنا القديمة تتحول الى دراسات عصرية منظمة محتفظة بطابع الازهر في دقة البحث. وعمق التحليل واذا أساتذة العلوم المستحدثة في النظام الجديد المنتدبون لذلك من الجامعة المصرية والمدارس العالية يلقون محاضراتهم المختلفة في كلياته بجانب شيوخه . وإذا عقول الطلاب تتسع للجديد الطريف وللقديم العتيد في ثوبه الجديد ، وبهذا أخذ الازهر يسترد زعامته الادبية والعلمية بعد أن نافسته معاهد استمدت حياتها منه

والاستاذ المراغى في تأسيس هذا النظام عظيم الفضل ولجهوده كبير الاثر في تكوينه

أيها السادة :

أترك لحضرات الخطباء والشعراء بعدي تفصيل الكلام على فضل الاستاذ الاكبر وجليل أعماله وأختم كلمتي بالتوجه الي الله تعالى بالحمد والثناء على توفيقه وجميل رعايته، وأضرع اليه جل شأنه أن يهب الاستاذ الاكبر التوفيق في عمله، ويرزقه السداد والحزم في رأيه ليحقق بالازهر وفي الازهر ماينشده العالم الاسلامى من اصلاح بفضل مايسديه جلالة الملك المفدى من رعاية ، ويخص به الازهر من عطف وعناية .

ادام الله جلالة الملك ذخراً للوطن العزيز ممتعاً بالصحة الكاملة وابقاه حاميا للعلم والدين وأقر عينه بسمو ولي عهده المحبوب أمير الصعيد آمين

باب الرسائل

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فضيلة الأستاذ الأكبر بمناسبة خطابه في حفلة التكريم

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر

لله أنت فيما ملكت من القلوب ، وما منحت من التوفيق ، وما ألقي اليك من مقاليد الامم الاسلامية وتربية ناشئتهم وكهولهم وشيوخهم ، فالله حسبك ونعم المعين

يعلم فضيلة أستاذنا الاكبر أن قلوبنا بحبه خافقة ، وعيوننا اليه شاخصة ، وأكفنا بالضراعة إلى الله بتأييده منبسطة : نطلب اليه تعالى دوام توفيقكم ، وإطالة عهدكم ، والبركة في عمركم ، حتى تجددوا للامة الاسلامية شبابها ، وتعيدوا اليها مجدها ، لكي تتبوأ في مشرق الكرامة مكانها ، وتلقي اليها الدنيا بزمامها فتعيدها سيرتها الاولى ، فقديما أشرق نور الاسلام وارتفع به صوت الداعي ، والامم من ظلمات الجهالة في تداع ، طمست البدع المعالم ، وتنافست الامم في المظالم ، فهامت في أودية الضلال (ومن يضلل الله فما له من هاد)

والآن وقد دار الفلك دورته ، لقد أرسلك الله في الناس داعيا إلى الصراط المستقيم ، هاديا من طغت عليهم أوشاب المدنيـة الحديثة الى تفهم روح الدين الصحيح تحقيقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم مامعناه « إن الله ليبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » وان الامة لتصيخ لقوالكم وتتهافت على إرشادكم فما من خطة تختطونها ، أو حكمة ترسلونها ، إلا هبطت علينا هبوط الماء على الظمآن ، والأمن والسكينة على الخائف اللهفان

سيدي الاستاذ الاكبر : إن أحب الامور إلى قلوبنا العمل على وحدة الدين

والقضاء على تلك الفروق الخيالية ، والعصبيات المذهبية ، فتلك من وساوس الشيطان للانسان ، حتى انتهى الامر بنا إلى ما أشرتم اليه فضيلتكم في خطابكم البليغ في حفلة التكريم «من أن ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي ، وما نرى من تعدد صلاة الجماعة في المسجد الواحد ، وما نسمع من الخلاف في التوسل والوسيلة ، وعذبات وطول اللحى ، حتى أن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لإنشاء مساجد خاصة»

نعم لا يستحيون لانه « لا حياء في الدين » إننا وأيم الله ياسيدي الاستاذ نرى هذا بقلوبنا ونحسه بعيوننا ويحز في نفوسنا ، وما شيء أحب الينا من جمع كلمة المسلمين والقضاء على أسباب التفرقة بينهم ، وليس وراء قوله تعالى مزدجر (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)

هذا بيت الداء ، وأنتم أنتم أخبر بالدواء ، هاهي (ذي) الامة ألقت اليكم قيادها وها أنتم (أولاء) وضعتم يدكم المباركة على سكان السفينة لتقودوها إلى شاطىء السلامة إنه لا شيء أغلى وأعز من الدين «دينك دينك إنما هو لحمك ودمك» ألا وان الدين قد ذهب ، ألا وإنه لم يبق منه إلا الصلاة كما أخبر الصادق المصدوق « آخر ما يبقى من دينكم الصلاة فمن ضيعها فقد كفر» ألا واننا قد أضعنا الصلاة ، ومن أداها فقشر ظاهر لا لب فيه ، ألا وان البدع تفسد العمل كما يفسد الخل العسل ، هذه البدع عمت المساجد وتخللت الصلاة ، وإنني لا إخال فضيلتكم إلا ذاكرين ما حدث من ابن عمر رضي الله عنه : ففي المأثور عنه انه كان سائراً بالكوفة فمر على مسجد وسمع المؤذن ينادي بالصلاة فدخل وأخذ يركع تحية المسجد ، فلما فرغ المؤذن من الاذان ورأى بعض الناس خارج المسجد وقف ببابه وقال : حضرت الصلاة يرحمكم الله ، فلم ابن عمر رضي الله عنه وخف وأخذ حذاءه وانصرف

من المسجد تاركا صلاة الجماعة، قائلا: والله لا أصلي في مسجد فيه بدعة. رحم الله ابن عمر ماذا كان يبدي ويعيد لو بعث اليوم ورأى صلاتنا؟

سيدي الاجل: ليت الامر وقف عند ابتداع البدع في المساجد والصلاة وما يسبقها ويلحقها ولم يمس جوهر الصلاة، ولم يهدم أركانها هدما، ويطمس معالمها طمسا: تقصير مخل، نقر كنقر الغراب، يسرقون من صلاتهم فهم أسوأ الناس سرقة. هذه منكرات يجب على من رآها أن يزيلها فان لم يستطع فليزل عنها

هذا ما حمل بعض المتمسكين بدينهم على الفرار بصلاتهم إلى مسجد من أرض الله يقيمون فيه الصلاة: الصلاة التي صلاها رسول الله ﷺ ثم قال «صلوا كما رأيتموني أصلي» وكقوله للرجل الذي صلى بين يديه مرات «ارجع فصل فانك لم تصل» فقال الرجل في الثالثة: والذي بعثك بالحق لاأحسن غيرها فعلمني.. فعلمه فالمسيء صلاته شر من تارك الصلاة، إذ تارك الصلاة معترف بتقصيره عالم أنه ظالم لنفسه فترجى له التوبة والانابة ويحظى بالمغفرة (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) أما المسيء صلاته والمدخل فيها البدع فانه يعتقد عن جهل انه يتقرب الى الله تعالى بصالح الاعمال وأحبها اليه، غافلا عن إساءته فيها وضلال سعيه فأنى ترجى توبته من عمل هو في نظره خير الاعمال؟ فيبقى كذلك حتى يلقى الله تعالى وقد خسر عمله (قل هل أنبؤكم بالأخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فان لم يشملهم النص فلا يعدوهم الوعيد

ان الصلاة لو أديت على وجهها المشروع كان لها السلطان الاكبر على النفوس ورقتها وهذبتها ووقتها شر الهلع والجزع، وأعدتها للقيام بجلائل الاعمال والتحلي بجميل الخصال، والمثابرة في سبيل الحقوق المشروعة على النضال، وجعلت كل مصل ينصف أخاه من نفسه، ويعمل لغده ويحاسب نفسه على أمسه: بهذا تقل

الجرائم ويغلق باب السجن ويستريح القاضي ،ويكون الدين بحق مستودع القوة التي ترهب الاشرار وتصد غارة الاشقياء ، وتجعل الناس يحافظون على حقوق بعضهم البعض ، ولا يحتاج الامر الى قانون المراقبين والمشبوهين ، إذ الكل يشعر بمراقبة العلي الكبير ، فيحافظون على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم ، وينقرض الفساد ،وتسود الطمأنينة البلاد(ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)

والمأمول من فضيلتكم أن تبينوا كتابة وبواسطة الوعاظ والمرشدين: حقيقة الصلاة وما يجب أن تكون عليه الجماعات في المساجد وأئمتها ورؤساؤها وما يجب عليهم من رعايتها وتطهيرها من مفاسد البدع ، ومن الادعية المبتدعة ، واللغو والتشويش على المصلين فيها

انك ياسيدي إن عملت ذلك —وأنت خير من يعمل— قدمت الى الله يوم الدين بخير زاد (وما أدراك مايوم الدين ثم ما أدراك مايوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله)

فالامر الآن بين يديك ولاسلطان في الدين لأحد عليك ،وما المرء يستطيع في كل حال أن يقوم بجلائل الاعمال : فأئمة المساجد ورؤساؤها هم رعاتها «وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته» (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

أحمد محمد شهاب

رئيس نقطة صفط الخمار بوليس المنيا

تفسير المنار

الجزء الثانى عشر

للسيد الامام محمد رشيد رضا رضى الله عنه

يحزنني أن أقرظ هذا الجزء ونحن في مأتم السيد رشيد رضا ، ولا نزال مأخوذين بدهشة الخبر ، وكأننا في حلم مفزع لا أمام حقيقة صادعة ، ولا أمام جرائد تفيض جداولها بالنعي والتأبين ، ولا بين معزين من مختلف الطبقات يذرفون الدمع الهتون، ويتوجعون لمصيبة المسلمين بفقد الراحل الكريم، ويتحدثون عن الفراغ الذي تركه ، وأنهم لا يجدون من يملؤه، فقد كان السيد الامام رحمه الله ملء السمع والبصر ، وكان الحجة الثبت ، والمفزع الذي تطمئن اليه النفوس الشاردة من وساوسها ، وتهدأ به القلوب الواجفة مما يحيك فيها ، فتجد برد اليقين وتشعر ببشاشة الايمان ، يحزنني ان أقدم للامة الاسلامية هذا الجزء من التفسير وأنا في هذه الحالة النفسية التي لم أرها من قبل ، على كثرة النوازل والفواجع ، ولكن كل المصائب تهون وتتضاءل أمام مصيبتنا في الراحل العزيز أحسن الله نزله ، وحشره مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وبعد : فتفسير المنار أشهر من الشمس ، وأبين من فلق الصبح ، يعلن عن نفسه بنفسه ، وقد قرظه العلماء والفضلاء في الشرق والغرب ، وأثنوا عليه بما هو أهله ، واتخذوه مرجعا لهم ، بل استغنوا به عن كل التفاسير التي تقتنى ، وهو الآن عمدة المحققين من علماء الازهر وغيرهم،

ولست الآن بصدد الكلام على مزاياه ومجموعة ما انفرد به عن كل كتب

(التفسير) فذلك له مقام آخر ، غير ان الذي أريد أن أعجل للقراء به ونحن في هذه المحنة القاسية أن أذكر لهم بعض ماامتاز به الجزء الثاني عشر ، وهو آخر الاجزاء التي أنجز طبعها السيد المبرور أحسن الله جزاءه ، ورفع في الجنة درجته فقد امتاز هذا الجزء على صغر حجمه بالنسبة لسوابقه بتحقيقات انفرد بها، كالكلام على حكمة التحدي بالسورة الواحدة وبالعشر ، وهنا يفيض السيد إفاضة يتجلى فيها روح الالهام الصحيح ، والنظر الصادق ، فترى من التحقيقات في الموضوع مالا ترى في كتاب آخر ، فاذا أنت انتقلت إلى آية الطوفان (وقيل ياأرض ابلعي ماءك ، وياسماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) أطلعك على مافي الآية من بلاغة روحية تهتز لها النفس وتلمس بصدق جانب الاعجاز في الآية الكريمة، ويبطل عجبك من تأثير القرآن في نفوس العرب ، ذلك التأثير العجيب الذي بدلهم في سرعة لم يعهد لها نظير ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ورفعهم من الحضيض الاوهد إلى الذروة فكانوا مشاعيل الهداية ، ومعلمي الامم ، وقادة الشعوب بالحق والعدل والعلم ، نعم يبطل عجبك فالقوم كانوا مرهفي الحس ، سليمي الذوق، وكانت اللغة لغتهم، وهم أعلم بمرامي الكلام ووقعه وتأثيره ، فلا عجب أن كانت هذه البلاغة العالية الاخاذة تأخذ بمجامع قلوبهم، وتأطرهم على الايمان أطراً، فاستمع اليه — أثابه الله يقول — ما أفظع هذا المنظر ! ما أشد هوله ! ما أعظم روعته ! ماء ينهمر من آفاق السماء انهماراً ، وأرض تتفجر عيونا خوارة فتفيض مدراراً ، ماء ثجاج ، يصير بحراً ذا أمواج، خفيت من تحته الارض بجبالها، وخفيت من فوقه السماء بشمسها وكواكبها وكانت عليه هذه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين ، كأن ملك الله الارضي قد انحصر فيها، فتخيل أنك ناظر اليها كما صورها لك التنزيل، تتفكر فيما يئول اليه أمر هذا الخطب الجليل ، واستمع لما بينه به الذكر الحكيم ، أوجز

عبارة وأبلغها تأثيراً ، جعلت أعظم ما في العالم كأن لم يكن شيئا مذكوراً إلى أن.
يقول: قرر علماء البلاغة الفنية ان هذه الآية أبلغ آية في الكتاب العزيز أحاطت بالبلاغة من جميع جوانبها وأرجائها اللفظية والمعنوية التي وضعت لفلسفتها الفنون الثلاثة : المعاني والبيان والبديع

وإن مثل هذا التفاضل بين الآيات الذي يقتضيه الحال والمقام لا ينافي بلوغ كل آية في موضعها وموضوعها درجة الاعجاز ، ولا يعد من التفاوت المعهود في كلام أشهر البلغاء كأبي تمام والمتنبي وكذا غيرهما من شعراء الجاهلية ومن بعدهم في الدرجات الثلاث العليا والسفلى وما بينهما، فآياته كلها في الدرجة العليا المعجزة للبشر، وإن كان لبعضها مزية على بعض كما تراه في تكرار القصة الواحدة من هذه القصص ، وقد بسطناه في تفسير آية التحدي « بعشر سور مثله مفتريات » من هذه السورة

مثال ذلك ما نراه من بلاغة هذه الآية في باب العبرة المقصودة بالذات من سياق هذه القصص كلها ، وهو فوق ما ذكروه من نكت الفنون فيها، وبيانه أن الله قد أنذر الظالمين وأوعدهم الهلاك في آيات كثيرة - ومنهم مكذبو الرسل عليهم السلام — كلها معجزة في بلاغتها ، ولكنك ترى في هذه الآية من تأثير تقبيح الظلم والوعيد عليه نوعا لا تجده في غيرها، لأن حادثة الطوفان أكبر ما حدث في الارض من مظاهر سخط الله تعالى على الظالمين ، وقد علم من أول القصة أنها عقاب للظالمين بيد أن إعادته في هذه الآية عقب تصوير حادثة الطوفان بارزة في أشد مظاهر هو لها ، وإشعار القلوب عظمة الجبار العزيز الحكيم في الفصل فيها بما تتلاقى فيه نهايتها ببدايتها والتعبير عن هذه النهاية بالدعاء على الظالمين بالبعد والطرد الذي يحتمل عدة معان مذمومة شرها الطرد من رحمة الله تعالى يمثل لك هؤلاء الظالمين من قوم نوح بصورة تمثال من الخزي واللعن والرجس لا ترى مثله في أمثالهم من أقوام الانبياء على ما تراه في التعبير عنها بالعبارات الرائعة في البلاغة.

وعلو الاسلوب ، واحداثها الرعب في القلوب الخ ثم عقد فصلا بل فصولا في نهاية القصة كان أحدها للكلام على ما في الآية من بلاغة اصطلاحية ، وإن من يقرأ العبارتين يتجلى له الفرق بين البلاغتين ، هنا يشعر بأسلوب يهز أريحيته ، ويملك عليه وجدانه ، ويأخذ النفس من أقطارها ، وهناك تشغله العبارة والاصطلاحات الفنية عن المقصود من الآية وهو التأثير والعبرة ، وبذا تعرف مبلغ أثر القرآن في نفوس العرب

وعلى الجملة لقد كتب السيد عدة كراسات في قصة نوح تصلح أن تكون رسالة وحدها ، ولا سيما الفصل الذي عقده لبيان غضب الله على عباده وعقابهم ببعض ظلمهم وفسوقهم في الدنيا دع ما ختم به سورة هود من عقد خلاصة وافية لها ، وهي سنة انفرد بها المرحوم السيد وحده دون باقي المفسرين ، فقد جرت عادته أن يعقد خلاصة لكل سورة يبين فيها مجمل ما اشتملت عليه من الاحكام والحكم والسنن الالهية في الافراد والامم بأسلوب لا يتيسر لغيره

ومن مزايا هذا التفسير تحقيق الحق في مسألة الهم من سورة يوسف في قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وهنا ترى في كتب التفسير خلطا وخبطا وحشوا من الاسرائيليات تنافي الذوق والعقل والشرع واللغة وترى السيد يجرد قلمه لدحض كل هذه الاقوال ، ويبين الحق فيها بيانا شافيا تطمئن إليه النفس كما جلى القصة للناس جلاء ظهرت فيه وجوه العبرة منها ونقاها من كل مادسته الاسرائيليات فيها ولذلك اقترح عليه الكثيرون من الافاضل طبع سورة يوسف على حدة وقد فعل — رحمه الله — وسيراها الناس قريبا إن شاء الله ، ولولا خوف الاطالة لنقلت إلى القراء نموذجا من تحقيقاته في سورة يوسف ليروا كيف يدرك المتأخر مالا يدرك المتقدم ، ولا سيما في كتاب الله الذي لا يتناهى إعجازه ، رحم الله السيد وأحسن عزاء الامة العربية والعالم الاسلامي فيه

عبد السميع البطل

نعي فقيد الاسلام والمسلمين

السيد الامام محمد رشيد رضا منشىء المنار رضى الله عنه

نَنْعَى إلى الاسلام والمسلمين ، إمام أئمة المفسرين المتقدمين منهم والمتأخرين غيرَ منازَع ، وأحذق الأئمة المحققين السابقين منهم واللاحقين غيرمدافع ، زعيم أهل السنة العالمين العاملين ، وأنفذهم بصيرة ، وأرسخهم عقيدة ، وألد خصوم البدعة وأبطشهم بها يداً وأثبتهم على قتالها قدما ، علم الهداية الخفاق ، وصوتها الرنان في الآفاق ، المتفاني في تحرير الشعوب الاسلامية لا من البدع والخرافات والاوهام والضلالات حَسْبُ ، بل منها ومن أغلال الاستعباد وقيود الاستبداد ، وأخلص المخلصين للاسلام والمسلمين ، وعمدة الداعين إلى هدي الرسول الامين محمد ﷺ السيد الامام محمد رشيد رضا رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة النعيم مستقره ومثواه آمين

اختاره الحي الباقي لجواره حوالي منتصف الساعة الثانية من مساء الخميس الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة ١٣٥٤ هـ الموافق الثاني والعشرين من أغسطس سنة ١٩٣٥ ونعاه من عرف وفاته من أهله وأصدقائه إلى من لم يعرفها منهم في القاهرة والاقاليم المصرية والاقطار الاخرى ونعوه إلى الصحف ونعاه محط الاذاعة اللاسلكية بالقاهرة في منتصف الساعة الثامنة مساء إلى من يبلغه صوته من سكان المعمور، وصدرت الصحف هنا وهناك ناعية باكية مؤبنة مؤرخة، وارتجت أنحاء القاهرة بهذا النعي وأقضت المضاجع فيها وانساب المعزون إلى دار المنار عدد ١٤ بشارع الانشا جنوبي وزارة المعارف مساء الخميس يوم الوفاة وصبيحة الجمعة التالية له حتى غصت بهم ساحة الدار والطريق الفسيحة أمامها .

وفي تمام الساعة العاشرة حمل النعش أبناء الفقيد في الهداية والعلم وساروا به وخلفه المشيعون وفيهم أقطاب العلم والأدب في البلاد حتى مسجد السيدة الشامية بشارع نوبار حيث صلى عليه المصلون جما غفيرا ثم حمل على سيارة واستقلت جمهرة من المشيعين سيارات إلى مدفن أستاذه الامام الشيخ محمد عبده في مقابر المجاورين حيث دفن بجواره ، وأبنه على قبره ثلاثة من الحاضرين وهم آخرون بالتأبين ولكن رؤي أن الزمان والمكان لا يتسعان له فطلب الكف عنه إلى وقت آخر ، واستمر الناس يفدون على داره أياما للتعزية . وقد روعي في كل مراحل هذا الخطب العظيم من ساعة الوفاة إلى نهاية التعزية السنة الشريفة النبوية . وقد نعى الفقيد بعض الاقطار الاسلامية على المآذن وصلى عليه كثير منها صلاة الغائب ولا سيما في المساجد الثلاثة مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس

ولد السيد الامام رضي الله عنه في جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ الموافق اكتوبر سنة ١٨٦٥ م في قرية تسمى القلمون على شاطىء البحر الابيض المتوسط من جبل لبنان تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال حين كان جميع أهل هذه القرية من السادة الاشراف المتواتري النسب وقد اشتهروا إلى شرف النسب بشرف الحسب وحسن السيرة ويمتاز بيته الكريم فيهم بأنه بيت علم وارشاد وتقى ورياسة ، وبأنه معقد رجاء ذوي الحاجات ، ومحط رحال العلماء والادباء والحكام والعظماء ، ولذلك نشأ السيد الامام رضي الله عنه عالي النفس، كبير الهمة ، محبا للعلم والتقوى والصلاح ، ضاربا في هذا وذاك بسهام صائبات.

تعلم في كتاب القرية قراءة القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب الاربع ثم أدخل المدرسة الرشيدية بمدينتهم طرابلس الشام وكان التدريس فيها باللغة التركية فأقام فيها سنة ثم انصرف عنها ودخل المدرسة الوطنية الاسلامية التي كان

يديرها أحد الساعين لتأسيسها أستاذه العلامة الشيخ حسين الجسر الازهري رحمه الله ، ولما لم تقبل الحكومة العثمانية أن تمدها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية ألغيت وتفرق طلابها ، فذهب بعضهم إلى مدارس بيروت المختلفة وانقطع بعضهم لطلب العلم في المدارس الدينية في طرابلس والفقيد منهم ، فخب في طلب العلوم الدينية والعربية والعقلية ووضع وتلقى على أقطابها وهم مشايخه حسين الجسر ومحمود نشابه وعبدالغني الرافعي هناك ، ولازم أستاذه الشيخ حسين الجسر دهراً طويلا حتى أتم دراسته وبرع في العلم والشعر والكتابة وكان في إبان طلبه العلم منصرفا إلى عبادة ربه داعياً إلى الاصلاح حتى علا في بلاده ذكره وضاقت به حريتها المخنوقة وميدان العلم والاصلاح فيها ، فهم بالاتصال بالسيد جمال الدين الافغاني حكيم الشرق الاول ولم يوفق فقدم مصر وفي اليوم التالي لقدومه اتصل بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده حكيم الشرق الثاني وبقي ملازما له يأخذ عنه ما كان عنده وعند أستاذه من العلم والحكمة ووجوه الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي وأصدر أول عدد من مجلة المنار في العشر الاخير من شوال سنة ١٣١٥ هـ — مارس سنة ١٨٩٧ م وأخذ ينشر فيه ماعنده وعند أستاذيه من علم وحكمة وهدى وإصلاح ويشد بذلك وبالكتابة في الصحف اليومية أزر أستاذه الامام في دعوته حتى اختاره الله لجواره وبقي هو وحده في الميدان بعد ذلك دهراً طويلا وفياً لأستاذه ولدعوته حتى اختاره الله هو الآخر لجواره رضي الله عنهم وأرضاهم بعد أن أصدر من مجلدات المنار أربعاً وثلاثين مجلدة وجزءاً من الخامسة والثلاثين وعدة كتب من إنشائه وعدة كتب من إنشاء غيره من المصلحين

توفي السيد الامام أسبغ الله عليه شآبيب الرحمة والرضوان عن نحو اثنتين وسبعين سنة هجرية أو نحو سبعين سنة ميلادية قضاها إلا قليلا منها وهي

سنوات الطفولة في دراسة العلم ونشره بالكلام وبالكتابة لاسيما العلم بالكتاب والسنة وهدايتهما وأحكامهما وأسرارهما وفي رياضة النفس على العمل بهما وعلى التحلي بالخلق الكريم الذي كان عليه جده الأعظم محمد رسول الله ﷺ وفي الدعوة إلى سبيل الله وإلى الاصلاح وفي محاربة أعداء الدين ورد الشبهات عنه حتى بلغ في كل هؤلاء الذروة والغارب وأصبح منقطع النظير لا يشق له في ميدان من ميادينها غبار ولا يدرك له فيها شأو

وإن أعجب لشيء فعجبي العظيم لآماله الكبار في إعزاز الاسلام والمسلمين التي لم يخمد لها لهب ولم يهمد لها جمر والتي شغلته العمر كله وأنهكت قواه وأقامت العالم الاسلامي وأقعدته

وكان أكبر همه رضي الله عنه مصروفا إلى رد المسلمين إلى أصل دينهم وهو الكتاب والسنة وإلى تحريرهم من رق البدع والخرافات وحمايتهم من عقارب الفتن والشبهات وسل من أجل ذلك حساميه لسانه وقلمه وكلاهما أحد من الآخر وما زال يرمي البدع والخرافات والمشكلات والشبهات حتى أصاب منها الكلى والمفاصل وكاد يجهز عليها لانحراف المسلمين بها عن الدين ولأن هذا الانحراف أصل بلائهم وذلتهم واستعبادهم . وما كان رضي الله عنه يقنع بهذا — وفي هذا وحده الكفاية — بل كان يسعى ويجاهد ويشارك في تحرير الشعوب الاسلامية من الاستبداد قولا وكتابة وعملا

ومن أجل هذا وذاك هجر وطنه الشام إلى مصر وسافر إلى الاقطار الاسلامية الشاسعة الهند والعراق وتركية أوروبا وبلاد العرب بل وإلى أوروبا نفسها لدعوة علماء الاسلام وملوكه وأمرائه وزعمائه لما يعتقد أنه الحق ولمشاركته من كان على شاكلته منهم في السعي والجهاد لاحياء الاسلام والمسلمين

ومن أجل هذا وذاك كان رضي الله عنه مغتبطا كل الاغتباط بالمملكة

العربية السعودية لانها متوجهة حكومة وشعبا للعمل بالكتاب والسنة في الشؤون الدينية والدنيوية معاً منصرفة كل الانصراف عن المنكرات والبدع والخرافات وهو ما يريد أن يوجه العالم الاسلامي كله إليه ويصرفه عنه ولأنها تقيم الدليل الحسي العملي في هذا العصر المادي الطاغي على امكان حياة الامم حكومات وشعوبا بالكتاب والسنة حياة منزلية اجتماعية سياسية سعيدة وبذلك يثبت ما يدعو اليه من أن القرآن الكريم وما يوافق روحه من السنة الصحيحة أصل لسعادة البشر في الدنيا كما أنه أصل لسعادتهم في الآخرة ، وكان لا يدخر جهدا ولا وقتا في تأييد هذه المملكة السعودية السعيدة ومحاربة خصومها بلسانه وقلمه وبمساعيه الحميدة

ومن أجل هذا وذاك كان يحب آل سعود أعزهم الله وأيدهم بروح من عنده حبا جما ويقعد للفرص التي يتمكن فيها من الاتصال بهم والافضاء اليهم بكل ما عنده من وجوه الاصلاح كل مرصد ويفترصها ولا يدع واحدة منها تفوته

ومن أجل هذا وذاك كان حريصاً كل الحرص على أن يحتفي بتكريم سمو الامير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية حين مروره بالديار المصرية عائدا من أوروبا إلى وطنه العزيز ويمضي معه أكثر أوقاته ويختلي به ليفضي إليه بما يجيش في صدره من وجوه الاصلاح

وكان الفقيد تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته مصابا في آخر أيام حياته بعلة تعرف في الطب الحديث « بضغط الدم » وكان يعلم علم اليقين أن خير وقاية تتقى بها أخطار هذه العلة اجتناب الاعمال العقلية والجسدية وكان مهدداً بفتكها به وقد جاءه نذيرها وكشر له عن نابه وألقى عليه إنذاراً مفزعاً وهو نوبة قاسية من نوباتها وحذره الطبيب شرها

وأشهد أني سألته في الاسابيع الاخيرة من حياته غير مرة عن صحته

سؤال محب مشفق يعرف هو مقاصده وأنه لا يخشى شيئا خشية فقده فكنت أفهم منه أنه يجد في جسمه كله فتوراً وضعفا وكان ذلك يقع من نفسي أسوأ وقع

وما كان يخفى على السيد الامام رضي الله عنه وهو حكيم من أرجح الحكماء عقلا وأبعدهم نظراً أنه يستهدف بالمتاعب العقلية والجسدية للخطر الاكبر وهو الموت الفجائي المقض لمضاجع الاحياء ، ولكن إيمانه الصادق الراسخ بالله سبحانه وتعالى — وما أصدق إيمانه وأرسخه — القائل وقوله الحق (قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وتعطشه الشديد الدائم إلى بذر بذور الاصلاح وتعهدها دائما بمدارسة أهل الاصلاح وولوعه الشديد بتأييد آل سعود كل هذا دفعه إلى بذل جهوده العقلية والجسدية بسخاء في الحفاوة بالامير سعود وفي مدارسته إياه شؤون الاصلاح حين مروره بالديار المصرية عائداً إلى وطنه العزيز ، ولم يستطع سمو الامير أعزه الله وأيد ملك والده بنصره المبين ولا بعض من معه أن يحملوا السيد الامام رضي الله عنه على القصد في الجهود التي بذلها على النحو الآتي :

استقبل سمو الامير على رصيف الميناء في الاسكندرية في منتصف الساعة الخامسة من مساء الاثنين الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٣٥ ساعة قدومه مصر من أوروبا ثم بات في الاسكندرية ورافق سمو الامير منها إلى بنها يوم الثلاثاء ١٣ منه وحضر فيها الحفلة التي أقامها لسمو الامير الكاتب البليغ والخطيب المصقع الاستاذ الجليل محمد توفيق دياب صاحب الجهاد ثم عاد إلى القاهرة واستقبله في محطها في أواخر الساعة الحادية عشرة من مساء الاثنين التاسع عشر من أغسطس وكان المحط ساعتئذ غاصا بالمستقبلين حتى لم يبق فيه موضع لقدم وانغمس السيد الامام في هذه الجموع المحتشدة مكرها وقد قال من رآه إنه تعب كثيراً وما كادت عين سمو الامير حفظه الله تقع عليه حتى أخذه من يده وسار به ولكن

الزحام غلبهما على أمرهما وحال بينهما وفي هذا ما لا يخفى من التعب والضرر اللذين تعرض لهما السيد الامام رحمه الله

وفي يوم الثلاثاء العشرين من أغسطس أخذ سمو الامير يستقبل المهنئين فسارع السيد الامام إلى تهنئته وتغدى معه ثم حضر الحفلة التي أقامها حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا لسمو الامير ودعا فيها سموه لزيارة دار المنار فتفضل باجابته الدعوة وزارها يوم الاربعاء ٢١ منه ، وكان السيد حريصا الحرص كله على أن يخلو بسمو الامير ساعة يفضي اليه فيها بأشياء في نفسه من شؤون الاصلاح فلم تتيسر له هذه الخلوة في دار المنار فاتفق هو وسموه فيها على أن تكون هذه الخلوة في « الذهبية » التي يقيم فيها سمو الامير في فجر يوم الخميس ٢٢ منه وهو يوم سفر الامير وعلى أن يرسل اليه سيارة تقله من دار المنار إلى الذهبية وكان الفجر يومئذ على الساعة الرابعة صباحا إلا دقيقتين ، فجاءته السيارة رحمه الله قبيل الفجر وهو يتنفل ثم استقلها إلى الذهبية وكان فيها مع سمو الامير الدكتور فؤاد سلطان عضو مجلس الادارة المنتدب ببنك مصر والسيد محمد الغنيمي التفتازاني شيخ السادة الخلوتية التفتازانية ثم حضر بعده الاستاذ الجليل محمد توفيق دياب صاحب الجهاد ، فاختلى فيها السيد بالامير ساعة أفضى إليه فيها بما أراد وحينئذ استراح فؤاده وطابت نفسه وقرت عينه ولكنه أبى أن يقتصر في الحفاوة بالامير على هذا القدر المضني لأمثاله وهو في مثل حاله ولم ينم أكثر ليلة الخميس وعزم أن يودع سمو الامير في السويس ولم يقبل رجاءه ولا رجاء بعض من معه في إعفائه من هذا العناء وذهب إلى السويس في سيارة مع الذاهبين وما أشق السفر بالسيارات ، فأقل ما فيه من مشقة أن يبقى الراكب في السيارة قاعداً في وضع واحد لا يمكنه تغييره طول الطريق وما أطولها، ووقف على الرصيف يودع سمو الامير حيث أقلعت السفينة التي تقله وعاد أدراجه بالسيارة

إلى القاهرة من غير أن يلوي على شيء في السويس وذلك لأعمال بدار المنار لا بد من انجازها

وبينما هو عائد يجتاز طريق السويس إلى القاهرة بالسيارة مع رفيقيه وهما ابراهيم أدهم بك زوج حماة سمو الامير فيصل بن جلالة الملك عبد العزيز سعود وهو تركي لا يحسن العربية وزكي أفندي محمد ثنيان شقيق حرم سمو الامير وهو شاب يافع وهو منصرف إلى تلاوة القرآن الكريم في المصحف كعادته في أواخر أيام حياته كلما خلا من عمل أو كلام نافع ، إذ شعر وهو في السيارة بدوار فاستوقفها ونزل منها وقاء ثم ركبها وسارت الهوينى واستأذن زميليه أن يضطجع واضطجع وظنه رفيقاه نائما فتركاه وقبيل أن يدركوا مصر الجديدة أرادا تنبيهه فاذا به جثة هامدة ، فسارعا به إلى مركز الاسعاف بمصر الجديدة وهنالك ثبت أنه رضي الله عنه قضي نحبه ، فأحضر إلى داره وكان من أمر النعي والتشييع والدفن والتأبين والتعزية ما بيناه في صدر هذا المقال

***

وبعد فهل مات السيد الامام محمد رشيد رضا صاحب المنار حقا ؟ نعم مات إذ فارق روحه الطاهر جسده الشريف فأودع القبر هذا الجسد العزيز أما الروح فبقي معنا وسيبقى ما بقيت هذه الدنيا إن شاء الله تعالى ، بقي روحه الطاهر متلألئا باسما في أكثر من أربعين مجلدة من مجلدات المنار وغيره من مؤلفاته وفيما اختاره وقام على طبعه وتصحيحه بنفسه من مؤلفات غيره الاحياء منهم والاموات وفي اخوانه وأبنائه الذين اقتبسوا من علمه واهتدوا بهديه وفي سيرته التي نسج فيها على منوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنه وعنهم أجمعين

***

فمن مجموع هذه الثروة التي تركها يمكن إن شاء الله تعالى أن يبقى المنار حيا يمثل السيد الامام رضي الله عنه ولو بعض التمثيل وينشر ولو بصيصا من النور الذي بعثه السيد رحمه الله إلى مشارق الارض ومغاربها ويستمد حياته ومادته من هذا المجموع ، والنية معقودة إن شاء الله على اصداره واستمراره

***

هذا ما وسعه المقام الآن من نعي السيد الامام رضي الله عنه وإن لهذا اليوم ما بعده وإن لنا لعوداً على بدء ، أحسن الله عزاء آل رضا وعزاء اخوانه وأبنائه وعزاء الاسلام والعالم الاسلامي فيه وأغدق عليه ما هو ان شاء الله تعالى أهل له من سحائب رحمته ورضوانه وجعله (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

عبد الله أمين

« قلم التحرير » كتب حضرة العالم الاديب الكبير كلمته هذه من أكثر من ستة أشهر لتنشر في المنار ، وها قد صدق فأله الحسن وصدر المنار بعد استيفاء المعاملات الرسمية لاصداره ، والله نسأل أن يوفقنا للاستمرار في خدمة أثر فقيدنا وفقيد الاسلام والمسلمين

كلمة الاستاذ علوبة باشا

وزير المعارف

في مهرجان الاصلاح الاجتماعي

أقامت « رابطة الاصلاح الاجتماعي » مساء يوم الجمعة ٨ ذي القعدة مهرجانها في دار جمعية الشبان المسلمين برئاسة سعادة وزير المعارف الاستاذ محمد علي علوبة باشا ، وبعد تلاوة آيات من القرآن الحكيم تقدم فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز فشكر بالنيابة عن جمعية الشبان المسلمين لرابطة الاصلاح الاجتماعي عملها، وانتهز فرصة وجود سعادة الاستاذ محمد علي علوبة باشا وزير المعارف فشكر له حرصه على ترقية الشباب لانهم عمد الاصلاح ، وقال إن أس الاصلاح هو الخلق والدين ، ولا يصلح الشباب إلا بالخلق والدين ، وطلب من الوزير الجليل أن يجعل نظم التعليم مؤسسة على الدين والخلق ، ولا يتم إصلاح الا اذا تقرر الدين مادة أساسية في جميع مراحل التعليم ، وتمنى للوزارة النهوض على أساس الخلق والدين

فوقف سعادة الاستاذ محمد علي علوبة باشا وألقى الكلمة التالية :

اخواني : سادتي :

لم أجد فرقا بين اليوم والامس ، ولا أعرف لي وصفا الا اني محمد علي من قبل ومن بعد ، أضيف إلي اليوم تكاليف في عنقي أرجو الله أن يوفقني للنهوض به ، ولقد دلتنى التجارب والتاريخ قبل الاسلام وبعده على أنه لم ترق أمة بلا دين ، ولا فائدة من وطنية بلا دين ولا دين بلا وطنية

سادتي : صدق الشاعر الجاهلي الحكيم في قصيدته الخالدة إذ يقول :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

ما أصدق هذا القول على الامم والجماعات ، وما أصدقه على الافراد أيضا ، نعم على الافراد .

ولا عجب في ذلك ، فكما أن الامم لا سبيل إلى نجاحها واستقرار أمورها إذا اختلط فيها الحابل بالنابل ، وتوسيت كفاية المستنيرين ، وكرامة الاكرمين ، فكذلك الافراد .

لاسبيل الى اسعادهم اذا سادت فيهم أحط غرائزهم فخذلت أسمى مواهبهم العقل سيد الملكات ، والخلق الفاضل سبيل السعادة ، فهما وحدهما الجديران بأن يسودا ويهيمنا على الانسان كما يجب أن يهيمن أشراف القوم ومفكروهم على عامتهم وسوادهم .

ولا سبيل الى استقرار الامور في نصابها اذا اختلط الامر وترك الحبل على الغارب ، واستسلم كل انسان لأهوائه ونزعاته ، وتركها تستبد بخلقه وتطغى على عقله ، فان مآل ذلك الخسران المحقق والبوار الذي لاشك فيه

أيها السادة :

لعلكم تذكرون حكمة الرسول عليه صلوات الله وسلامه حين عاد من غزوة بدر الكبرى فقال لصحابته قولته المأثورة « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر » يعنى من جهاد الغزو الى جهاد النفس ومغالبة أهوائها، وكبح جماحها الثائر

وانما أذكركم بهذا لابين لكم الحافز القوي الذي يحفزنا الى تقديم هذا الواجب — واجب الاصلاح وتقويم الاخلاق — على كل واجب آخر

وما ذلك المهرجان الذي أقمناه بالامس في مؤتمر الشباب الاخلاقي لنصرة الخلق الفاضل القويم ، ولا هذا المهرجان الحاشد الذي نقيمه اليوم للاخذ بناصر الاصلاح والمصلحين . الا مثلين من أمثلتنا التي أخذنا بها نفوسنا لنفع أمتنا وتسديد خطواتها في طريق السعادة الحقيقية والخير العميم .

أيها السادة :

ان الاصلاح الاجتماعي غايتنا التي طوينا فيها أمانينا ، وعلقنا عليها كل ما نسعى الى تحقيقه في اسعاد الامة وإبلاغها أعلى درجات العزة والرفعة ، وان الدعاية للاخلاق الفاضلة لهي أهدى سبيل يصل بنا إلى تلك الغاية المنشودة التي تعلقت بها آمالنا ووقفت عليها جهودنا .

على أن الطرق المؤدية إلى ذلك المقصد الشريف ، وتلك الغاية الموجودة لتختلف وإن كانت لا تتناقض ، والوسائل التي يتوسل بها المصلحون والدعاة إلى الاخلاق لتتعدد وإن كانت تجتمع آخر الامر وتأتلف تحت راية واحدة . فما أجدر الدعاة إلى الاخلاق والمصلحين أن يجتمعوا في أول الطريق صفا إلى صف مادامو يعلمون علم اليقين أنهم متلاقون ومجتمعون آخر الامر في الغاية والهدف

لقد نشطت في هذه الايام جماعات من الشباب الناهض يروجون لأغراض اصلاحية شريفة بوسائل شريفة ، وأخذت تعقد اجتماعاتها في مختلف الاندية ، وتلقي خطبها في شتى المنابر ، وتنشر آراءها على صفحات الصحف ، وقد التفت الجمهور لها ، وأنصت لقولها . فأوشكت هذه الجماعات المتباينة أن تتبوأ مقاعدها اللائقة بشرف أغراضها ، ونبل مقاصدها ، ولقد ظللت أتتبع أخبار تلك الجماعات بعين الرضا ، مكناً لها في أعماق قلبي أكبر الترحيب ، غير ضان عليها بكل ما أملك من جهد ، رغبة في تشجيعها وتقويتها ، مردداً قول شاعر انكليزي ساغه الاديب كامل كيلاني في شعر عربي :

قطرات المياه منها محيط وصغار الحصى تكون ارضا
ودقيقاتنا تؤلف جيلا بعد جيل في إثره ينقضى
وقليل الجنان والحب مما يجعل الارض جنة الخلد خفضا

ثم جعلت أنعم النظر وأطيل التأمل في هذه الجماعات المتشعبة التي اختلفت أسماؤها وأنصارها ، واتفقت أغراضها ووسائلها ، فوجدت أن لا مندوحة من تضافر هذه القوة المشتتة ، وتجمع تلك الروابط المتعددة لتنضوي جميعها تحت لواء واحد ، فيتكون منها اتحاد قوي يوحد طريقها ويلائم بين خطاها ، ويرسم لها أعلام الطريق وسواه فتمضي على اسم الله راشدة موفقة الى الخير

ولست أبغي بذلك أن تتفرق هذه الجماعات ثم تندمج في هيئة واحدة باسم واحد ، فان هذا الاندماج يحد من نشاطها الفردي ، ويفتر من عزيمتها ، ولكنني أريد أن يكون الاتحاد لها بمثابة الاب أو القائد الاعلى ، وتبقى هي على حالها ، فلكل جماعة نظامها ، ولها استقلالها ونشاطها

وان ذلك ليذكي في هذه الجمعيات روح التقدم والنجاح بفضل ما ينشأ بينها من التنافس والتسابق ، وهما دائماً أكبر دواعي النشاط والاقدام، وأقوى مشجع على الاضطلاع بأنبل الفروض، وأعظم الواجبات

ذلك أيها السادة رأيي وتلك هي أمنيتي ، ولست أرى هذا اليوم السعيد الذي تتحقق فيه هذه الامنية ببعيد ، وما ذلك على اخلاص الشباب بعزيز

أيها السادة :

ان جميع الامم التي تقدمت في طريق الحضارة والحرية أشواطا بعيدة لم تصل الى ماوصلت اليه من الرفعة ، ولم تبلغ ما بلغته من المجد الا بفضل نجاحها الاجتماعي الذي تأسس على قوى متينة من الاخلاق ، وارموا بأنظاركم نحو أية أمة من كبريات الامم تروا أن التفاضل بينها وبين غيرها في القوة والمنعة يمشي جنبا الى جنب مع التفاضل في الرقي الاجتماعي ، فاذا كانت أمنيتنا أن ننهض بهذه الامة نهوضا حقا فلنا بالامم أسوة حسنة ، وماعلينا الا أن نسعى لاصلاح كياننا الاجتماعي اصلاحا تقر به عين الخلق القويم

أيها السادة : ان وجوه الاصلاح الاجتماعي شتى ، وليس من همي أن أفصل القول فيها تفصيلا بعد أن أجملته فقد قام بذلك حضرات الاماثل الاعلام الذين أخذوا على عاتقهم - متفضلين أن يحاضروكم الليلة في كثير من نواحي الاصلاح الاجتماعي ، وستكون هذه البحوث القيمة مع غيرها محل تمحيص وفحص لتكون نواة للنهضة التي نسعى لتحقيقها ما وسعنا الجهد

وقد عنيت في خطابي هذا أن أوجه أنظاركم الى وجوب تنظيم جمعيات الاصلاح التي نشطت في هذه الايام ووجوب اشتراك كبار القوم في العناية بها وتشجيعها والاخذ بناصرها حتى تؤتي أكلها وترجع على الامة بأبرك الثمرات

ويسرني أن لا أختم كلمي قبل أن أشكر لحضراتكم تفضلكم باجابة دعوتنا لكم لحضور هذا المهرجان وأن أشكر حضرة الشاب النشيط سيد افندي مصطفى سكرتير رابطة الاصلاح الاجتماعي فلقد كان له أكبر الاثر في تهيئة هذا المهرجان والله أسأل أن يهبنا الرشاد في القول والعمل والسلام عليكم ورحمة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لابد منها

رأيت أنه لابد من إصدار « المنار » ذلك الأثر الخالد الذي دوى صوته أربعين عاما في العالم مجاهداً في نشر الاصلاح ، ومحاربة البدع والخرافات .
فتوكلت على الله وطلبت تجديد الرخصة باسم أكبر نجلي الفقيد « السيد محمد شفيع رضا » حرسه الله ، وبما أن سنه وعمله المدرسي لا يسمحان له بأن يكون رئيسا للتحرير مسئولا تقدمت أنا لهذا

وإني أعاهد الله سبحانه وتعالى أن أبذل ما أستطيع من مالي ووقتي في هذا العمل الجليل ، وأدعو محبي فقيدنا العزيز من اخوانه وتلاميذه ومريديه إلى شد أزري وارشادي ومعاضدتي كل بما يدخل في طاقته والله ولي التوفيق

ويرى القراء أن فقيدنا رضي الله عنه قد كتب أهم أبواب هذا العدد : التفسير والفتاوى فهما آخر ما خطه قلمه وسيرون في الاعداد القادمة كثيراً من مذكراته وآثاره

وإني لأشكر سعادة رجل مصر والاسلام محمد طلعت حرب باشا فانه حفظه الله قدم للمجلة مساعدة يشكر عليها

محيي الدين رضا

الوهابيون

والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم[1]

همس في أذني بعض الحجاج المصريين ونحن في الباخرة «كوثر» في العام الماضي أثناء تأديتي فريضة الحج أن الوهابيين يمنعون الناس من الصلاة على النبي وإذا صلى أحدنا عليه أمامهم أنزلوا به عقابا شديداً . فقلت له هذا وهم يود إذاعته بعض رجال السوء من القالين للوهابيين . فقال : بل هو عين الحقيقة وسترى الامر بنفسك

ولما قابلت جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود في يوم ١٢ مارس الماضي لأول مرة وكان أحد العلماء يتلو على مسامعه تفسير القرآن فلما انتهى المفسر من التلاوة أخذ جلالته في سرد طائفة من فضائل الدين الاسلامي الحنيف وكان إذا ذكر النبي ﷺ يتبع اسمه بالصلاة عليه ولا يغفل عن الصلاة عليه مرة مطلقا

وقابلت بعد ذلك حضرة العالم النجدي المشهور الشيخ عبد الله بن بليهد فقدم إلي رسالة اسمها «جامع المسالك في أحكام المناسك» وضعها في مناسك الحج توزعها الحكومة مجانا كما توزع رسالة أخرى وضعها الشيخ سليمان ابن الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأشرف الشيخ ابن بليهد على طبعها فتصفحت الرسالة الاولى فلحظت أن الشيخ ابن بليهد يلتزم ذكر الصلاة على النبي ﷺ في كل مرة يرد اسمه فيها فقلت له إن بعضهم يتهم الوهابيين باهمال الصلاة على النبي ﷺ ومع ذلك أراكم التزمتم إيراد الصلاة عليه في كل مرة يرد اسمه الشريف فيها بينما نرى غيركم لا يلتزم ذلك وبعضهم يضع حرف (ص) أو حروف (صلعم) فقال : إن وضع هذه الحروف قبيح والواجب أن يتبع اسم النبي بالصلاة عليه كما التزم ذلك العلماء الموثوق بهم وأورد أسماء طائفة من العلماء

---

(١) فصل من كتاب «رحلتي إلى الحجاز» بقلم محيي الدين رضا وقد أتمت طبعه مطبعة المنار ويطلب من مكتبتها وثمنه خمسة قروش صاغ وعدد صفحاته ١٦٠ بقطع المنار

المتقدمين وما قالوه في هذا الباب مما لا يحضرني الآن لأنني أكتب هذه الكلمة بعد مضي نحو ثلاثة أشهر على المقابلة

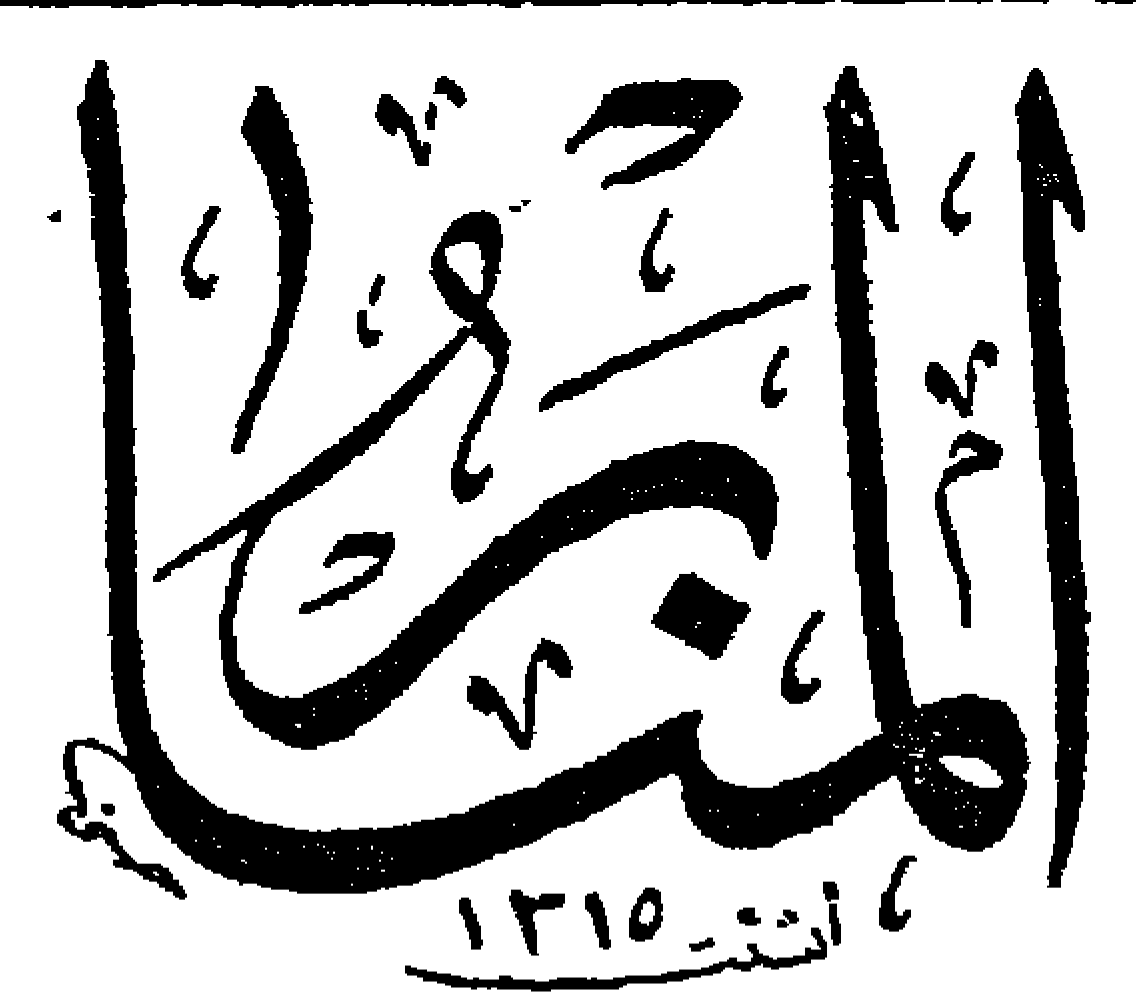
ولما قابلت جلالة الملك في قصره بمكة في يوم ١٩ مارس الماضي مع وفد الصحافة وتحدثنا مع جلالته وكنت أطرح الأسئلة عليه . قلت لجلالته : انني ألحظ أنكم تصلون على النبي في كل مرة يرد ذكره فيها ومع ذلك نرى بعضهم يتهم الوهابيين بعدم الصلاة على النبي ، فقال جلالته :

هذا أمر غريب جداً ، كيف لا نصلي عليه ؟ ومن الذي نحبه بعد الله أكثر من نبينا ﷺ ، فوالله إنه أحب الينا من كل شيء ، وإنا نغار عليه وندافع عن دينه كما نغار على حريمنا وأكثر بل اننا نحب خلفاءه الراشدين ، ونحب كل خادم للاسلام ولا سيما الأئمة الاربعة ، ونحن طلاب حق نتبعه أينما وجدناه ونأخذ الصحيح في أي مذهب كان أو على يد أي عالم أتى به لا نفرق بين أحد، وها نحن نحب تفسير ابن كثير ونعنى به كثيراً وصاحبه شافعي ، واذا نحن جنحنا الى مذهب الامام أحمد رضي الله عنه فلأنه يعنى بحديث رسول الله ﷺ أكثر من غيره من الأئمة كما هو معلوم . فهل بعد ذلك يقال عنا اننا لا نصلي على النبي ﷺ وهو الذي جاء بالدين الحق الذي ندين الله به ، وتوسع جلالته في ذلك كثيراً وكانت أمارات التأثر بادية على محياه بجلاء تام

وفي المدينة المنورة قابلت حضرة الشيخ عبد العزيز بن ابراهيم أمير المدينة ولحظت أنه يلتزم الصلاة على النبي أيضا فنوهت باتهام بعضهم للوهابيين بترك الصلاة عليه فانطلق يسفه مزاعم أولئك ويفصل القول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ ، ومما قاله : اننا معشر الوهابيين نعتبر الصلاة والسلام عليه في الصلاة ركنا من أركان الصلاة لا تتم إلا به بينما بعض المذاهب لا يعتبرها ركنا،وهذه حجة دامغة للمزاعم الباطلة

فهذه أقوال ثلاثة من أقطاب الوهابية بل هي أقوال جلالة الملك المعظم محيي المملكة وحامي الجزيرة العربية كلها تقريبًا ، وأكبر علماء مملكته ، وحاكم أشرف إمارة من إماراته أجمعت قولا وكتابة على أن مارميت به الوهابية محض افتراء وإفك وبهتان

فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صُوًى « ومناراً » كمنار الطريق

٨ محرم سنة ١٣٥٤ هـ　　٣١ مارس سنة ١٩٣٦ م

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري لإرشادي اجتماعي سياسي

بقلم العالم السلفي الكبير
الشيخ محمد بهجت البيطار
جرى فيه على نهج فقيد الاسلام والعرب
منشئ المنار
السيد محمد رشيد رضا

(١٠٢) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٣) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

الآية ١٠٢ إشارة إلى قوله تعالى في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) وسورة يوسف (ع . م) قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده وا كتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه وكان مملوكا ، ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم « وهو القطر المصري » فأحسن الادارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع مادخل فيه من أطوار الحياة ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف ، وختمت باحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ماأنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين ، وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل (ع . م) (*)

١٠٢ ﴿ ذلك ﴾ أي نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف رفعه الله عليهم، ومكن له في الارض ، وجعل له العاقبة والنصر ، والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاينه ، ولكنا (نوحيه إليك) ونعرفكه لنثبت به فؤادك ، ونشجع به قلبك ، وتصبر على مانالك من الأذى من قومك في ذات الله ، وتعلم أن من قبلك من رسل الله لما صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعرف ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر ، وأيدوا بالنصر ، ومكنوا في البلاد ، وغلبوا على من قصدوا من أعدائهم ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي اتفقت آراؤهم وصحت عزائمهم ، أو عزموا عزماً إجماعيا لا تردد فيه ، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب ، وذلك مكرهم الذي قال تعالى ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك ، وإنزالا عليك ، وقد تقدم الكلام على إجماع الامر عند قوله تعالى (٧١ فأجمعوا أمركم وشركاءكم) من سورة يونس ، وعلى لفظ المكر أيضا (ج ٣ ص ٣١٥ و ج ٨ ص ٣٣ من تفسير المنار)

(*) راجع تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٥٠

ثم إن من قرأ قصة هذا النبي الكريم في سفر التكوين ، وهي في الفصل أو الاصحاح ٣٧ وما بعده ، ثم تلاها في هذا الذكر الحكيم ظهر له الفرق واضحاً بين ما كان وحياً معجزاً وما كان كلاما عاديا من قول البشر ، أو من الروايات الاسرائيلية التي جعلها نقاد الحديث ورواته مضرب المثل في الكذب وردها المحققون من المفسرين كالحافظ ابن كثير ، وكل ماذكره القرآن من قصص الرسل فهو من أنباء الغيب الدالة على نبوة محمد ﷺ (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) وقال سبحانه (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الامر) الى قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) الآية ، وقال (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلي إلا انما أنا نذير مبين)

أما وقد أصاب بعض الكتب الالهية ما أصابها من التحريف والتبديل « كالتوراة والانجيل » وحجبت أنوارها ومقاصدها عن العقول البشرية ، فمن رحمة الله بعباده أن لا يدعهم يتخبطون في ديجور الضلالة ، ويتيهون في أودية الجهالة ، بل يجدد لهم وحيه ، ويعيد على أسماعهم قوله ، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل يحفظه الله تعالى بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) . فالقرآن هو المعجزة العظمى التي تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من قول البشر ، والدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يطالع الكتب ، ولم يذاكر العلماء ، أليس من البراهين القطعية على صدق نبوة محمد ﷺ أنه كان أميا نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الانبياء من الشؤون الغيبية دون أن يتعلم من بشر ؟! بلى . وهو كما قال تعالى في سورة هود بعد ذكر قصة نوح (ع.م) (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر

صورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها ، ولما ادعى بعض الجاحدين أنه يعلمه بشر إذ رأوه يقف على قين «حداد» رومي بمكة رد الله دعواهم بقوله (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) من ألحد فلان إذا مال عن الحق

١٠٣ ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ يقول جل ثناؤه وما أكثر مشركي قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا فيصدقوك ويتبعوا ماجئتهم به من عند ربك ، بمصدقيك ولا متبعيك(*) وذكر الفخر الرازي في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ماذكره الله تعالى في قوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) . ويرى السيد الامام أن الحكم في مثل هذه الآية عام ، وأنه من دقة القرآن في الحكم على الامم والشعوب إذ أنه يحكم على الكثير أو الاكثر بعدم الايمان كما في الآية المتقدمة ، وقال (وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) وكقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) والقرآن لم يحكم على أمة بالضلال والفسق بنص عام يستغرق جميع الافراد بل تارة يعبر بالكثير وتارة بالاكثر ، وإذا أطلق أداة العموم يستثني بمثل قوله في بني اسرائيل (ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون) وقوله فيهم (فلا يؤمنون إلا قليلا) أو يحكم على البعض ابتداءاً كما قال فيهم وفي النصارى (منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون) فقد أثبت لبعضهم الايمان والاقتصاد أي الاعتدال في الدين ، والهداية بالحق والعدل ، وقال (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الايمان المخلصين الذين يتحرون الحق هم الذين

(*) كذا قال ابن جرير والمراد من عاشوا منهم وماتوا على الشرك جحودا واستكبارا ، ومن فوائد هذا البيان إراحة قلب الرسول (ص) منهم وتوجيه دعوته الى أولي البصيرة والاستعداد

يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استمدادهم. قال السيد الامام قدس الله روحه : إن القرآن يبين حقائق ماعليه الامم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم ، والدقة التي نراها في القرآن لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ، فاذا نحن جمعنا ماحكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الاسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع ، ولكن وجد فينا « معشر المسلمين » من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الامم من قبيل هجو غير المسلمين ، وكل مايحمده هو خاص بالمسلمين ، حتى كأنه شعر لايقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الاسلام ، ويحولون بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ ، وفهم الحقائق اهـ

١٠٤ ﴿ وما تسألهم ﴾ أي وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك يارسول الله ﴿ عليه ﴾ أي على هذا القرآن الذي أمرت أن تدعوهم اليه ، وتذكرهم به أو على ما تدعوهم اليه من إخلاص العبادة لربك ، وهجر عبادة الاوثان ، وطاعة الرحمن، وكلاهما مفهوم من السياق وإن لم يذكر ﴿ من أجر ﴾ من ثواب وجزاء منهم ، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله ، أي ما تسألهم على ذلك مالا ولا غيره من المنافع فيقولوا لك إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك لننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك ، كما أن جميع من قبلك من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى ، وذلك مصرح به في قصصهم من سورة هود وسورة الشعراء وغيرهما ، وإذ كنت لا تسألهم ذلك ، فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك انما تدعوهم اليه اتباعا منك لأمر ربك ، ونصيحة منك لهم ﴿ ان هو الا ذكر للعالمين ﴾ أي ماهذا الذي أرسلك به ربك إلا تذكير وموعظة لارشاد العالمين كافة ، لا لهم خاصة ، وهو نص في عموم رسالته ﷺ

(١٠٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٦) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٧) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٠٨) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٩) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

---

١٠٥ ﴿وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ (كأين) بمعنى كم الخبرية وفيها لغتان فصيحتان ، كائن بوزن فاعل ، وبها قرأ ابن كثير ، وكأين وبها قرأ الباقون . يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه سبحانه في السموات والارض فيقول عز وجل كم من آية في السموات والارض لله وعبرة وحجة ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات ، وكالجبال والبحار والنبات والاشجار وغير ذلك من آيات الارض ، يمرون عليها معرضين عنها لا يعتبرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها ، وأن الالوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فدبرها

قال السيد الامام في تفسيره : قد يتفكر المرء في عجائب السموات والارض وأسرار ما فيها من الاتقان والابداع والمنافع ، الدالة على العلم المحيط ، والحكمة

البالغة ، والنعمة السابغة ، والقدرة التامة وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم ، الذي خلق ذلك في أبدع نظام ، وكم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر في باله صانعها اشتغالا بها عنه ، فالذين يشتغلون بعلم ما في السموات والارض وهم غافلون عن خالقها ذاهلون عن ذكره ، يمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ، ومعرفة الله عز وجل . فالفكر وحده وان كان مفيدا لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وان أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فياطوبى لمن جمع بين الامرين ، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ونجوا من عذاب النار في الآخرة ، فتلك النعمة التي لاتفضلها نعمة (راجع ص ٢٩٩ ج ٤ من تفسير المنار) .

قرىء (والارض) بالرفع على الابتداء و (يمرون عليها) خبره ، وقرأ السدي (والارض) بالنصب ، ويطؤون الارض يمرون عليها ، وفي مصحف عبد الله : والارض يمشون عليها برفع الارض وهي قراءة تفسير ، والمراد مايرون من آثار الامم الهالكة ، وغير ذلك من العبر . ومن مباحث اللفظ أن (كأين) اسم مركب من كاف التشبيه وأي المنونة ، ولذلك جاز الوقف عليها بالنون ، لان التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الاصلية ، ولهذا رسم في المصحف نونا ، ومن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمه في الاصل وهو الحذف في الوقف ، ومميزها مجرور بمن غالباً نحو قوله تعالى (وكأين من نبي ـ وكأين من آية ـ وكأين من دابة)

ثم قال تعالى ١٠٦ ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال الامام ابن جرير : وما يقرأ أكثر هؤلاء الذين وصف عز وجل صفتهم بقوله (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء إلا وهم به مشركون في عبادتهم الاوثان والاصنام واتخاذهم من دونه أربابا ، وزعمهم أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون ، وقال الحافظ ابن كثير : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم من خلق السموات ومن خلق الارض ومن خلق الجبال ؟ قالوا الله وهم مشركون به ، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي

الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ « قد ، قد » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وهذا هو الشرك الاعظم ، يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله: أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك »

وقد سبق القول بأن القرآن يزن بالقسطاس المستقيم عقائد الناس وأعمالهم، ويميز بين أصناف موحديهم ومشركيهم ، فلا يحكم عليهم في الدنيا حكما واحداً عاما ، ولا يجعلهم في الآخرة مستوين في منازل الكرامة أو الندامة (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار ؟) (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون) ، وقد تقدم كلام السيد الامام في دقة القرآن في الحكم على الامم والشعوب إذ يحكم على الكثير أو الا كثر بالشرك، أو بعدم الايمان بالله تعالى وحده ، ومن درس تاريخ الامم السابقة واللاحقة ، ونظر في أحوال أهل الملل السماوية وغيرها ، عرف كيف طرأ الشرك على الامم، وسرى في عباداتهم سريان السم في الدسم « وما زال الشيطان ــ كما قال ابن القيم في إغاثة اللهفان الكبرى ــ يوحي إلى عباد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والاقسام على الله بها ، مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه ، فاذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه ــ أي الميت ــ وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج اليه ويذبح عنده ، فاذا تقرر هذا عندهم ، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيداً ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم «قال» وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله ، فاذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى أن

من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لاحرمة لهم ولا قدر ، وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) » وما ذكره هذا الامام المحقق رحمه الله من التنقل في تعظيم الصالحين إلى عبادتهم هو حال أكثر الامم من عرب وعجم ، في كل زمان ومكان ، طبقا لما أخبر به الله في القرآن (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

أما التوسل الخلافي المشهور بين العلماء ، المحصور في دعاء الله وحده مع التوسل اليه بصالحي عباده ، كقولهم : اللهم بجاه فلان عندك ، أو بحق فلان ، أو بحرمته ، أسألك أن تفعل كذا فهو يتوقف على السماع والنقل بمثل هذه الالفاظ، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين وسلف الامة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وقد يظن بعض الناس أن دعاة التوحيد وحماته ينكرون حرمة الرسل أو جاههم أو كرامتهم على ربهم ، في حياتهم أو بعد مماتهم . والجواب أن هذه تهمة باطلة وظن آثم (ان بعض الظن اثم) كيف وجاه الرسل صلوات الله عليهم ثابت بالقرآن ، قال تعالى في حق موسى « ع . م » (وكان عند الله وجيها) وقال في حق عيسى « ع . م » (وجيهاً في الدنيا والآخرة) فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بفخر هذا العالم ، وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ ؟ لاشك أن جاهه أعظم ، ولكن جاه المخلوق عند المخلوق ليس كجاهه عند الخالق، فانه تعالى لايشفع عنده أحد إلا باذنه قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) وقال سبحانه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه ولغير من ارتضاه . وأما ماأخرجه الطبراني في الكبير والاوسط وابن حبان والحاكم من حديث فاطمة بنت أسد ، والشاهد منه « بحق نبيك والانبياء الذين

من قبلي » وما رواه أحمد وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري في « من خرج من بيته الى الصلاة فقال : اللهم بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي اليك» الحديث ، فهذان الحديثان على كونهما متكلما فيهما ليس فيهما إلا توسل بحق النبيين فحسب ، وحقهم هو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة ، وما خصهم به من الخصائص والمزايا ، كاجتبائهم واصطفائهم ، وما وعدهم به من النصر والتمكين ، والعز والتأييد ، وقبول شفاعتهم إذا شفعوا بعد الاذن والرضاء فهذا توسل اليه تعالى بأفعاله ، وأفعاله سبحانه ليست من مخلوقاته ، بل هي من مقتضى أسمائه وصفاته .

فقد علمت من هذا أنه ليس الخلاف في جاه الرسل الثابت لهم عند ربهم ، وإنما الخلاف في فهم المراد من التوسل بالجاه والحرمة والحق ، وهل جعله الله سبباً شرعيا في إجابة الدعوات ؟ فان كان المراد منه معنى يرجع إلى أفعاله تعالى وصفاته ، كاصطفائهم واجتبائهم ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة فبه نقول :

بيد أن ههنا مسألة مهمة ، وهي أن حقوق الرسل عليهم السلام وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة تربطها باجابة سؤاله ، فاذا قال السائل أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي لي حاجتي ، فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحا ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ وإذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى أطلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي ملازمة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفيا عنه لا في حياته ولا بعد مماته ولا هو محل نزاع ، ولكنه ليس من عملك ، الذي تستفيد أنت منه وتستحق الجزاء عليه ، وإنما العامل هو الذي يجنى ثمرة عمله في الدنيا والآخرة ، قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) ، فلو كان التوسل بصلاح الصالحين وعمل العاملين يفيد المتوسلين الجاهلين العاطلين عن العمل في دينهم أو دنياهم ، لهان الامر علينا

معشر المسلمين ، ولنلنا كل خير من ذلك ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلا : اللهم حقق آمالنا ، وأنلنا وحدتنا واستقلالنا ، بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، ففتحت لهم فتحا مبينا ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا إننا نتوسل إليك بفتوحهم وعلومهم وأعمالهم ، أن تهب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان، والحضارة والعمران ، مثل ما وهبت لهم ، فهل تفيدنا هذه التوسلات الدنيوية،بجاه أسلافنا وما ملكوا من قوة وثروة ، وسعة سلطان، واستبحار عمران ، ونحن قد تداعت علينا الامم ، فجعلتنا مغنما أو نهبا مقسما ؟! كلا إنما يجب علينا أن نعمل كما عملوا لنكون لهم من الوارثين ، وهكذا شأن التوسل الديني الاخروي ، فمن وفقه الله وألهمه رشده يتقي عقاب الآخرة بما شرعه الله لاتقائه من التوبة والايمان والاعمال الصالحة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة،لا يناقض بعضها بعضا،ولا يبطل بعضها بعضا.هذا وان القرآن الكريم وكتب السنة طافي بالادعية والاذكار التي تعبدنا الله بها ، وقد جمعت في كتب خاصة ، فليت مشايخ الطرق يرشدون مريديهم اليها،ويقصرون أنفسهم ومريديهم عليها ، فهي هي المنقذة من الضلال ، والموصلة إلى ذي العزة والجلال ، لا تلك التوسلات المبتدعة التي يشرعونها ويدعون الناس اليها ، ويضللون من ينكرها عليهم ، وهم يعلمون أن الله تعالى قد أكمل دينه ، وأتم نعمته (قل أأنتم أعلم أم الله؟)

---

١٠٧ ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشـية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ ﴾ يقول عز من قائل : أفأمن هؤلاء الذين لا يقرون بأن الله هو ربهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره ، أن تأتيهم غاشية من عذاب الله تغشاهم من عقوبة الله ، وعذاب الله على شركهم بالله ، أو تأتيهم القيامة فجأة ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم الله عز وجل في ناره ، وهم لا يدرون بمجيئها ، وقيامها « ابن جرير » ومعنى (غاشـية من عذاب الله) أي غائبة تغشاهم وتجللهم ، و (هل أتاك حديث الغاشية ؟) كناية عن القيامة وجمعها

غواش ، وغشي « كرضي » فلان أصحابه إذا أتاهم ، وغشي الشيء الشيء إذا لحقه وغطاه ، ومنه في التنزيل غشيان الموج واليم والدخان والعذاب للناس، وهذه الآية كقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم في تقلبهم فماهم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤوف رحيم؟) وقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ؟) . وقد فسر السيد الامام هذه الآيات الاربع من سورة الاعراف وقال إنها إنذار لأمة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الاعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها ، كما ترشد إليه الرابعة منها «قال» رحمه الله : قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ماقصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لاعدائهم إذ بين لهم أن ذنوب الامم لاتغفر كذنوب بعض الافراد ، وسننه فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصروا أولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الأمة بها ، وإنذارهم عاقبة الاعراض عنها ، وترك الاتعاظ بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فانما يعنى باعرابها ، والبحث في ألفاظها ، أو جدل المذاهب فيها ، ثم إنهم يجعلون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون أنفسهم مسلمين ، «قال» وطالما أنكر علينا بعض أدعياء العلم والدين ، أننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار شاملة لأهل الاسلام والايمان ، مأفوكين عن تدبرها المراد منها ، جاهلين للسنن العامة فيها ، وكذلك كان يقول أهل الكتاب من قبلهم ، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحابي الأمم والأقوام لأجل رسلهم ، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم ، وقد راجت هذه العقائد في

المسلمين ، وكانت تجارة « باسم الدين » للدجالين الضالين المضلين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) اهـ

ومعنى إتيان الساعة بغتة ، بجيئها فجأة على حين غفلة ، من غير توقع ولا انتظار ، ولا إشعار ولا إنذار ، وقد تكرر هذا القول في التنزيل ، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين ، واللفظ للبخاري « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة ذات الدر) فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - من ألاطه : طلا حجارته بالطين أو غيره كالجص ليمسك الماء ويحفظه - فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة فلا يشعرون إلا وقد أتتهم ، وقد قال تعالى في سورة الاعراف (٧ : ١٨٧ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال السيد الامام في تفسيرها مبينا الحكمة في إبهام أمر الساعة على الناس . وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد - أي وإن كان نبيا - فهو تعالى قد رباه ليكون منذراً ومبشراً ، لا للاخبار عن الامور بأعيانها وأوقاتها ، والانذار إنما يناط بالاعلام بالساعة وأهوالها ، والنار وسلاسلها وأغلالها ، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها ، ليخشى أهل كل زمن اتيانها فيه ، والاعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة ، ثم قال : فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ، ويتحروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصي ، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال ، والقيل والقال . اهـ كلام السيد

« قلت » ومن أراد استيفاء المباحث على الساعة أو القيامة للافراد وللأمة

أو الدولة والعالم ، وما ورد في قرب الساعة ، والروايات في عمر الدنيا ونقدها ، وتفنيد كلام السيوطي في عمر الدنيا ، وتخطئة المحققين له ، وكلام الامام ابن حزم في جهل من حدده ، ثم تحقيق ماورد في أشراط الساعة وعلاماتها والبحث في رواياتها ، وعللها وإشكالاتها وتمييز ماصح من غيره فليراجع تفسير المنار ، فقد أطال السيد الامام النفس في ذلك كله ، فراجعه فانك لا تظفر في غير تفسيره بمثله (ج ٩ ص ٤٦١ — ٥٠٧

١٠٨ ﴿ قل ﴾ يا رسول الله ﴿ هذه ﴾ الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، دون الآلهة والاوثان ﴿ سبيلي ﴾ سنتي ومنهاجي ، وقال مقاتل : ديني ، والسبيل كالطريق يذكر ويؤنث ﴿ أدعو إلى الله ﴾ وحده لا شريك له ﴿ على بصيرة ﴾ يقين ، والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ، أدعو ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ أي ويدعو اليه أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني ﴿ وسبحان الله ﴾ أي تنزيها لله وتعظيما له من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه ، ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني ، تعالى الله عن شركهم علوا كبيرا (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً) . دل قوله تعالى (على بصيرة) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذي انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم لمجرد الادعاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن ، وذكر مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الاكوان ، وما فيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه (رسالة التوحيد)

نقل ناصر السنة البغوي عن عبد الله بن عباس (رض) أنه فسر قوله تعالى (ومن اتبعني) قال : يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة

وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الايمان ، وجند الرحمن ، وقال عبد الله بن مسعود : أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فانهم كانوا على الصراط المستقيم .

«أقول» بعد أن سمعت قول هذين الصحابيين الجليلين ، تعال فانظر ماقاله في تفسير هذه الآية أشهر المفسرين المتكلمين الفخر الرازي « رح » فقد فسرها تفسيراً جعل به الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه من محترفي صناعة الكلام المبتدع ، والمشتغلين بعلم الاصول المستنبط المكتسب ، فاقرأ وتعجب (قال) في (ج ٥ تفسير الرازي ص ١٧٢) وهذه الآية (قل هذه سبيلي) تدل على أن حرفة الكلام وعلم الاصول ، حرفة الانبياء عليهم السلام ، وأن الله مابعثهم للخلق إلا لأجلها . «وأقول» لقد علم بالضرورة أن الانبياء عليهم السلام قد أوحي اليهم أنما الله إله واحد ، وقامت الآيات الحسية والعقلية في الآفاق وفي الانفس على أنه لارب غيره ولا معبود سواه ، وجاءت الكتب الالهية كلها ناطقة بذلك ، وقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام أن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وهم خير الأمة لم يسلكوا طريق هؤلاء المتكلمين الذين أوجبوا النظر فيما ابتدعوه ، ولم يأخذوا معرفة الله سبحانه وتوحيده مما نصبه فلاسفة اليونان ومن دانوا ببدعتهم ، مما سموه الادلة العقلية ، والموازين الكلامية ، زاعمين أن قوانين المنطق هي القواطع العقلية ، وأن ماجاءت به الكتب ، وأخبرت به الرسل من صفات الله معدود من متشابه الكلام ، مصروف عن حقيقته . ولاشك أن أصحاب النبي ﷺ الذين هم صفوة هذه الأمة وخيارها ، المتبعون للرسول علما وعملا ، كانوا يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والبراهين والادلة التي بعث الله بها رسوله ﷺ والى تدبر القرآن وما فيه من البيان ، والقرآن قوله سبحانه الذي جاء فيه (أفلم يدبروا القول ؟) فأين كانت هذه المذاهب الكلامية الجدلية ، التي تضاد صريح اللغة وفقه القرآن وأساليب البيان ، وحسبك

من انحرافها أن جمهور المتكلمين من أهلها قد فسروا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي ركن الدين وأساسه الاعظم بغير ماتدل عليه لغة وشرعا ، ومنهم الامام الرازي في مواضع من تفسيره : فهو يفسر لفظ (الاله) بمعنى الخالق المدبر كما نجده في تفسير قوله تعالى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) ولم تكن العرب تعتقد أن آلهتها قد خلقت شيئا من العالم ، أو تدبر أمراً من أموره ، بل كانوا يعرفون ويعترفون بأن الله تعالى وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور كما ثبت ذلك بنص القرآن العظيم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) وقال عزت كلمته (قل من يرزقكم من السماء والارض ، أمن يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟)

أما آلهتهم فقد كانوا يتقربون بعبادتهم إلى فاطر السموات والارض كما أخبر تعالى عنهم بقوله (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فجاءت كلمة التوحيد تلقف ما يأفكون ، وتنفي مايثبتون ، فكلمة « لا إله » نفي لكل معبود في الوجود ، وإبطال لعبادته ، وكلمة « إلا الله » إثبات العبادة للمعبود بحق وحده (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) إذاً فمعنى كلمة « إله » في لغة العرب والقرآن هو المعبود بحق أو بغير حق ولفظ الجلالة « الله » علم على المعبود بحق وهو الله عز وجل وحده ، وبين تعالى أن من تفرد بالايجاد والامداد ، هو الذي يستحق العبادة دون غيره ، وأقام عليهم الحجة بما أقروه من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الالوهية

بعد أن فرغت من بيان ما في تلك العجيبة الجريئة التي جاءت في تفسير الفخر عن الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أوجه نظر القارىء الكريم إلى ما كتبه السيد الامام عليه الرحمة والرضوان في الامام الرازي وتفسيره الكبير وعلماء الكلام ومذاهبهم المتناقضة ، ثم رجوعهم عنها ، وهي القول الفصل في الموضوع ، وإني ألخصها بما يلي : وأدع استيفاءها بطولها لمن يحب وهي في [ج ١١ ص

حفلة تأبين فقيد الاسلام
المرحوم السيد محمد رشيد رضا
في يوم الخميس ١٠ محرم سنة ١٣٥٥

قالت جريدة «الجهاد» الغراء في عددها الصادر بتاريخ ١١ المحرم :—

اقيمت بعد ظهر أمس بدار جمعية الشبان المسلمين حفلة تأبين المرحوم فقيد الاسلام السيد محمد رشيد رضا برياسة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع لازهر . وحضر الحفلة جمهور غفير من رجال العلم والفضل والادب واعتذر صاحب السمو الامير عمر طوسون لتغيبه وصاحب المعالى وزير المعارف لارتباطه بموعد آخر وصاحب السعادة محافظ العاصمة وغيرهم . وتلقت اللجنة برقيات وخطابات كثيرة من الاقطار العربية

وافتتحت الحفلة بآى الذكر الحكيم ووقف فضيلة الاستاذ الاكبر والقى كلمة الافتتاح وتعاقب بعده الخطباء على الترتيب الآتى :

الاستاذ حبيب جامانى : حياة السيد محمد رشيد رضا

فضيلة الاستاذ الشيخ على سرور الزنكلوني : السيد رشيد المفسر (ألقاها فضيلة الشيخ محمود شلتوت)

الاستاذ محمد لطفي جمعه : السيد رشيد رضا واتصاله بالمستشرقين

الاستاذ الحاج محمد الهراوي : قصيدة

فضيلة الشيخ محمد المدوي : السيدرشيد رضا والاصلاح الديني

الاستاذ عبد السميع البطل : السيدرشيد رضاومدرسة دارالدعوةوالارشاد

الدكتور عبد الرحمن شهبندر : الرابطة الشرقية

الاستاذ عبد الله عفيفي : قصيدة

كلمة الاسرة : القاها نجل الفقيد

خطبة الاستاذ الاكبر

شيخ الجامع الازهر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب)

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه ان الحكمة هي الفقه في القرآن . وروى ابن جرير عن ابن عباس انها معرفة القرآن : ناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه — وهي تفصيل للرواية الاولى عنه . وروي عن مجاهد انها الاصابة في القول والعمل ، وعن غيره انها معرفة ما في القرآن من عجائب وأسرار .

ونحن نضم هذه الروايات بعضها إلى بعض فنقول : ان الحكمة هي الفقه في القرآن ، وذلك لا يكون إلا بمعرفة ناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه ، وحلاله وحرامه ، وما اشتمل عليه من عجائب وأسرار ، وعبر وعظات ، ونظم صالحة للاجتماع ، ومعان سامية للاخلاق ، وهذا محتاج إلى وسائل أولها العقل الراجح والبصيرة النافذة ، ودقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع على سنة الرسول صلوات الله عليه ، وأقضية الصحابة رضوان الله عليهم ، وآراء السلف الصالح ، ومذاهب الائمة ، ومعرفة أحوال المجتمع الانساني ، وأسرار تطوره ، وخصائص البيئات المختلفة ، وروح العصور السابقة ، ونتيجة ذلك كله هي الاصابة في القول والعمل أو خلق يوجه الارادة إلى أعمال الخير طبقا للعلم الصحيح فيصدر العمل نافعاً موصلا إلى سعادة الدنيا والآخرة

وقد كان فقيد الاسلام السيد محمد رشيد رضا محيطا بعلوم القرآن ، وقد

رزقه الله عقلا راجحاً في فهمه ومعرفة أسراره وحكمه ، واسع الاطلاع على السنة وأقضية الصحابة وآراء العلماء ، عارفا بأحوال المجتمع ، والادوار التي مر بها التاريخ الاسلامى . وكان شديد الاحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه ، خبيراً بأحوال المسلمين في الاقطار الاسلامية ، ملما بما في العالم من بحوث جديدة وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الاديان . فهو ممن أوتي الحكمة ورزق الخير الكثير

وقد كان — بلا شبهة — أكبر المدافعين عن قواعد الاسلام وأشدهم غيرة عليها ، فنى في خدمة دينه وجاهد في الله حق جهاده وأوذي في سبيل مبادئه وصبر وصابر إلى أن توفي رحمة الله عليه

كان خصوم السيد رشيد ثلاث فرق : فريق الملحدين الذين لا يؤمنون بدين . وفريق أهل الكتاب من غير المسلمين . وفريق من المسلمين الذين جمدوا على أقوال الناس وابتعدوا عن معرفة السنن وعن هدي القرآن ، وقد جاهد هذه الفرق جميعها ، ولقي من الفريق الثالث أشد العنت وأشد المقاومة ، لان بيده سلاحا من أشد الاسلحة خطراً أمام العامة هو سلاح اتهام السيد رشيد بالكفر والزندقة في الاسلام ، والدليل بيد هذا الفريق قائم وهو عدم موافقة السيد رشيد لمن يعتقدهم العامة ويقدسونهم ، وكيف يكون السيد رشيد على الحق مع أن فلانا وفلانا لا يقولون قوله ولا يعملون عمله ؟ وإقناع هؤلاء يحتاج الى زمن طويل أطول من عمر السيد رشيد ، لكن الحق الذي يؤيد السيد رشيداً أقوى من هؤلاء جميعهم

لذلك ظفر السيد رشيد وكثر أنصاره ومريدوه بعد أن كان قليل الانصار قليل المريدين ، ووجد في الاوساط العلمية من اتخذ مبدأه وقفى على طريقه ، ووجد في العامة من تفتحت أعينهم للنور ، وزالت عن قلوبهم غشاوات الجهل والباطل

ولم يكن للسيد رشيد مبدأ جديد في الاسلام حتى يصح أن يقال ان له مذهبا ينسب اليه ، بل كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف : التحاكم إلى الله ورسوله عملا بقوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف أيضا تخير الاحكام المناسبة للزمن والنافعة للامم في مواضع الاجتهاد وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف في كل مايتعلق بذات الاله سبحانه وصفاته وكل

مايتعلق باليوم الآخر ، فهو رجل سني سلفي يكره التقليد وينادي بالاجتهاد ، ويراه فرضا على نفسه وعلى كل من قدر عليه

من الحق ان نعد السيد رشيداً من المجددين وان نعده من المجاهدين في احياء السنة . ومن الحق إن نعتبر بما كان للسيد رشيد من اناة وصبر في البحث والقراءة والتأليف والفتوى والمناظرة ومن الحق أن نذكر أن هذه لاعمال الصالحة التي قام بها احتسابا وأداها في سبيل الله

فرحمة الله علي السيد رشيد وجزاه الله عن الاسلام احسن مايجازى به رجل وهب حياته للعلم والدين

تعزية ملك العربية السعودية
وولى عهده

الرياض في ٢٥ جمادي الاول سنة ١٣٥٤
حكومة الحجاز :
المنار محمد شفيع رضا — القاهرة
اسأله تعالى ان يحسن عزاءنا وعزاءكم بفقيد الاسلام والمسلمين وان يعوضه عنا بجناته ورضوانه وان يعوضنا في الله من يقوم مقامه في خدمة هذا الدين والدعوة الى الله .

عبد العزيز

• • •

جـده فى ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣٥٤
المنـار محمد شفيع رضا — القاهرة
ان مصابنا ومصاب الاسلام بفقد والدكم السيد رشيد عظيم جدا أسأله تعالى ان يتغمده برحمته وان يعوضنا عنه خيرا بفقده .

سعود

قصيدة الأستاذ الهراوي

أي صرح هوى وحصن حصين ... ولواء طوته ايدي المنون
وكتاب في الرشد يهدي إلى الر ... شد وسيف مهند مسنون
مات رب المنار والامر لله ، ... وما مات غير داع أمين
عاش لله مخلصا في جهاد ... نصف قرن مبارك في القرون
ومضي باليراع يدعو إلى الحـ ... ـق وبالقلب واللسان المبين
لا يطيق السكون في حرج الدين ... ـن ويمضى يرح أهل السكون
لم يدع راحة له أي حين ... وهو في حاجة لها كل حين
طاح بالقلب حين أودي به الجهـ ... ـد وجهد الغيور نار أتون
فقد العلم منه أي كتاب ... فقد الدين فيه أي معين
شعر الناس باحتياج اليه ... بعد ان لم يروا له من قرين

* * *

عز عن صاحب المنار حمي الشـ ... ـام وعز الاحساب في « قلمون »
بلدة في ذرى طرابلس قرت ... من طرابلس غرة في الجبين
بلدة أنجبت إلى الشرق قوما ... هم نجوم الهدى وأسد العرين
غاب عنها منارها فتوارت ... من جوى الحزن بالسحاب الجون
بعثتني جماعة الفضل في مصـ ... ـر رسول القريض في التأبين
بعثتني لاندب العلم والدين ... وابكيهما بدمع سخين
بعثتني وساقها حسن ظن ... في ضعيف ينوء تحت الظنون
ولعمري لو لم تكن بعثتني ... لرأتني بالدمع غير ضنين
فلقد كان بي حفيا وكانت ... بيننا عروة الوداد المتين (١)
عقدت بيننا المودة قربى ... زاد توثيقها توالى السنين

(*)

(١) كان الفقيد يلقب الناظم بشاعر الشرق والاسلام

شيبتني مواقف الحزن تترى ورثاء الخدين إثر الخدين
ووقوفي على الربوع الخوالي وبكائي السكان بعد السكين
والتياعي على أيامى تخلت عن حماها يد الكفيل المعين
ويتامى تذوق في العيش بؤساً بعد خفض من الزمان ولين
برح الحزن والجوى بفؤادي قرح الدمع والبكا من جفوني
من مجيري من بعدها ومقيلي من وقوفي بطرف باك حزين

« * »

ياغريب الديار لم تفقد الاهـ ل فما مصر غير أم حنون
جئتها عالما وطالب علم فتلقتك في الحشى والعيون
ياربيب الامام في مجلس العلم وفي موطن الهدي واليقين
كنت أوفي بنيه حفظا لذكرا ه وابقى على الوفاء المصون
لم تفارقه في الحياة وميتا لم تفارقه في الثرى السكون
فسلام عليك حيا وميتا وسلام على الامام الدفين

الحاج محمد الهراوي

خطبة الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني

أيها السادة :

كان لصاحب المنار منذ عرفته مصر وجود قوي ، وشخصية بارزة ، امتد صوتها الى الأقطار العربية والاقطار الشرقية بل كان لهذا الصوت أثر في بعض الامم التي ليست شرقية ولا اسلامية ، لان الابحاث التي تعرض لها صاحب المنار وان اتصلت بالشرق وبالاسلام اتصالا قويا ، فانها متصلة بالغرب

أيضاً ، لأن عيون الغرب لا تنام عن المسلمين ولا عن الشرقيين

اشتغل صاحب المنار طوال حياته بقضية الاسلام وقضية العرب ، وبما يتصل بالاسلام من امر الخلافة ، وبما يتصل بالعرب من هجمات الاستعمار ، ولم تحرم مصر من زعامة السياسة في ظروفها المختلفة فكان بهذا كله لمصر، وللشرق وللاسلام والمسلمين .

أيها السادة :

ليس في وسعي أن أوفي صاحب المنار حقه في مثل هذا الموقف ، ولكني أردت أن أساهم مع المساهمين ، وفاء لحق الصداقة ، وتقديراً لتلك الشخصية النادرة.

عرفت المغفور له صاحب المنار منذ ابتدأ الاستاذ الامام — رضوان الله عليه — دروسه في الازهر ، ولم يكن صاحب المنار في ذلك العهد يدهشنا بوجوده العلمي ، لان طلاب الشيخ جميعا كانوا يغترفون من بحر واحد ، وأن تفاوتت مراتب جهودهم واستعدادهم

ولم يكن لصاحب المنار ميزة في ذلك الوقت سوي أنه كان يكتب مايلقيه أستاذنا علينا ، وقد كان مثل هذا العمل في نظر الازهريين عملا عاديا لا أثرا لموهبة خاصة ، ولا لنبوغ ممتاز

تآخينا وتآخي معنا السيد رشيد بحكم صلة الدرس العامة ، وبقدرها ، وكان هذا لايمنع بعضنا من توجيه النفس الى السيد رشيد ، توجيها خاصا كلما ظهر السيد رشيد بموهبة ممتازة ، قد يطول الحديث عنها ، حتي هوجم الاستاذ الامام في آرائه الدينيه والاصلاحية ، مهاجمة عنيفة ، من كل القوى التي توفرت لها عوامل الكيد والاستبداد ، واذا بالسيد رشيد يبرز في وجوده القوي لمناصرة الحق ، والوقوف في وجه هذه الجيوش الحاشدة ؛ فاخذ السيد رشيد يواجه خصوم الشيخ بقلمه ولسانه ، وينشر في مجلة المنار آراء استاذه واتجاهاته ، وما كان يتلقاه من دروس شيخه وكان يعلق عليها بعبارات من عنده تدل على كمال الفهم واستقلال الفكر ، وكذلك كان أمر السيد رشيد في كل ما كان يكتب من مقالات

وما يدون من ابحاث لأن أسلوب الاستاذ الامام خلق ممتازا ، وسيبقى ممتازاً

مات الاستاذ الامام ، وللسيد رشيد في نفوس اخوان الشيخ وابنائه منزلة سامية ومع سمو هذه المنزلة لم يخطر ببال أحد أن السيد رشيدا سيرث الشيخ فيما كان يدعو اليه ، وانه سير تفع صوته في بلاد الاسلام النائية ، ولكن ابي الله سبحانه الا أن يسير السيد رشيد بخطى واسعة الى الامام وقدر الله لصوته وهو على منبر مناره أن يدوي في بلاد الاسلام والشرق ، ولم يعتر جهاده في سبيل العلم والدين بعد وفاة شيخه مع كثرة المخاطر شيء من الوهن والفتور

ولاجرم ان هذه الميزة هبة الهية لا تمنح الا للقليل من افذاذ الرجال ، لان حياة الاستاذ الامام كانت قوية في مصر وفي غير مصر

لهذا كان بقاء صاحب المنار ثلاثين عاما بعد وفاة شيخه في وجوده القوى يصدعادية جيوش الباطل التى لم تفتر ولم تنم ، دليلا ملموسا على أنه من الافذاذ الذين بخل التاريخ بالكثير من أمثالهم ولعل أكبر شاهد على ذلك ان مهمة السيد رشيد العلمية لم يستطع الى الان ان يقوم بها فرد أو جماعة على كثرة العلماء والكاتبين

أيها السادة :

ان لصاحب المنار — رحمة الله عليه — من حياته العلمية آثارا كثيرة وجوانب قوية ، لا استطيع ان أوفيها حقها .

وقد اردت ان تكون كلمتي فيه الآن مقصورة على علمه بالقرآن وبأسرار القرآن ، لأن صلتي به لم تتأكد الا من درس التفسير على الاستاذ الامام ، ولان آثاره في تفسير القرآن هى اقوى الآثار واظهرها في الاقناع والالزام ، ولان مفسر القرآن اذا أخلص وصدق ! استحق الثناء الخالد لأنه بصدقه واخلاصه يشرف عقله على الوجود ، وعلى ماوراء الوجود ، وقد تحقق ذلك للسيد رشيد رحمة الله عليه

فالقرآن كتاب الوجود ، وكتاب ماوراء الوجود ، وكل من جهله واتجه الى غيره مهما كان قويا في نظر نفسه ، وفي نظر أمثاله ، فحياته غير صادقة وسعادته لا ضمان لها ، ولا استقرار ، بل المسلمون اذا أخلصوا للقرآن فهما وعملا

وعرضوا جواهره السماوية على عقول البشر ، فقد ملكوا كل شيء ، لان العقول من مادة السماء ، ومادة السماء اذا تركزت في الارض محال ان تطغى عليها شهوات النفس الترابية .

والانسان اذا أهمل فهم القرآن والتبصر فيه وقد أحاط بما في الارض علما ، فليس من الله ولا من الوجود الحق في شيء لحصر العقل في جزء صغير من الوجود يستخدمه في حياته المادية لايصور الحقيقة ولايحقق معنى الحياة والسعادة ، اذ الحياة الانسانية مسبوقة بوجود لانهائي و بعدها وجود لانهائي .

ومن حق العقل أن يفكر طويلا في ذلك الوجود اللانهائي ، هذا لا يتم الا بفهم القرآن ، ومن أجل ذلك يقول الله تعالى : (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ويقول : (وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)

أيها السادة

ان لاهل القرآن وأنصاره مرتبتين : المرتبة الاولى — في فهم معانيه الصحيحة وامتزاجها بالعقل والروح والنفس ، فيشع منها النور والقوة بحيث يعملان عملهما في الوجود بقدر الطاقة البشرية ، وهذه هى مرتبة النبى ﷺ ومرتبة الصديقين من أصحابه وأمته الى يوم الدين

المرتبة الثانية — هى فهم معانيه فهما صحيحا ، وامتزاجها بالعقل ، و بالنفس في أغلب أحوالها ، وهذه هي مرتبة كبار العلماء والصالحين مع ما في كل من المرتبتين من المنازل المتفاوتة بتفاوت الاستعداد ، وصفاء الجوهر

واني أومن ايمانا قويا بأن السيد رشيد قد تمت له المرتبة الثانية في أرقى منازلها وارجو ان يكون له نصيب من المرتبة الاولى

أيها السادة

اذا علمتم ان القرآن هو كلام الله ، وانه كتاب الوجود ، تعلمون مقدار ما بذلته وتبذله العقول في استخراج جواهره منذ أنزل الى اليوم ، ولا يتم للعقل استقصاء كل ما فيه وتحديده بالدقة مادام الوجود قائما ، ولكن العقل

يأخذ منه ما يستكمل به وجوده، وطمأنينته في الدنيا والآخرة على قدر فهمه

ومن هنا تعددت آراء المفسرين لاختلاف وجوه النظر، ولذلك كان تفسير القرآن في أكثر العصور فن علم وجدل، مع أن التفسير يجب أن يكون زبدا مستخلصا بالمقاييس العلمية الصحيحة المستمدة من الفن والبحث، كما أن التفسير الذي لا يعتمد على مقاييس العلم والعقل، لا يسمى على الحقيقة تفسيرا للقرآن الكريم. ويجب أن يدخل في مقاييس العلم ما يستظهره العقل من أسرار الوجود بالدلائل القاطعة، وليس من التفسير مظاهر الحياة التي تعتمد على نزعات النفس في انسانيتها الضعيفة المضطربة

وهذا هو ما وفق اليه الراحل الكريم في تفسيره للقرآن، وفي علاجه للابحاث الدينية، فقلما كان يتعرض السيد رشيد لبحث لا يتصل بالقرآن اتصالا جوهريا الا بقدر ما تمس اليه الحاجة

وكثيرا ما كان يتعرض لاقوال المفسرين، وما يستدلون به، ولكنه لم يترك القرآن في المكان الذي تتجاذبه فيه الآراء كما فعل أكثر المفسرين، بل كان في تفسيره يستخلص القرآن للعقل مؤيدا للغة وبالشواهد والادلة من ظواهر الوجود.

وأول من فتح هذا الطريق وعبده الاستاذ الامام رضي الله عنه، وقد سار فيه تلميذه صاحب الذكري شوطا بعيدا انتهي فيه الى آخر سورة يوسف عليه الصلاة والسلام، وقد فسر من القرآن على هذا المنوال الحكيم اثني عشر جزءا وهي أصعب أجزاء القرآن فهما واستنباطا وكان آخر آية فسرها من سورة يوسف ومات على أثر تفسيره لها قوله تعالى: « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث، فاطر السموات والارض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما، والحقني بالصالحين »

ولقد فاجأته المنية. والمؤمنون الصادقون، والعلماء المخلصون المستعدون لفهم القرآن على وجهه، وتذوق حلاوته وتلمس بعض وجوه اعجازه هم وحدهم الذين يقدرون خسارة العلم والاسلام الفادحة بفقد صاحب المنار

وإذ كانت هذه هي منزلة السيد رشيد من تفسير القرآن الحكيم ، وهو غاية الغايات والشغل الشاغل للملأ الاعلى في السماء وفي الارض ، فماذا يبتغي آل السيد رشيد له وأصحابه له من المنزلة الرفيعة ؟

رحم الله السيد رشيدا بقدر ما ضحي وبذله من جهوده ، وأفاض عليه من كرمه الواسع ما يفيضه على المخلصين من حفظة كتابه ، وأسكنه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فقيد الاسلام السيد محمد رشيد رضا

ومدرسة دار الدعوة والارشاد

كلمة الاستاذ عبد السميع البطل في حفلة تأبين الفقيد

إن طريقة الوعظ والارشاد ، ليست من الصناعات التي يستطيع كل انسان أن يزاولها في مهارة وحذق ، ولكنها ملكة من الملكات التي قد يحسنها قليل العلم ، ويتخلف عنها أكثر الناس تحصيلا ، وقد نشأ فقيدنا ونشأ معه الميل إلى وعظ العامة وارشادهم ، بما كان يتصدي له أولا في صدر شبابه من قراءة الدروس في قريته القلمون من أعمال طرابلس الشام ، ثم بما كان من انشائه المنار ثانيا ، واستهدافه بالاجابة عن الاسئلة التي كانت تتحدر اليه كالسيل من الشرق والغرب ، في المسائل المنوعة ، وجرأته وصراحته في تقديم النصيحة للملوك والامراء وكبار الحكام والعلماء — إحياء لسنة السلف — مما جعله أندي العلماء صوتا ، وأبعد المصلحين صيتا ، وأسير المجددين ذكرا ، وأكثر الكتاب أثرا .

وقد قويت رغبته في أن يتولى هو نفسه تربية طائفة من الشبان يصنعون على عينه ، يقوم بعضهم بواجب الدعوة الى الاسلام ، ورد شبهات المعترضين عليه ، متسلحين بما يتسلح به أمثالهم من رجال الدعوة في الامم الراقية ، من الجمع بين علوم الدين ، وما لابد منه من علوم الدنيا ، ويقوم الفريق الآخر بارشاد المسلمين إلى ما هو أجدي عليهم في دينهم ودنياهم ، مع خبرة بحال العصر ، وما ينبغي أن يكون عليه المرشد من مسايرة الزمن .

كانت هذه أمنية تعتلج بنفسه منذ كان يتردد وهو طالب بطرابلس على مكتبة

المبشرين الامريكيين ، يقرأ جريدتهم الدينية ، و بعض كتبهم ورسائلهم ، ويجادل قسوسهم .

وفي سنة ١٣٢٧ كان الخلاف بين الترك والعرب مستمرا ، فرأى أن يشخص إلى الاستانة ليقضي على عقارب الفتنة ، متوسلا إلى ذلك باتصاله بكبار الدولة هناك ، و بما كان يكتبه من مقالات في جريدة اقدام وجريدة كلمة الحق ، ثم في جريدة الحضارة ، ولشيء آخر شغفه حبا ، وكان مستهاما به صبا ، وهو تأليف جماعة لانشاء مدرسة للدعوة والارشاد .

اختار إمامنا أن تكون الاستانة مشرق ذلك النور ، ومبعث هذا الاصلاح ، وقبلة التأليف بين العرب والترك ، ليكون المشروع بنجوة عن مهاب السياسة وأعاصير الفتنة ، وفي الاستانة سلخ عاما كاملا ، يروج للمشروع ، ويقنع به كبار المسئولين ، فلقي أولا ترحيبا به ومعاضدة ، وتقرر أن تكفله وزارة الاوقاف ، وتألفت الجماعة من كبار رجال الدولة للعمل واعداده في تفصيل واسع لا محل لبيانه هنا ، ولكن بعض الايدي كانت تعمل من وراء الستار للنهي عنه ، والنأي عنه ، فقضي عليه وهو جنين ، وعاد فقيدنا من الاستانة — كما كان يعود منها كل مصلح — ساخطا ناقما ، ولكنه لم ييئس من روح الله ، فجدد المسعى هنا بمصر ، وألف الجماعة ، واختير أعضاؤها من أهل الفضل والغيرة ، ووضع لها قانون من أدق القوانين ، وعلم بالأمر الخديوي عباس الثانى فأكبره ، وأظهر رضاه عنه ، وارتياحه له وأمدته الاوقاف بملغ من المال ووعدت بمضاعفته ، وتبرع له كثيرون من ذوي الاريحية ، وأجمع العقلاء على استحسانه — بله وجوبه — وفتحت المدرسة أبوابها فى ١٢ من ربيع الاول سنة ١٣٣٠ تيمنا بعيد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان السيد وكيل الجماعة وناظر المدرسة بل كان عقلها المفكر ، وروحها المدبر .

نجحت الفكرة اذا بمصر ، ولقيت معاضدة الامير واستحسان العقلاء ، ولكنها لم تنج من ارجاف المرجفين ، وأذى المفسدين ، فلبس لها بعض الجرائد جلد النمر وترصدها دعاة النصرانية ، وأنذرت القناصل دولها عاقبتها ، ان مدرسة أنشئت بمصر سيكون لها من الاثر في تنبيه المسلمين ما سيكون خطره عظيما .

كانت المدرسة ملتقى الطلبة من جميع الاجناس الاسلامية ، التقى فيها المصري والمغربى ، والشامي والفلسطيني والعراقى ، والتركى والداغستانى ، والهندي والجاوى والسومطري . وكان يفضل الاجنبي لحاجة بلاده إلي المتعلمين أكثر .

كان الطلبة فريقين ، ففريق منتسب يحضر من الدروس ما يشاء ، ويتخلف عما يشاء ، وفريق يحتم عليه حضور الدروس كلها ، ويبيت في المدرسة مكفي الحاجة من مطعم ومسكن وكتب ، وكان لهذا الفريق نظام خاص يسلكه في معيشته وتربيته ، منه أن يستيقظ طلبته قبيل الفجر للصلاة وتدبر القرآن ويؤدوا الفرائض كلها في جماعة خلف امام واحد ، ويكثروا من التنفل في الصلاة والصوم ويروضوا نفوسهم على آداب الاسلام بقوة فيتحرجون من فعل خلاف الأولى ، ومن ثبت عليه الكذب كان الطرد جزاءه ، وكانت المدرسة في قصر شريف باشا بالمنيل على ضفة النيل الغربية عند قنطرة الملك الصالح فكان الطلبة لا ينزلون الى مصر الا باذن كتابي من الفقيد ، بعدان يذكر طالب النزول كتابة سبب نزوله وموعد غدوه ورواحه وكان يقول (ان الذى يكثر الاختلاف الى القاهرة تبطل الثقة به) لذلك كنا نظل الاسبوع والاسابيع لا نغادر جزيرة الروضة وكان المجتمع بالامس غيره اليوم ، بل فوق ذلك كان يكلف كل طالب ان يحمل في جيبه مذكرة يدون فيها اعماله حسنها وسيئها ليكون على نفسه حسيبا ولاجل ذلك كان لا بد ان يجتاز الطالب سنة تسمي السنة التمهيدية لاختبار أخلاقه وتزويده بالعلم والعمل وكانت اللغة الفصحي هي لغة التخاطب كما كانت لغة الدرس ، ومن وصاياه ان التزام الفصحي يوما واحدا خير من قراءة كتاب

مضي على انشاء المدرسة ثلاث سنين الا قليلا ، ثم اشتعلت نار الحرب الكبرى وكانت ايامها النحسات ، فابعد الخديوي او كان لها عضدا ، فغلت الايدى الى الأعناق وجمدت الاكف عن العطاء واعطت الاوقاف قليلا واكدت ثم شحت بالصبابة واعتذرت عندئذ اضطرت المدرسة ان تكتفي بمن فيها من الطلبة ولم تقبل جديدا وألجأتها الضرورة الملحة اخيرا ألا تلتزم ما كانت تلتزمه من نفقة المآكل والكتب وظلت تجاهد هذا العنت في وناء وضعف سنتين ، ثم ودعت الحياة تاركة آثارا حسانا وميراثا عظيما ممن تربوا فى احضانها وعملوا جهدهم على

تحقيق بعض اغراضها ، وما أسف العقلاء على شيء اسفهم على حرمان الامم الاسلامية من ثمرات هذه المدرسة التي كانت موضع الرجاء في انتياش المسلمين مما تهوكوا فيه من مفاسد البدع والخرافات والتقاليد والعادات حتى لقد كان استاذنا يقول (لو انني كتبت تاريخا للمدرسة لكان فضيحة للامة كلها) يريد ان الامة الاسلامية المنبثة في الشرق والغرب لم تحسن احتضان هذا العمل المجيد ، والاضطلاع به في حين تنفق الامم الاخرى ملايين الجنيهات على جماعات الدعاة بسخاء واغتباط .

ولعلكم تحبون أن تعرفوا عمل السيد في المدرسة ، ولقد كان فيها معقد الأمل ، وقطب الرحي والقبلة التي تولى الوجوه شطرها ، كان لدروسه أعظم الأثر في إصلاح النفوس ، وتثقيف الألسن ، كان يدرس التفسير ، فتتجلى روح الالهام الصادق ، والبصيرة النيرة ويدرس الحديث والتوحيد والكلام وحكم التشريع ، وتعلم الانشاء ، ويمرن على الخطابة الارتجالية ، ويبصرنا بالاساليب الصحيحة وما يهجنها من دخيل أو سوقى أو مبذول أو وضع للمفرادات في غير موضعها ، وقرأ قدراً من البلاغة ، وكنا نطالع أمامه في مقالات العروة الوثقى ، ولشد ما كانت دهشتنا أول العهد به حين سمعنا لأول مرة لغة فصيحة عالية الاسلوب مرتجلة وغوصا على معانى المفرادت في دقة ، والتقاطا لفرائد البلاغة في دروس التفسير وغيرها واستخراجا لكوامن العبر من ثنايا الآيات البينات ، بل لشد ما كان عجبنا حين كنا نراه يبكي في المواضع التي تستدر الدمع ، والذين عاشروا السيد يعلمون أنه كان أسيفا رقيق القلب ، سخيا بالدمع ، سخاءه بالمال ، وكان يقول ، وكتب في (المنار والازهر) انه كان يقرأ وردسحر أول اشتغاله بالتصوف فاذا مر ببيت المنبهجة (١)

ودموع العين تسابقنى تجرى من جفونك كاللجج

ولم يبك ، تركه ولم يقرأه لئلا يكون كاذبا فيخجل أمام ربه

كان السيد مغرما بالاستطراد الطويل فى غير ملل ، فبينا يكون موضوع

(١) وكنت أود في هذا المقام لو يتسع الوقت للكلام على السيد رشيد الأديب والسيد رشد الصوفي الناسك

لدرس تفسيرا أو حديثا ، أو حكمة تشريع مثلا ، إذا به يحتال للدخول في باب السياسة أو الاجتماع أو تاريخ الفرق ومذاهب المبتدعين أو ما أشبه ذلك ، فنخرج من الاستطراد بكليات عظيمة تزيدنا بصيرة وثقافة .

وقد لا تعجب هذه الطريقة رجال التربيه الحديثة ويرونها معيبة بالمدرس مضيعة للطالب ، ولكن هذا يرجع فيما أرى إلى عدة أسباب ، فهو قد قرأ كتب المتقدمين ، وتغلغل فيها ، وهضمها ، وتمثلت فيه ، فتأثر بها ، وتلك كانت طريقتهم ، وكان ريان من العلم شبعان ، فكانت تتدافع المسائل في صدره فلا يستطيع لها كبحا ، وسبب ثالث كان أحيانا ما يصرح به ، وهو انه قليل الثقة بدوام المدرسة ويخشى أن يفوته شيء يريد أن يقوله فلاتواتيه الفرصة ،لذلك كان يتلمس الاستطراد تلمسا ، وأذكر أن بعض اخواننا من كبار علماء الازهر حملته مرةهذه الاستطرادات في مجلس معه — وكانت شفت كثيرا ممابنفسه — على أن يطلب اليه أن يعقد درسا خاصا في بيته ليلة في الاسبوع ففعل ، وكان يحضره كثير من أذكياء علماء الازهر وأساتذة المدارس العالية والثانوية والابتدائية .

ثم لعلكم تحبون أن تقفوا على شيء من حال طلبتها بعد أن آل أمرها الى ما عرفتم ، وأقول لكم ان منهم المشتغل بالتربية والتعليم ، والمشتغل بالصحافة والتحرير ، والمشتغل بالوعظ والارشاد ، والمتصل بالملوك ورجال السياسة وحسبكم أن تعلموا أن الناموس الخاص لجلالة ابن سعود أحدهم ، بل حسبكم أن تعلموا أن زعيم القدس الكبير السيد أمين الحسيني ممن يتشرفون بالانتساب اليها .

هذه لمحة خاطفة عن تلك المدرسة التى أصبحت كمنشئها في ذمة التاريخ وهناك مدرسة الفقيد الكبرى التى عكس مناره من أشعتها على العالم أربعين سنة، تبوأ فيها بحق مقام الامامة ، وخلف ميراثا عظيما يشرع للناس طرق الاصلاح، ويبصرهم بكتاب الله وهدى رسوله وقد أصبح له تلاميذ ومريدون يعدون بالالوف وصار له حزب قوى في الازهر ممن قبضوا قبضة من أثره ،وإنه لميراث

عظيم ، شغل فقيدنا حياته في جمعه وادخاره وترك ذرية ضعافا لاسند لهم إلا الله وإخلاصه ، وأقول والألم يحز في النفس ، إن المنار فلو مات بموت صاحبه أو كاد ، ولا غرو فقد كان السيد أمة وحده في علمه ، ودينه ، وكفايته وصبره ، والثقة به ، والبذل في سبيل الله ، ولسنا بواجدين من يملأ بعض فراغه في بعض ما نهد له ، وفي العالم الاسلامي علماء يعدهم الناس بالالوف ، فيالله للامة الفقيرة .

ولقد كان السيد جديدا دائما ، غير آسن ، كما كان يتجلى ذلك في كتاباته وأحاديثه ، اتصلت به ما يناهز ربع قرن اتصالا وثيقا ، طالبا وصديقا . فما أذكر أني وردت شرعته يوما - على كثرة الورود - الا وصدرت بجديد في العلم أو الأدب أو شئون الحياة ، أحسن الله عزاء الامة فيه ، وبوأه منازل الكرامة مع الذين انعم عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .



خطبة الاستاذ

محمد احمـــــــد العدوي

الاستاذ بكلية أصـول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم .

يرحم الله مالك ابن أنس اذ يقول : (لن يصلح آخر هـذه الامة الا بما صلح به أولها) . ولقد كانت هذه الكلمة دستور أستاذنا الراحل فى الاصلاح ، آمن بها ايمانا خالط قلبه ، وتغلغل فى نفسه . سلف هذه الامة صلح بالعمـل بدين الله ، بعيـدا عن تحريف الغـالين وانتحال المبطلين .

البدع والمحدثات

ومن أجل ذلك حارب البدع والمحدثات في دين الله ، ليبقى للدين جماله ، ويحفظ له عظمته وجلاله . وأي عاقل يرى ما عليه المسلمون وهم يزورون قبور الصالحين ، من تعفير للوجوه ، وتقبيل للاعتاب ، وطواف حول المقاصير كما يطاف بالبيت الحرام ، والتجاء الى صاحب القبر فى كشف الكروب ، وهداية القلوب ، والبركة في الرزق ، وما الى ذلك مما لا يتصل بالاسلام فى قليـل أو كثير ؟ ؟ — أى عاقل يرى ذلك ثم لا يندى جبينه لهذه البدع فى دين التوحيد والفطرة ؟

وهذه بدع الموالد أصبحت معرضا من معارض الفسق ، وسوقا نافقة للتجارة فى الاعراض ! وانتها كالحرمة الدين ، وهذه بدع الاذكار ومعها الطبول والمزامير والرقص والطرب ، تصور الدين أمام الاجانب

بصورة تتقزز منها النفوس ، وتجعله الى الهزل أقرب منه الى الجد !!
وهذه بدع الدجالين من محترفي الطرق ، يستغلون سذاجة الجماهير بضروب من التمويه والشعوذة : كأكل الثعابين والنار ، وطعن أنفسهم بالسلاح وما الى ذلك !

ولا تنس فعل الكلشنى ، وعمود الحسين ، ومراغة المغاورى وقبر أبى السعود الجارحى ، ومغطس الطشطوشى وصناديق النذور التى لم يأذن بها الله ، دع كتب أدعياء التصوف وما شحنت به من أباطيل كايهام الناس أن هناك حقيقة تخالف الشريعة ، ووحدة الوجود التى سرت اليهم من ديانات الهند الوثنية

فاذا جاهد الاستاذ فى ذلك السبيل فانما يجاهد لحماية دين الله من الشرك ، وذرائع الشرك ، وتطهيره من الجهالات ، ولا غنى لمصلح ديني عن خوض هذه المعركة التى خرج منها الفقيد ظافرا ، فكان سيفا من سيوف الله على رقاب المبتدعين والمضللين .

دفع الشبهات عن الدين

وكذلك كان من أهم أغراضه أن يدفع عن الاسلام الشبهات التى يوردها أعداؤه عليه ، كما أفاض في دفع شبهات الماديين كنظرية دارون وهناك قسم من الشبهات منشأه الجهل بالاسلام ، وما انطوى عليه من حكم كشبهتهم على توريث البنت نصف اختها ، وتعدد الزوجات ، والرق فى الاسلام ، وقد تجلت عبقرية الاستاذ فى هذه المسائل ، فابان حكمة الله العليا في هذا التشريع ووضع رسالة سماها (نداء للجنس اللطيف في حقوق النساء في الاسلام) وفيها تحقيق لكل هذه المسائل .

وكذلك عني بدفع الشبه التي تعرض بسبب تعارض بين نظريات العلم والدين ، وكبرى حسناته كتاب (الوحي المحمدي) الذي ألفه لمناسبة شبهة لبعض الغربيين ، على الوحي ، وهو خير مؤلف يدعى به ، إلى الاسلام ، ويدحض شبهات الماديين المعطلين ، قرظه علماء مستقلون ، وغيرهما تقريظ أستاذنا الاكبر المصلح العظيم (الشيخ المراغي) يقول فيه :

صديقي الجليل الاستاذ محمد رشيد رضا

أستطيع بعد أن فرغت من قراءة كتابكم (الوحي المحمدي) أن أقول : انكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة الى الدين الاسلامي القويم ، فقد عرضتم خلاصة من ينابيعه الصافية عرضاً قل أن يتيسر إلا لفرع من فروع الشجرة النبوية المباركة ، وقد استطعتم أن توفقوا بين الدين والعلم توفيقاً لايقوى عليه إلا العلماء المؤمنون ، فجزاكم الله عن الاسلام أحسن ما يجازى به المجاهدون ، ولكم مني تحية الاخاء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وكذلك عني الاستاذ بشرح المسائل التى أساء المسلمون فهمها ، كمسألة القضاء والقدر ، وله فيها تحقيقات علمية نفيسة تتفق وحكمة الله في تكليف الانسان وجزائه على الخير والشر ، فما كتبه السيد في دفع الشبه التي منشؤها جهل أو تجاهل بالاسلام ، أصل عظيم في الاصلاح الديني ، ودعامة لا يستغني عنها عالم مصلح ..

(إحياؤه سنة العلماء)

من أبرز صفات الفقيد إحياؤه سنة علماء الصدر الاول الذين كانوا يصدرون في فتاواهم عن كتاب ناطق ، أو سنة ماضية ، أو قياس على أحد هذين الاصلين ، واهتدى بهديهم الأئمة الاربعة ، فعبدوا لمن بعدهم طريق الاستدلال ، ولم يقنعوا بذلك ، فنهوا عن التقليد في دين الله ، وبالغوا في ذلك ، وإن شئت فقل : وأسرفوا .

نقل عن أبي حنيفه (رض) لايحل لأحد أن يفتي بقولنا مالم يعلم من اين أخذناه ، وقيل له : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه ، قال اتركوا قولي لكتاب الله ، قيل إذا كان خبر الرسول (ص) يخالفه ، فقال : اتركوا قولى لقول رسول

الله (ص)، وقيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ، قال اتركوا قولي لقول الصحابة ونقل مثل هذا أو ماهو أشد منه عن بقية الائمة .

نهى الائمة عن التقليد ، لأنهم أدري الناس بمقدار ضرره على الدين ، وأنه شلل يحول دون النشاط العلمي ، وهو إلى ذلك كله امتهان لقيمة الحجة ، وتعطيل لموهبة العقل ، ويرحم الله من قال « التقليد ابطال لفائدة العقل »

كانت هذه سمة العلماء ، لان الذي في كتب الاصول: (إن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم)

ثم خلق من بعد الأئمة خلق أغلقوا باب الاستقلال في فهم الدين، وقصروه على طائفة يحصيها العد ، وكأن القرآن الكريم والسنة المطهرة لا يصبحان عندهم شريعة دائمة !!

ولما كان أستاذنا الراحل من أئمة الاصلاح الديني ، لم يكن له بد من تحطيم السلاسل التي وضعت أمام ذلك الباب ، وقد وضع كتابا نافعا سماه « الوحدة الاسلامية » على شكل محاورة بين مصلح ومقلد وله في أوله كلمة جديرة أن تحفظ « لا إصلاح إلا بدعوة، ولا دعوة إلا بحجة ، ولا حجة مع التقليد »

لم يقف الاستاذ في أحياء هذه السنة عند ذلك الحد ، بل كان دائما ينوه بشأن العلماء الذين لهم محنة وبلاء في ذلك السبيل كشيخ الاسلام بن تيمية الذي قال فيه أحد الائمة « ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا اتبع لهما منه » وشى به العلماء لدى الملوك وولاة الامور ، ورموه بالالحاد فسجن اكثر من مرة ، ومات سجينا بدمشق وكتلميذه ابن قيم الجوزية ، كان على أخص أوصاف شيخه ، امتحن في سبيل دعوته ، وأوذي مرات ، وحبس مع شيخه بقلعة دمشق بعيد امنية

فاذا كان للاستقلال السياسي شهداء يصرعون في ميادينه ، فان الاستقلال الديني العلمي له شهداء، شهداء ، وفي مقدمتهم ابن تيميه وابن قيم الجوزية

أما إحياؤه لذكرى موقظ الشرق « السيد جمال الدين » « والاستاذ الامام » فحدث عنها ، ولا حرج فقد أحيا سيرتهما قولا وكتابة وعملا ، وكان

أظهر شيء فيه شغفه بتلك السيرة حتى لا تكاد تجلس اليه مجلسا بدون أن يسمع ذكرى الامامين أو أحدهما ، فان المصلح هو الذي يعني بسيرة المصلحين فهو يعتبر بحق محيي سيرة المصلحين ، ورافع لواء المجددين على أساس كتاب الله تعالى وسنة خاتم النبيين

* * *

دراساته العميقة

لقد عكف أستاذنا الراحل على دراسة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، دراسة واسعة النطاق ، فكان بذلك متمكنا من علوم القرآن الكريم ، كمعرفة المكي والمدني منه ، وتاريخ المصاحف ، وأوجه القراءات ، وماصح من أسباب النزول ومالم يصح ، وما دخل على المفسرين من إسرائيليات على تفاوت بينهم في القلة والكثرة ، حتى شيخهم بن جرير فكان من أجل ذلك تفسير أستاذنا الراحل نسيج وحده في سلامته من الروايات الضعيفة في اسباب النزول ، ومن الاسرائيليات التى شوهت جمال القرآن ، كما عكف على دراسة علوم الحديث ولاسيما علم تاريخ الرجال لذي عز في هذا العصر ، فكان من السهل عليه الوقوف على درجة الحديث في سرعة مدهشة ، وما احوجنا الى امام له تلك الخبرة الواسعة كفقيدنا الراحل

* * *

امراض المسلمين

وكذلك كان من أهم أغراضه بحثه عن أمراض المسلمين الخلقية والاجتماعية وفساد تربيتهم الدينية والمدنية ، فكنت تراه باحثا منقبا عن كل أولئك الأمراض ، وطرق الوقاية منها ، وهذا كتابه « الوحدة الاسلامية » يطلعك على كثير منها ، وإن أخذ الدين من طريقه الصحيح ، خير علاج لها ، وقد أعانه على ذلك خبرته الواسعة ، ورحلاته المتكررة ، فمن رحلة إلى الهند ، إلى رحلة للاستانة إلى رحلة لأوروبا ، وذلك عدا رحلاته الثلاث إلى سورية التي اختير في آخرها رئيسا لأول مؤتمر عربي ، وهو الذى نودي فيه بالامير فيصل ملكا على سورية

ثم رحلته الى الحجاز مرتين ولا شيء اعون للمصلح الديني من دراسته لاحوال المسلمين، مع ان دار المنار كانت دائماً غاصة بالزائرين من كبار العلماء، فكان ذلك كله خير معين له على القيام بمهمته كمصلح ديني، فاذا دعا الى الاصلاح، فانما يدعو على بصيرة، واذا وصف العلاج، فانما يصفه بعد أن عرف المرض.

إصلاح الازهر

هو المعهد الديني الذي مضي على تأسيسه عشرة قرون، كان فيها مشرق الثقافات الدينية والعربية. غير أنه قد طرأ على هذه الجامعة من أعراض الشيخوخة ماجعلها غير وافية بحاجيات العصر من تسليح طلابها بما يكبح جماح الملحدين، ويصد شبهات الماديين، والدعوة إلى الاسلام في الشرق والغرب واعداد طائفة لهذه الدعوة مزودة بالعلم والدين.

ومن أجل ذلك كان في حاجة كبرى إلى أصلاح طرائق التعليم ومناهج الدراسة.

وقد كان أول من أيقظ الافكار لذلك الاصلاح (السيد جمال الدين الافغاني) حينما وفد على مصر في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة، واستفاد منه بعض شبان الازهر، وتولى السعي لذلك الاصلاح مريده الاكبر وخليفته (الاستاذ الامام) وغرضه الاسمى تخريج نشء جديد من جميع الشعوب الاسلامية جامع بين التقوى والاخلاق الفضلى، وبين العلم الاستقلالي المثمر لترقية اللغة وإحياء علوم الدين، والتمكن من الدفاع الاسلام والدعوة اليه

ثم جاء الاستاذ (المراغي) وأمضى في الازهر خمسة عشر شهراً، شيخا له ورئيساً لمجلسه الاعلى، فكان محط الرجاء ومعقد الآمال، ورجل الساعة، وقام في ذلك الوقت القصير بعمل الجبابرة ثم شاء الله ان يدع الازهر قبيل أن يتم الاصلاح الذى اراده، فاضطرب الحال، واختل أمر القائمين عليه من رجال الادارة وروعت العلماء بما لم يروع به قطاع الطريق، وساعد على ذلك السياسة الدكتاتورية حتى أذن الله أن يعود للسفينة ربانها. وللاصلاح رجله. فعاد إلى

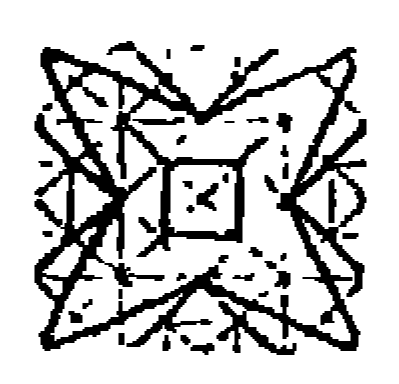
الازهر أستاذنا (المراغي) موفور الكرامة . وضاء الجبين . ففتح لطلاب الاصلاح باب الامل على مصراعيه

أما فقيدنا الراحل . فقد كان خير نصير لكل أولئك المصلحين . كان نصيراً للسيد جمال الدين . ونصيراً للاستاذ الامام . ونصيرا أي نصير للاستاذ المراغي أبلى في سبيل هذه المناصرة بلاء حسنا . وقام باوفر نصيب في ذلك الجهاد

اقرأ مجلة المنار منذ أنشئت . ثم اقرأ كتاب « المنار والازهر » الذي الفه السيد في آخر حياته . وفيه أربعة وأربعون شاهدا من دعوته الاصلاحية . الى عشرة مقاصد اتبع الازهر اكثرها . ومقدمة في ماضي الازهر وحاضره ومستقبله وجناية العهد الماضي عليه

تلك نواح لفقيد الاسلام والمسلمين في الاصلاح الديني

أسأل الله تعالى أن يعوض المسلمين فيه خيرا. وأن يوفقهم للسير على نهجه وتقدير جهاده وبلائه . وأن يجزيه عن دينه كما يجزي المجاهدين الصابرين



خطبة الاستاذ حبيب جاماتي

على مقربة من مدينة طرابلس الشام قرية صغيرة تدعى القلمون ، تشرف عليها قمم لبنان الشامخة ، وتكتنفها صخوره البارزة ، وتنشر عليها أشجار الزيتون نفحات من عبيرها المنعش ، ويخيل اليك أن القرية تزحف ببيوتها وحدائقها ، من سفح الجبل الى شاطيء البحر ، لكي تغتسل فى مياهه الزرقاء ، سعيدة بأن تنعم بكل ما يمكن أن تجود به الطبيعة علي بلدة بالجبل والسفح والسهل والبحر .

واذا مررت بتلك القرية الجميلة السعيدة ، وكنت غريبا عن الديار ، فان جميع الذين يقابلونك فى طريقك يمسكون بك ويلحون عليك بان تحط الرحال ، فتأخذ نصيبك من الراحة ان كنت متعبا ، أو تأخذ مؤونتك منها ان كنت قادما على تعب ولا يسعك إلا أن تنزل على رغبتهم ، حينذاك يسير بك القوم الى بيت المشايخ ، الى بيت آل رضا الى بيت الفقيد الذي نحيي ذكراه .

وكلمة «شيخ» ليست فى لبنان لقبا يطلق فقط على رجال الدين المسلمين ، بل هى لقب وراثي ، يطلق أيضا علي من بايعهم الشعب بالرياسة والزعامة ، فلا فرق بين رجل الدين ورجل الدنيا ، وبين المسلم و المسيحي ، وبيت آل رضا من البيوتات القليلة فى لبنان ، التى تحمل أبناؤها لقب المشيخة مزدوجا . أى انهم من رجال العلم والارشاد ؛ ومن رجال الرياسة والزعامة .

وفى قرية القلمون ، ولد محمد رشـــيد رضا ، من أسرة تنتسب الى الاسرة النبوية الشريفة .

فلا غرابة فى أن يكون الراحل قد اصطبغ بصبغة ذلك الوسط ، وأن تكون تلك الطبيعة التى ترعرع فى أحضانها قد فرغت فيه الشيء الكثير مما اغدقتــه على بلدته فجاء شامخ الرأس كجبال القلمون صلبا فى عقيدته كصخورها ، فياضا فى علمه كذلك البحر الزاخر الذي كان يجلس على شاطئه فى ريعان شـبابه ، حتى اذا ما جاء الى مصر ، أخذ من فضائها الواسع الصافى سعة الصدر وصفاءه فلعبت السياسة دورها البشع ، وأعاد التاريخ نفسه ، حقا فزحف على الدولة الفتيـــة غزاة من الغرب وهرع الاحرار المجاهدون للقاء المعتدين

وفي ٢٤ يوليه سنة ١٩١٩ كانت موقعة ميسلون ، التي كتب فيها العرب بدمائهم الزكية صفحة جديدة من صفحات التاريخ الاسلامي المجيد ، ولسان حالهم يقول :

عش كريماً أو مت عزيزاً　　　تحت ظل القنا وخفق البنود

وبعد أن دفن الاستقلال السوري في ميسلون إلى حين — قفل السيد محمد رشيد رضا رجعاً إلى مصر حيث استأنف جهاده المزدوج في سبيل الدين وفي سبيل الوطن ، إلى أن توفي وهو في حوالي السبعين من عمره .

أيها السادة :

إن حياة الفقيد الذي اجتمعنا اليوم لاحياء ذكره ، سفر ضخم يصعب على مثلي أن يختصره لكم في سطور . فكل مرحلة من مراحل تلك الحياة الحافلة بالاعمال الجليلة ، والجهاد المستمر جديرة بأن يقف المرء أمامها خاشعاً مفكراً . وكل مرحلة من تلك المراحل سيتناولها أحد الخطباء الاجلاء بالبحث والتحليل والخطب التي ستسمعونها هي الحلقات التي تتكون منها تلك السلسلة الذهبية المتماسكة التي نسميها حياة الامام السيد محمد رشيد رضا

وإن نس لا أنس ذلك اليوم من أيام أغسطس الماضي الذي سافرنا فيه معه إلى السويس . في معية صاحب السمو الامير سعود . كان السيد محمد رشيد في ذلك اليوم شديد الفرح ، يكثر من الحركة والكلام والضحك ، وكنا نتساءل قائلين « ماسبب ذلك ياترى ؟ » وما كنا ندرى أنه رحمه الله يودعنا ويودع العلم فقد توفي فجأة في الطريق ، في ذلك اليوم ، قبل أن يصل إلى القاهرة كما تعلمون

والآن أيها السادة ، إن ماقلته عن حياة السيد الامام محمد رشيد رضا ليس كل ما يجب أن يقال عن حياته ، ولكنني أديت واجباً عن نفسي وعن أخواني المسيحيين ، نحو الراحل الكريم ، ويشرفني أن يكون صوتي قد ارتفع في هذا المجمع الاسلامي الحافل ، كما ترتفع الآن رنات الاجراس والنواقيس الشرقية العربية ، في الاقطار الشرقية العربية فتمتزج بأصوات المؤذنين ، داعيه إلى التآخي ، إلى التضامن ، إلى التكاتف ، إلى التعاون . في سبيل القومية العربية .

في سبيل الاوطان الذبيحة !

ومن نيلها المبارك الوفي ، الوفاء بكل مافيه من قدسية وروعة فعاش طول حياته وفياً لدينه ، وفياً لاساتذته وتلاميذه ، وفياً لاهله وعشيرته واصدقائه ، وفياً لوطنه الاول والثاني

تلقى رحمه الله علومه في مدارس طرابلس الشام وكان أشهر اساتذته الشيخ حسين الجسر ، من كبار العلماء السوريين في ذلك العهد

وفي سنة ١٨٩٧ نال شهادة العالمية ، وقدم الي مصر في تلك السنة ، أي في شهر رجب عام ١٣١٥ هجرية ، تحدوبه الرغبة الملحة في لقاء الامام محمد عبده رحمه الله .

وصلات السيد رشيد رضا بالامام معروفة مشهورة ، وقد ظلت وثيقة لم تعتورها شائبة الى أن توفي الامام في سنة ١٩٠٥

وكان المرحوم السيد رشيد رضا قد أنشأ «المنار» في شوال سنة ١٣١٥ أي في مارس ١٨٩٨

ومنذ أن وطئت قدماه أرض مصر الى أن توفاه الله فيها ، ظل يجاهد ويناضل في سبيل دينه ، دون أن ينسى وطنه الاول : فقد عاد الى سورية بعد الحرب العظمي مباشرة ، ونظرا الى مكانته السامية في النفوس ، انتخبه السوريون رئيسا لمؤتمرهم الوطني ، الذي اجتمع في دمشق ، سنة ١٩١٩ ، وقرروا اعلان استقلال سوريا كدولة عربية ، ونادى بالمغفور له فيصل أبن الحسين ملكا على السوريين وكان لآراء السيد محمد رشيد رضا ، ونصائحه ، وارشاداته ، فضل كبير في نجاح تلك الحركة المباركة

ولكن الاقدار لم تلبث ان قلبت لسورية المجاهدة الناهضة ظهر المجن .

قصيدة الشيخ اسماعيل الحافظ

في تأبين السيد الامام

محمد رشيد رضا رحمه الله

داع الى الحق غالت صوته النوب ... أصيب في فقده الاسلام والعرب
وكوكب من سماء الفضل حين هوى ... هوى منار الهدى وانثالت الكرب
وأصبح المجد مهجور الحمى وبكى ... من ثكله شرف الاعراق والنسب
قضي الامام فوجه الحق مكتئب ... مما دهاه وطرف الهدي منتحب
والحزن مستعر النيران متصل ... والصبر منقطع الاوصال منقضب
والزهد والرفد والارشاد في ترح ... والبر والدين والاخلاق والادب
ومعقل العلم والعرفان مضطرب ... يكاد من برحاء الهول ينقلب
والشرق يندب والاقطار واجفة ... كأنما دب فيها الويل والحرب
يا ناعي الحي حق ما رويت لنا ... ان الامام حواه الترب ام كذب
ويح الردى كيف أخبى نجمه ومتى ... كن المنايا من الافلاك تقترب
كادت تضل عقول فيه من جزع ... تقول : هل مات أم دارت به الشهب
أم راح يبغي سماء عن سماوته ... أم استسر فقامت دونه الحجب
لا تنكروا رقدة الهادي الرشيد فقد ... اعيا وقد يستريح الدائب الدرب
دعاه ومذ لبت الالباب دعوته ... هفا بها لمغاني قدسه أرب
والبدر مهما تناهى في تنقله ... في الفلك فهو الى مغناه منقلب
لئن طوت فضله أيدي الردى فطوت ... مساعيا لم تزل ترجي وترتقب
فرب ليل طواه كله نسك ... ورب يوم قضاه كله قرب
ورب خافية الاعلام نائية ... يعيي بها الفكر ادراكا ويضطرب
القى عليها شعاعا من بصيرته ... بدت به وهي في عين النهى كثب

وهم وراءت على أنوارها الريب ورب سنة هدى قد تكنفها
كما انجلت عن سنا اقمارها السحب أعادها برزة للناس هادية
ظلت زمانا عن الالباب تحتجب ورب آيات تنزيل سرائرها
للمستريبين من تفسيرها عجب سما اليها وعانى سترها فبدا
من روعة الحق سلطان فيتئب يعنوا لها العلم منقاداً ويأخذه
يهفو لها المجد والاسلام والحسب وغارة في سبيل الله ظافرة
من حزمه وحجاه جحفل لجب قد شنها منه ماضى العزم ينجده
حتى انجلت وهو في ارحائها قطب دارت علي محور البرهان دورتها
والحق مرتفع الرايات منتصب ثم انثني وهو مخفوض الجناح تقى
رضى لغير رضى الخلاق أو غضب في ذمة الله نفس ما ألم بها
ولم يفتها من العلياء مطلب وهمة ما نأي عن باعها أمل
معالم الحق أو ضاقت به العصب هفي على القائم الهادي اذا خفيت
غلا به الجد والاقدام والدأب ومن اذا نابت الاسلام نازلة
بدت لنا فيه من آرائه شهب وان دجا الخطب واسودت جوانبه
والمقدم الندب والاهوال تصطخب القانت العف والاطماع دانية
فيه اذا جد بالمستهتر اللعب والمؤثر الجد يقضى ليله سهداً
في قوله لا ولا ينأى به رهب والقائل الصدق لا يدنو به رغب
ولا ثنى عزمه مال ولا نشب فما اطبت قلبه الدنيا بزخرفها
وروح نهضته الاقدام والغلب غايات مبدئه الايمان في عمل
عن جاهد مثله لله يحتسب سائل به الليل هل شقت غياهبه
لمثله في ذرى علياتهما الرتب وسائل العلم والعرفان هل رفعت
الا ولباه ذاك المشفق الحدب وهل شكا الوطن المحزون نكبته
يوم التناضل ما لم تكفه القضب ياصاحب القلم الكافي بمنكبته
وان جرى فهو حينا في اللها ضرب اذا انبرى فهو طورا في الحشا ضرم
اما توافت لك الآثار والكتب (أما وقتك ظبى الاقلام مشرعة)

اما اقالتك أيام محجلة | يبلى المدى وهي في آثارها قشب
لك المواقف يختال الزمان بها | والباقيات على الايام ، والخطب
السائرات مسير النيرات هدى | والساطعات وآفاق النهى كهب
والخالدات فما أن فاتها زمن | والدائبات فما أن مسها نصب
والملقيات على سمع الدرى عبرا | تمشي على ضوئها الاجيال والحقب
منار هديك برهان تقوم على | اشكاله عمد لاصلاح والطنب
وغيث تفسيرك المأثور ، سلسلة | من منبع الوحي والالهام ينسكب
ذخران للدين والدنيا اذا جليا | للناس حفهما الاعجاب والعجب
قم وانظر الشرق يصغي السمع ملتمسا | هداها وعيون الدهر ترتقب
هيهات قد خمد النور الذي ارتقبوا | وقد مضى ذلك العهد الذي طلبوا
تبكيك أبناء عدنان واخوتهم | والمسلمون اذا مستهم النوب
كنت الرجاء لهم ان اعوزت عدد | تحمي العقيدة والاخلاق أو أهب
وكنت سيفا على الالحاد ذا شطب | من الجهاد على أفرنده ندب
يبكون سعيك في تأليف وحدتهم | تقيم في نظمها طورا وتقترب
ركبت في مبتغاهم كل سابقة | واليوم بعدك لا سرج ولا قتب
فدتك من عثرة الايام شرذمة | راموا علاك فما نالوا ولا قربوا
جروا وراءك حتى جزتها رتبا | أوفت سموا على هام السهى انقلبوا
مقصرين فلم يقضوا حياتهم | كما قضيت ، ولم تذهب كما ذهبوا
ذهبت كالغيث ولى بعدما رويت | منه البطائح واهتزت به الهضب
ذهبت برا بأوطان وفيت لها | تكاد إثرك عن أوطانها تثب
غادرتها وهي أوزاع ممزقة | يعيث منتدب فيها ومغتصب
تدعوك للنجدة الغراء رازحة | يؤدها المضنيان الهم والوصب
اذا رأت بعدك الآمال مخفقة | طغى من الوجد في احشائها لهب
تؤم قبرك مثوى رحمة وهدى | للبر في لحده مغنى ومضطرب
كنز من الحكمة العلياء قد ضربت | من الجلال على أركانه قبب

يكاد حين نحييه ضمائرنا يصبو اليها صدى منه وينجذب
اذا أطافت به أوحى لها مثلا من الثبات وشملا ليس ينشعب
وان شكت خطبها كادت جوانبه تئن للخطب اشفاقا وتنتحب
يا أكمل الناس ايمانا وأخلصهم ودا وأكرمهم جذما اذا انتسبوا
من لي بأيامك اللاتي نعمت بها دهراً يظللني من دوحها عذب
أيام أرشف من صفو الرسائل أو نجوى الحديث كؤوسا ما بها لغب
واهاً لها، قد مضت فاليوم لا رسل تفي امانة نجوانا ولا كتب
أحس أن نمير الماء في كبدي يحيله الحزن جمرا فهو يلتهب
وان سوداء قلبي حين أذكرها تفور من مقلتي دمعا وتنسرب
سأحفظ العهد، فاحفظه، وانثر من فيض الشؤون رثاء ليس ينقضب
ولو نظمت الثريا في رثائك ما قضيت للحق إلا بعض ما يجب

في ٢١ رمضان سنة ١٣٥٤ اسماعيل الحافظ

تاريخ هذا العدد

الحق اننا طبعنا هذا العدد في أوائل ربيع الاول سنة ١٣٥٥ وأواخر شهر مايو سنة ١٩٣٦ وذلك لنعوض للقراء ما فاتهم من أعداد لاكمال المجلد الخامس والثلاثين .

العدد القادم

سنجعل العدد القادم خاصا ببحث اسلامي عظيم هو « المستشرقون والاسلام » وقد تولى تحريره حضرة النطاسي البارع الدكتور حسين الهراوي مفتش صحة مصر القديمة وهو المسلم العالم الغيور . وسيصدر بعد هذا العدد بعشرة أيام باذن الله .

فقيد العرب والاسلام　— ١ —

المرحوم السيد محمد رشيد رضا

كلمة سريعة [1] بقلم ابن أخيه الحزين

سألنا كثير من الاصدقاء والمحبين من مريدي فقيدنا الكبير أسئلة شتى فرأيت أن أكتب مابلي رداً على ماحضرني من تلك الاسئلة حتى يطلع عليه الجميع ولايزال القلب كسيراً والحزن عاما فمعذرة من القراء الكرام إذا وجدوا شيئاً غير ممحص والله يتولانا برحمته ويحسن عافيتنا جميعاً أنه خير مسؤول وأكرم مجيب

كيف بلغت الخبر

قرع باب مسكني في نحو الساعة ٣٫٣٠ بعد ظهر يوم الخميس ٢٢ أغسطس الماضي وكنت ممدداً في سريري بعد ماتغديت ففتحته القرينة وسرعان مادخلت علي تقول قم حالا وكلم عبده فظننت انها تقصد ابن عمي السيد عبد الغني رضا فقلت ولماذا لم تدعه للدخول علي فقالت قم فكلمه . فنهضت مسرعا إلى الباب فوجدت عبده بواب دار المنار فاخذتني رعشة الوجل لانه حضر في ساعة غير مألوف حضوره فيها وقد سبق أن حضر في مثلها يوم أخبرني بوفاة جدي ؟! فقلت ماذا تريد ياعبده قال السيد عبد الغني عاوزك ورأيت دموعه تترقرق في مقلتيه وصوته يتهدج فقلت له قل واسرع ماالذي حصل فقال « مات السيد ! »

وهنا انهمرت دموعه وأصبت أنا بذهول فدخلت غرفة النوم لألبس فقالت القرينة : ماذا حدث؟ قلت « مات عمي » وصرت لا أعرف ماذا أصنع فاردت التوضؤ فصرت ابحث عن القبقاب وهو أمامي فلاأجده، وبعد ما توضأت صرت انتقل في المنزل مفتشاً فيه عن الذي البس واين أجد البدلة والحذاء وما اليهما ولقد لقيت في ذلك عناء كبيراً

وفي اثناء ذلك كانت القرينة فهمت من عبده أن الوفاة حدث وهو عائد من

(١) نشرت في جريدة (الف باء) الدمشقية ١٠ و ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣٥

السويس وانه لايزال في مصر الجديدة . سرت في الشارع وانا أحس انني على وشك السقوط اتهادى يمينا وشمالا

في دار المنار

صعدت إلى الدور العلوي في المنزل فقابلت قرينة عمي وقلت لها نحن اخوتك واولادك فصبري نفسك وأرسلت على أثر ذلك تلغرافات للسيد محمد شفيع نجل الفقيد وكان لايزال في سورية بوجوب حضوره حالا واخبرته الخبر وأرسلت تلغرافا للصهري محمد افندي السيد بالاسماعيلية ليحضر للمساعدة في الامر وأرسلت رسولا إلى الاستاذ عبد السميع افندي البطل فسرعان ما حضر وحضر صهري في الليل ومعه الصديق مصطفى افندي ابراهيم احمد . وانتشر الخبر بسرعة مدهشة في القطر المصري فحضر بعض الاصدقاء من طنطا وغيرها وانهالت علينا البرقيات

وفي الساعة ٧.٣٠ أذاع الراديو النعي في العالم كله فقوبل الخبر بذهول ولم يستطع الناس تصديقه بسرعة فشرعوا يستفهمون تلفونيا من دار المنار

في مصر الجديدة

عندما حضرت إلى دار المنار كان ابن عمي السيد عبد الغني لايزال في مصر الجديدة مشتغلا مابين الاسعاف والقسم لاجراء اللازم بنقل جثمان الفقيد وحضر فضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية إلى دار المنار فجلس منتظراً وأمارات الحزن بادية عليه وهم بالذهاب إلى مصر الجديدة ولكننا لما اتصلنا تليفونياً بمصر الجديدة فهمنا أن كل الاجراءات تمت ولم يبق على الحضور إلا القليل من الزمن .

وصول الجثمان

جلسنا نتكلم في وقع المصيبة واستغراب ما حدث إلى أن وقفت أمام دار المنار سيارة من سيارات نقل الموتى وحمل الناس نعشاً فيه جثمان ذلكم العالم الكبير الذي طبقت شهرته العالم أجمع فانهمرت الدموع من العيون وكان يرافق

النعش جمهور من المحبين ويتقدمهم فضيلة السيد محمد الغنيمي التفتازاني وكانت دموعه قد بللت لحيته وعيونه قد احمرت من شدة البكاء والنحيب واشتد البكاء من جميع الحاضرين ولاسيما فضيلة المفتي.

فضل التفتازاني

وللسيد التفتازاني أفضال كثيرة فهو الذي حمل معظم المصاب على اكتافه فقد أسرع إلى دار الاسعاف وإلى القسم وبذل مجهوداً عظيماً في كل منهما ، ولما وصل إلى دار المنار عمل كل مافي قدرته للحصول على الاذن من ورثة المرحوم الشيخ محمد عبده بدفن عمي بجواره ففاز وسرعان ما أحضر التربية والحانوتية واتفق معهم على بناء التربة في الليل حسب الشريعة الاسلامية وفاز أعظم فوز وبالجملة فالسيد التفتازاني أسدى لصديقه الراحل أعظم خدمة بعد وفاته ولايزال يعمل لخدمة أولاده بصدق وقوة مما يسجل له بمداد الشكر الجزيل . حفظه الله وابقاه عونا للملهوف فهو أهل خير وفضل ومعدن معروف (١)

الاستاذ الطاهر

وفي أثناء ذلك كانت حديقة الدار قد امتلأت بالكراسي وازدحمت بالزوار وحضر الاستاذ محمد علي الطاهر على غير علم بالذي حصل فظن نفسه اخطأ المنزل ولما أخبره بعضهم كاد يصعق واخذ يقول لقد جئت لأزور رب الدار محدثا نفسي أنه إذا قدم إلي الشاي فانني سأعتذر عن شربه وانه على أثر ذلك سيقوم إلى الثلاجة فيحضر لي فاكهة من التي تعود أن يتعشى منها

وبعد ذلك أخذ يحوقل ويتأسف ثم انصرف إلى التليفون يخبر الذين يرى انه يحسن اخبارهم بالفجيعة فجزاه الله خيراً

الميت المجهول!!

ومما يصح التنويه به هنا أن المرحوم كان يركب سيارة مع تركيين في عودته من السويس لا يجيدان العربية وفي الطريق كان يحمل مصحفا صغيرا يتلو

(١) وقد توفي رحمه الله ولابد لنا من كتابة كلمة عنه والله الموفق

آيات الله طول الطريق الى ان أحس بتعب فطلب من السائق ان يوقف السيارة. فاوقفها وقاء بعد ماوضع المصحف في جيبه واستسمح اللذين معه بالاضطجاع قليلا لانه متعب فاضطجع ولما وصلت السيارة إلى مصر الجديدة حاولا إيقاظه فوجدا جسمه لا حياة فيه وكانت روحه صعدت إلى الملأ الاعلى فعاجا به على الاسعاف ثم ذهبا إلى دائرة البوليس فكتب البوليس محضراً بوفاة «شخص مجهول» في أول الامر ثم تدارك الخطأ

ماذا وجد معه ؟

وكتب البوليس محضراً بالذي كان معه وسلموه إلى حسين رضوان الموظف في مطبعة المنار وقد حضر وسلمني ما أمضى على تسلمه وهو محفظة فيها جنيه واحد ونظارتان ونظارة كبيرة مقربة وعمامته ومصحف وفك اسنانه ولم تصل يد البوليس إلى كيس نقوده ولا إلى قلمه ففقدا ولسنا ندري اين كان فقدهما ؟

وقع المصيبة على حرمه

ويظهر انى كنت سريعاً في اخبار حرم عمي بالمصاب وكنت أظن أنها علمت به من ابن عمي قبل وصولي وكان غرضي أن أصبرها وبعد ما كلمتها بما قدمت نزلت لارسال التلغرافات ولتدبير مايلزم فحضر إلي الخادم وقال إن الست أغمي عليها فوقعت في مشكلتين ، ولما صعدت وجدتها في حالة حزن شديد وبكاء وليس ثمة إغماء والحمد لله فهدأت نفسها بما حضرني من كلمات وكانت عندها الغسالة وقد تركت الغسيل وهي تنتحب وعلى أثر ذلك حضرت قرينتي فاشتد البكاء منها فزجرت قرينتي وقلت لها يجب أن تتحملا المصيبة بصبر عملا بوصايا الفقيد وتركتها ونزلت لعمل مايلزم

سمو الامير سعود

وكان عمي رحمه الله قد دعا سمو الامير سعود الى دار المنار فى مساء يوم الاربعاء ٢١ اغسطس الماضي لشرب شيء من المثلجات لما لم يتيسر ان يقبل الامير دعوة للغداء أو العشاء لارتباطه بمواعيد سابقة. وقد خاطبه فى ذلك عند سفره الى أوربا ويوم حضره منها وكان فى طريقه

الى فلسطين والشرق العربي فوعده بالقبول وترك التدبير لسيادة الشيخ فوزان السابق معتمد المملكة العربية السعودية في مصر

ولقد عني رحمه الله باصلاح مكتبه ومدخل داره استعداداً لاستقبال الامير والح على أولاده بسرعة الحضور من سورية لاستقبال الامير ولكن مرض ابنه المعتصم أخر حضورهم . وقد عاد من سورية قريباً وهو في دور النقه والحمد لله

وحب عمي لآل سعود يعرفه كل الذين يترددون على دار المنار وحبه للامير سعود عظيم جداً فقد كنت كلما ازوره يحدثني عن مقابلته للامير وشغفه بادبه وخلقه وحيائه وصلاحه وتقواه وجمال وجهه، واذا سمعته يتحدث عن كل ذلك احسست بأن لعابه يسيل متحركا بالشهد ولاسيما اذا حدثك عن الحفاوة التي لقيها الامير فى أوربا واجوبته لملوك أوربا ورؤساء جمهورياتها وكبار رجالها وكيف كان يفاخر بالاسلام ومامتاز به من المزايا

يود الانفراد بالامير

وكان رحمه الله يود الانفراد بالامير للتحدث معه فى بعض الشؤون ولكن الامير اعتذر بضيق وقته وبانه يود سرعة العودة لتغيير ثيابه والوضوء والصلاة ثم هو يود حضور حفلة وفاء النيل تلبية لدعوة سعادة المحافظ . وعلى ذلك قال للسيد : اذا بقيت مصمما على السفر غداً فتحضر الى الذهبية في الساعة الرابعة صباحا ونجلس معاً في تلك الساعة الهادئة وسأرسل اليك سيارة خاصة

لم يذق طعاما

وقد جرت عادة المرحوم ان يستيقظ قبل الفجر للتهجد ثم يصلي الصبح في اول وقته وينام بعد ذلك قليلا ولكنه فى صباح الخميس انتظر السيارة بعد الصلاة فحضر الشيخ فوزان السابق فركب معه

الى الذهبية وخرج ولم يذق طعاما في داره

ولما اختلى بالامير وافضى اليه بما رآه لازما طلب منه الامير ان لا يسافر معه الى السويس وطلب مثل ذلك من السيد محمد الغنيمى التفتازاني والح فى طلبه حتى كاد رحمه الله يغضب منه ولكن ذلك كله لم ينفع وركب السيارة الى السويس وفى السويس اختلى مع الامير مرة ثانية مدة طويلة وبعد تحرك الباخرة فضل الرجوع حالا الى عمله فى دار المنار وفعلا ركب السيارة عائداً فوصل الي داره محمولا على النعش ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

استأذن القرينة

ولا يفوتني ان أقول إنه استاذن قرينته بالسفر فاذنت له في ذلك ولو استأذن طبيبه الدكتور أحمد عيسى بك لما أذن له لانه يعلم أنه مصاب بتصلب الشرايين والروماتيزم وضعف القلب وكان قد نهاه عن اجهاد نفسه مدة طويلة ولكنه سمح له بالعمل بعد ذلك، اما السفر بالسيارة عن طريق السويس فانه ما كان يأذن له به ولكن هكذا شاء الله ولا راد لمشيئته

كيف قضى ليلته

ولما حضر الى الدار جثة هامدة وأنزلناه من النعش في الدور العلوي رأيته كأنه لا يزال حيا ومددناه فى غرفة الاستقبال وكنت أظن أنه ربما يستيقظ قريباً لأن شكله لم يتغير مطلقاً وفى الليل دعوت حضرتي الدكتورين الفاضلين الدكتور شهبندر والدكتور حسني أحمد لفحصه ولما فحصاه نصحا لنا بوضع الثلج حول جثته خشية الحر ورفع السجاجيد التى تحته وحوله فصدعنا بالأمر حالا ويا سبحان الله لقد كتب له ان يحاط بالثلج وهو الذى كان يحب الثلج حتى فى الشتاء !!

الديون باهظة

ولقد تبين أن الديون التي عليه باهظة وكان الناس يظنون أنه غني جداً وكنت انا أيضا أظن فيه ذلك ومجال الظن متسع فمكتبه رائجة

وهذا كتاب « الوحي المحمدي » طبع ثلاث مرات في عام واحد ولقد نفد من طبعته الاخيرة نحو الفي نسخة فى زمن وجيز وهكذا الحال فى كتبه وكتب الاستاذ الامام رحمهما الله . واذا راجعت الكتب فان دخلها لا يستهان به ولكن يظهر أن عدم توفقه في الادارة وكثرة كرمه أفضى به الي هذه الحالة، هذا اذا لم نقل غير ذلك. فاللهم وفقنا لوفاء دينه وألهم الذين له عليهم ديون وفاءها سريعا

دعاء مستجاب

ولقد أتم رحمه الله تفسير سورة يوسف الى نهاية الآية ١٠١ التى هى خاتمة القصة وهي قوله تعالى علي لسان سيدنا يوسف عليه السلام (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليي فى الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين) فقال رحمه الله :

« تحول عليه السلام عن خطاب والده فى بيان هذه العاقبة المثلى ، في مقام الشكر لربه وحمده وبما يناسب المقام من صفاته ، الى مناجاة ربه فى الاعتراف بها والشكر عليها ، وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا الرافعة الي منتهى السعادة فى الآخرة : لشعوره بان ماخلقه له من الخير والنعمة قد تم كما فهمه أبوه ، وكل شيء بلغ حده في هذه الحياة انتهى فقال :

(رب قد آتيتني من الملك) اقصى ما ينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه ، فجعلتنى متصرفا فى ملك مصر العظيم بالفعل ، وان كان لغيري بالاسم والرسم، فكان تصرفى مرضيا له ولقومه، ..ولم يثر على حسد حاسد ولا بغي باغ مما ذقت مرارته بمجرد تصور وقوعه علي تقدير صدق الرؤيا الدالة عليه، (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت (أنت وليي) الذى توليت ولا تزال تتولى أموري كلها فى الدنيا وفى الآخرة لا حول لي في شيء ولا قوة (توفني مسلما) لك اذ تتوفاني بما تم لي وصية آبائي وأجدادي

وهي المشار اليها بقوله تعالى(ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون)(والحقنى بالصالحين) منهم واحشرني معهم ، فهذا الدعاء العظيم ، بمعنى قوله تعالى في فاتحة القرآن (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم)أي من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين ، فنسأله تعالى ان يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الاسلام

انتهى كلامه رحمه الله واجيبت دعوته فظل يتلو القرآن الى آخر نسمة تنسمها من الحياة

المنار

وهذا آخر مانشره فى الملازم التى طبعت من الجز الثانى من المجلد الخامس والثلاثين من مجلة المنار التى نرجو الله ان يوفقنا لاصدارها ثانية ذكرى لعلمه وآثاره

فقيد العرب والاسلام

— ٢ —

كان دائم العمل

ان كثيرين من شبان اليوم وغير اليوم أيضا يكثرون من التحدث عن كثرة أعمالهم اذا كان للواحد منهم عمل منتظم في الحكومة أو في دائرة من الدوائر الاهلية وقد لا يتجاوز عمل الواحد منهم ست ساعات يعمل فيها ببطء وتؤدة وهو يستطيع انجاز عمله كله في نصف هذا المقدار من الزمن اذا أجهد نفسه قليلا

وأما السيد رشيد فقد عرفته من عام ١٩٠٧ وكنت مقيما في منزله الى أواخر عام ١٩٢٢ فكنت أدهش من عمله المتواصل يستيقظ في الصباح مبكرا جداً فيصلي الصبح حاضراً ويكون قد تهجد قسما من الليل قبل حلول وقت الصلاة ثم يستريح قليلا وبعد ذلك يجلس في مكتبه فيقرأ ويكتب ويظل على ذلك الى

أن يحضر له الفطور فيجلس الى المائدة وفي أثناء الفطور تتاح له فرصة قراءة الصحف الصباحية وبعد ذلك يرجع الى مكتبه الى أن يحين وقت الغداء فيتغدى ثم يأوي إلى فراشه قليلا وبعد ذلك يصلي العصر ثم يذهب الى مكتبه للعمل وقد يستمر في عمله الى ساعة متأخرة من الليل وفي أثناء الليل يصحح كثيراً من المسودات التي جمعت من مجلته (المنار) او مؤلفاته المختلفه أو ما يطبع في مطبعة المنار من كتب النجديين او ماشابهها مما يحتاج للدقة في المراجعة من جهة سند الاحاديث أو صحة النقل أو وجاهة الرأي

قلت إنه ينام بعد صلاة الفجر والواقع أنه ينام احيانا وأحيانا يخرج الى النزهة في تلك الساعة الهادئة وكثيراً مايذهب الى مسافات بعيدة جداً ويصل احيانا الى الاهرام والناس نيام ثم يعود ماشيا أو راكبا وقد اتخذ هذه الخطة ولا سيا عندما سكن بجوار كوبري الملك الصالح ويسير في تلك الساعة حاسر الرأس وقد يكون الجو باردا

وفي نزهته هذه يصطحب معه مصحفا أومسبحة فيتلوما تيسر له من القرآن أو يسبح الله كثيرا . ولقد اشتهرت فسحته هذه وجعلت كثيرين من أهل الاحياء المجاورة يقلدونه فيها ·

ولقد كان نشيطا في عمله في مكتبه وفي نزهته وكان يسير بقوة يعجز عنها الشبان، وأذكر أنني كنت اسير معه أحيانا وهو في الكهولة وانا في أول مراحل الشباب فما كنت استطيع السير بجواره فكنت اسير وراءه بكل مشقة وعناء ولو أنه رحمه الله نظم عمله ووظف من يريحه من قراءة المسودات واشتغل في الوقت الذي كان يشغله بالمسودات بالتأليف لزاد عمله نحو النصف ولكان محصوله العلمي أكثر مما خلفه مع كثرته وعظيم فائدته العلميه وحسن تنظيمه واتقانه وابداعه ·

الاتقان في العمل

وله ذوق مشهور في اتقان كل شيء ويتجلى ذلك في مؤلفاته وحياته العامة

والخاصة . وقراء مجلته المنار يعرفون له الفضل العظيم في وضع تلك الفهارس المتقنة للموضوعات والاعلام ولم يقصر فهارسه المنظمة على المجلة بل وضعها لتفسيره فوضع لكل جزء من التفسير فهارس منظمة تسهل على الباحث العثور على طلبته بسرعة

وعمل هذه الفهارس يأخذ قسما كبيرا من وقته لو يتيسر له العثور على من يعملها له لوفر جزءا من وقته

واذكر انني عندما كنت في داره في شارع درب الجاميز وكنت لا أزال مراهقا كنت اساعده في عمل تلك الفهارس مساعدة آلية فقد كان رحمه الله يكتبها متتابعة وكنت أتسلمها منه واقصها ثم أضع ظروفا عليها حروف الهجاء فأضع في كل ظرف الموضوعات التى تدخل في حرفه ثم أرتب كل حرف ترتيبا منظما والصقها مرتبة ثم نقدمها للطبع

وقبيل وفاته اراد أحد الاصدقاء عمل فهرس لمجلد المنار الاخير وعمله بالفعل ولكنني سمعت المرحوم ينتقد عمله بانه غير واف بالموضوعات المهمة كلها ولذلك لم يعتمد عليه فلم يطبع

هذا ولكثرة عمله كانت الفهارس تتأخر لانه ما كان يعتمد على أحد في عملها وهذا يرجع الى عظم دقته واتقانه في عمله رحمه الله

ولم تقتصر دقته على أعماله العلمية بل انه كان يحب الاتقان والدقة في ما كله ومشربه وملبسه الى درجة يعرفها كل من خالطه عن قرب أو بعد وأما إتقان مطبخه فذلك حديث الجميع حتى ان السيد محمد الغنيمي التفتازاني طالما كان يتفكه بقوله : ان الواجب على وزارة المعارف العمومية ان تعهد الى بعثة من البنات بالتخصص في فن الطبخ في منزل السيد رشيد رضا .

وكان كرمه مضرب المثل ولا يزال كذلك في جميع البلدان الشرقية فقد كان حريصا على اضافة كل قادم الى مصر، واما اصدقاؤه فقد كانوا يذهبون الى داره من غير كلفة غير أنه في أواخر أيامه كان يواظب على صيام أيام مخصوصة منها الايام البيض ولذلك كان أصدقاؤه يعنون بعرفة أيام صيامه حتى

ذا ما حضر و استطاعوا أن يأكلوا معه فيشبعوا أجسامهم بطعامه وانفسهم بعلمه ومعارفه عطفه وكرمه

ولازلت اذكر عندما كنت يافعا و كنت في داره بشارع درب الجماميز وكان الوقت وقت شهر رمضان فكان اذا أحس ان الوقت أشرف على الفجر ولم يبق مجال للأكل فكان يسرع الى ايقاظي ويحضر لي اللحم المحمر وما أشبه ويقف فوق رأسي يحثني على الاكل بسرعة فقالت مرة جدتي والدته: ان محيي الدين يجزع من رمضان كثيرا فقال لها ضاحكا : الله يحفظك ياوالدة أنت سمينة تتغذين من شحوم جسمك وأما هو فنحيف يحتاج للغذاء حتى يستطيع النهوض والعمل .

وكان كريما جداً بالمال ولا سيما في الاعياد و المواسم فكان يعطيني في العيد مالا يقل عن نصف جنيه ذهبا عندما كنت صغيرا فلما كبرت صار ينفح أولادي بالنقود وكنت أراه يعطي كثيرين من الشبان الشرقيين وطلاب العلم نقودا ولا زلت اذكر مرة أنه دفع لشاب عراقي جنيها ذهبا في أيام الحرب وكان بائسا فامتنع عن الاخذ فالح بقوة وقال له انني لا أتصدق عليك وانما يمكنك أن تحسبه سلفة من محيي الدين وعند ما توسر ترده اليه وبذلك أخذ الجنيه وهو الآن محام وكان موظفا بالحكومة العراقية في بغداد

ولطالما مد اليه كثير من العظماء أيديهم فردها مملوءة ولم يكن يذكر ذلك لاحد وانما سمعت هذا من الخادم الذي كان واسطة الدفع وهنا انقل للقراء كتابا ورد الي من الشيخ محمد بن سياد امين مكتبة الحرم المكي قال حفظه الله :

عزيزي السيد محيي الدين .

حزني على الاستاذ السيد مثل حزن الولد على الوالد فانا لله وانا اليه راجعون

كان سمع نبأ وفاته رحمه الله ورضي عنه ليلة الجمعة التي قبض فيها في جده في الراديو وبلغنا الخبر الاخ محمد افندي نصيف صباحا بالتلفون فاحسست بالمصيبة ودب الحزن في نفسي غير أني كابرت الناس فيه وانكرت وقع ذلك الخبر وكذبت الخبر بادىء بدء ثم جعلت أتمنى ان يكذب الناس معي هذا

الخبر وهيهات ان يفعل الناس ماتمثيله وقد أرغمتهم الحقيقة على الاعتراف بالواقع فاذاهم يكتبون به في جرائدهم ويتحدثون في انديتهم ويصلون على المرحوم في مساجدهم فانا لله وانا اليه راجعون فاعظم اللهم لنا الاجر واحسن لنا العزاء والهمنا السلوان ياسيد محيي الدين في هذا العالم الكبير والاستاذ الجليل والمرشد العظيم وتغمده الله واخاه الوالد المرحوم برحمته وقابلهما برضوانه وجعلهما في فسيح جنانه

اذكره رحمه الله حين كان يمدني وأمثالي من طلبة العلم المنقطعين فى أثناء الحرب العمومية بشيء من ماله الخاص وكان رحمه الله يمثل بعمله الصالح هذا ماقيل في جده الاكبر صلى الله عليه وسلم : «إنك لتحمل الكل وتكسب المعدوم» وأذكره رضي الله عنه حين انقذني من السجن بكفالته الشخصية ونعمت) يوم اعتقلني الانكليز في اوائل الحرب العمومية اعتقالا سياسيا ولولاه رضي الله عنه لامتد اعتقالي الى أواخر الحرب كما وقع لكثيرين امثالى وكذلك كان يمثل بعمله الصالح هذا ماقيل في جده الاعظم صلى الله عليه وسلم «وتعين على نوائب الدهر» وكان رحمه الله يعمل حسبة لله لاعن ايعاز من احد ولا عن مسألة وتعرض فواحسرتاه على هذا البر المجسم الذي فقدناه وواحسرتاه وكان رحمه الله ذا الجناحين يعلم علوم الدين ويفقه في أمور السياسة وما أعظم فقر العالم الاسلامي الى مثله وما أشد الخطر على الثغر الذي كان رحمه الله مرابطا عليه يدافع عن بيضة الاسلام بعد فقدانه

***

هذا ما كتبه عالم صوفي جليل وهو يكشف لنا عن ناحية كانت مخفية من نواحي عظمة فقيدنا وما انشاء دار الدعوة والارشاد الاغرة في جبينه رحمه الله فقد جمعت طائفة من طلاب العلم من بلدان الشرق أحدثوا أثراً محموداً في النهضة الاسلامية العربية

القاهرة الحزين

محيي الدين رضا

قصيدة الاستاذ

عبد الله عفيفي

مكانك لا يلج بك العثار ... تراخى الليل وانطفأ (المنار)
وغابت في مغاربها الدراري ... وحجب طلعة القمر السرار
أردد في ديار الحي صوتي ... وقد اعيت فلم تجب الديار
أطاف بأهلها الساقي فمالوا ... واذن فيهم الحادي فساروا
وفرق بينهم صدع الليالى ... وليس لصدعة الزمن انجبار
أخلاي الذين سروا تباعا ... أما لليل بعدكم نهار
برغمي أن يهز الشوق جسمي ... وقد عز المزار فلا مزار
فراقد عالم كانت مناه ... أحالت نورها البيد القفار
نعمر ما نعمر ثم نطوى ... واهون ملبس ثوب معار
ونسلك للغنيمة كل صوب ... ونخرج لا شعار ولا دثار
رويدك يازمان وما رويد! ... تهاوى الدوح وانتهت الثمار
ثوت بالكوكب الهادي العوادي ... وطال بكاتب (الوحي) السفار
فوالهفاه هل بين المنايا ... وبين حماة هذا الدين ثار ؟

***

رشيد !. وكنت اذ تدعى يلبي ... يراع فيضه نور ونار
حسام من سيوف الحق تلقى ... اليه قيادها البيض القصار
من الفردوس يسطع من شباه ... سنا ينهل أو نقع يثار
كريم لا يجور ولا يمارى ... رشيد لا يجور ولا يحار
تجرد للجهاد فلم ترعه ... كتائب للضلالة تستثار
تلقاها بعزم أحوذي ... فلا وهن ولا قلب مطار

فصال موفقا ومضى حميداً ولم يلحق به دنس وعار

***

رشيد تفجع الاسلام حزنا وناحت يعرب وبكت نزار
قوى قد كنت من أمضى شباها وكان لها بمغناك ازدهار
اذا جئت (الامام) فقل سلام من القوم الذين عليك ثاروا
هم عرفوك بعد هوى مضل وهم بعد الثلاثين استناروا
ومن تثبت شريعته تساوى لدعوته التلبث والبوار
وأفضل مصلح رجل حلاه بلاء واصطبار وانتظار
ومن راض السريرة لا يبالى أقبل الموت أم بعد انتصار
وما يخزى المجاهد أن يجازى بسوء انما العار الفرار
سلام يامحمد من وفي له من ذكرك النخب المدار

تعزية الجمعية السورية العربية

بسان رفائيل — ولاية مندوسه الارختنين

لقد شق على هذه الجمعية خبر وفاة العالم العلامة الشيخ محمد رشيد رضا فكان لهذا الخبر المشئوم أشد تأثير في نفوس كافة مناحيها ، لما كان للفقيد من المنزلة السامية في عالم الثقافة والادب العربي . إن هذه الخسارة أحدثت فراغا قل أن يسد . نظراً لعلو المقام الذي كان يتسنمه الفقيد بين ابناء أمته . بناء عليه فان جمعيتنا هذه تقدم تعزيتها الحارة إلى كافة ابناء العرب في جميع الاقطار ، وبقلوب ملؤها الأسى نشاطر عائلة الفقيد بهذا المصاب الفادح . سائلينه تعالى أن يعوض على الامة العربية ما فقدت ويسكن الراحل الكريم فسيح جنانه .

رئيس الجمعية السورية العربية
سان رفائيل « الارختنين »

مصاب المسلمين

في

أعظم علمائهم وأعقل حكمائهم

أمات السيد رشيد أقضى نحبه وتولى ، أتزلزل ذلك الطود الراسخ، أطوي، ذلك العلم الشامخ ، أيموت العلم وتتضاءل الحكمة ؟ أتدرى أيها الناعي من نعيت؟ أتعلم انك تنعي حجة الاسلام وعلامة الزمان وفخر الامة المحمدية بين الانام ، ياالهول المصاب ويا لفداحة الخطب فقد جار الزمان واستبد ، وعبثت الايام بهذه الامة التي اناخت عليها الويلات بكلا كلها ، أفي كل يوم نمنى برزء جسيم وبموت رجل عظيم ، أفي كل يوم نصاب في الصميم ؟

أيها الدهر الخؤون لقد جرت في حكمك اليوم واشتدت قسوتك ، أطفأت سراجا وهاجا كان يهتدي به المسلمون في ظلمات هذه الحياة ، ويسيرون على ضوئه في دياجي الليالي الحالكات ، أتعمد الى ذلك النور فتخمد أواره وتشاهد هذا الحال فتهتك أستاره ، تول أيها الموت كيف تجاسرت على اختطاف تلك الروح الكبيرة والاقتراب من ذلك الجسم المتأجج بحب الاسلام ، ألم يخيفك ذلك الاشتعال ، ألم تقف ولمانا حائرا أمام تلك النفس التي تسيل جزعا على تقطع المسلمين أوصالا فتنفث في كل طرفة عين من الحكم البالغة مالووعاه المسلمون لاستعادوا مجدهم الداثر وحظهم العاثر ، ألم تستهوك تلك الحكم النيرات ألم تتريث لتأخذ درسا في الرحمة والاخلاص ، ألم ترهبك تلك النفس التي كانت تغلي مراجلها في ذلك الصدر الرحب الفسيح الذى لم يتسع لغير الدين الصحيح فوعى أصوله وضبط فروعه ، ألم تفزعك تلك الحشرجة وكلها نبرات ألم وصدى أوصاب على تقهقر المسلمين وتأخرهم ، بالله كيف استطعت أن تحمل تلك الروح وقد ناء بحملها العالم الاسلامي بأجمعه ؟ تالله اني لم أكن يوما لاشعر بفراغ في جانب

المسلمين لا أرى من يسده كما أشعر في هذه الساعة ، وكل من يعرف الى أي درك وصل المسلم اليه في الانحطاط الديني والاخلاقي والادبي والسياسي وكيف أضاع حيثيته ومركزه يدرك أن السبب الجوهري في هذا التأخر المشين انما هو جهل المسلم بحقيقة دينه القويم ، ويفهم أن العالم الاسلامي لم ينجب عالما دينيا منذ أربعين سنة يصل الى درجة حجة الاسلام السيد محمد رشيد رضا ولذا فلا بدع أن تتقرح الجفون حزنا وتسيل الدموع أودية على نبراس الفضائل وسراج المعرفة ومنار السنة ونصير الحقيقة والصادع بالحق في وجه الباطل وستثبت الاجيال القادمة من هو السيد رشيد رضا لا أدري من أين أبدأ في سرد أعماله الخالدة،ولا ماذا أقول واني لفقير من المعاني وعاجز عن التعبير أن يوفي الفقيد المظيم حقه غير أن الواجب يقضي علي أن أقول كلمتي التي إن دلت على شيء فلا تدل سوى على تقديري لخسارة العالم الاسلامي بموت هذا العلامة القدير والحبر الجليل .

ولا استطيع أن أحدد أعظم عمل قام به الراحل الكريم وكل أعماله عظيمة، فالمنار مجلة العلم والدين والحكمة ، والاخلاق والارشاد والسياسة، والتاريخ والاصلاح والدفاع عن حقوق المسلمين المهضومة والادب ، مجلة كافحت تيارات الزمان واستمرت تفسر من القرآن ما أشكل على المسلمين من آياته وتحلل من حكمه وبيناته،وتنشر إعجازه وغريبه وتقرر أحكامه التي وضعها الله لعباده وتأتي بفصول من أحاديث القرون الغابرة للذكرى والاعتبار ، كم استورى الناس زنادها فأورت وطلبت الارتشاف من معينها فأروت،أفادت جميع المسلمين لافرق بين العرب والهنود والايرانيين والاتراك والجاويين والافريقيين والافرنج والصينيين ، عرفتهم أصول دينهم وافهمتهم واجباتهم،وأنارت طرقهم ومهدت لهم السبل للسير في نور الهداية،وذكرتهم بعظمة رجالهم،وترجمت حياة الكثيرين منهم لخدمت العالم الاسلامي من أول يوم صدورها إلى اليوم الذي أغمض الموت فيه عيني صاحبها فمن لنا بمن يستمر في اصدارها ؟ أليس الخطب بربكم جسيم ، من سيدافع عن المسلمين إذا ما وصمه أعداؤه بالتعصب الذميم ونسبوا إليه السخافات الرذولة والخرافات المشئومة ، من سيحيي لنا ذكر عظماء المسلمين

ويحل مشاكلنا الدينية من غيران يعتصم بمذهب دون مذهب وبتقيد برأي دون رأي ؟ من هو المفتي اليوم وقد تولى رشيد وانقضت أيامه وفي الليلة الظلماء يفقد البدر ؟

لا أدري — أأبكي موت رشيد أم أندب إيصاد أبواب المنار فقد مات بموت السيد رشيد علمان ، ورشيد عالم يتدفق علما كالسيل الجارف في اندفاعه من أعالي الجبال وقدوعى كتاب الله وفهم أسراره ودرس درساً تحليليا سنة رسول الله ﷺ فعرف صحيحها ونبذغثها،فشرع يبحث عن أمراض المسلمين حتى شخصها وأخذ يصف لهم الادوية،فمنهم من واظب على الدواء فشفاه الله، ومنهم من أهمل فأخزاه ، كم ناضل وجاهد،كم جالدو كابد، وأخيراً مات فقيراً لم يأخذ من هذه الدنيا الفانية سوى الذكر الخالد والعمل الصالح ولكنه خلف للمسلمين تركة كبيرة وتراثا ثميناً ضخما،خلف لهم أعداد المنار لجميع مامضى من سني حياتها،وخلف لهم تفسير القرآن،ذلك التفسير الذى اتبع الفقيد في أبحاثه القيمة فيه أساليب العلم الصحيح،فاثبت أن القرآن صالح لكل زمان ومكان،وماتفسير عبده إلا نتيجة البحث والتنقيب في معاجم العلوم وكتب المعارف واستنتاجات العلماء الدينيين في جميع العصور الماضية مقرونة بالآراء القويمة والافكار السليمة حذف منه الاسرائيليات وأثبت المحمديات وأحيا به سنة سيد المرسلين فاستوجب من الله الرضوان وفسيح الجنان .

ياليت شعرى أي تلميذ في هذا الوجود أخلص لاستاذه كما أخلص السيد رشيد للشيخ محمد عبده ؟فلم تكن تخلو رسالة من رسالاته من نسبة الفضل فيها إلى الاستاذ الامام حتى توج كل ذلك في تاريخ حياته في كتابه الضخم الذي سيطغى على الايام ويجتازها إلى القرون القادمة شاهدا الى الابد على مروءته النادرة واعترافه بالفضل والجميل ،وأين التراجم التى عهدناها من ترجمة السيد رشيد لحياة أستاذه الامام،فليست هذه الترجمة بتاريخ حياة فرد من أفراد الامة ولكنها خلاصة لتاريخ أمة بأسرها تمثلت في شخص الشيخ محمد عبده خاض فيها فقيدنا البحث وطرق المواضيع العلمية والاخلاقية والفلسفية والدينية والتاريخيه وأتى

في المقدمة بكلمة عن موقظ الشرق أستاذ أستاذه السيد جمال الدين الافغاني وكأنه وضع للناس حديث النهضة الحديثة في الشرق ورجالها وأسبابها وصورها في شخص الرجل الذي لا يفتر عن ذكره، ولا عن التفكر في آرائه الصائبة، واستنتاجاته الباقية ببقاء الزمان، ولقد كنت اقرأ هذا التاريخ يوما في بربرة — الصومال وعندي صديق يستمع فوقفت فجأة وانحدرت دموع عيني كالوابل الهاطل وبعد لحظة سألني الصديق عن سبب بكائي فأجبته « انما بكيت » كيف تصل يد الموت إلى عالم كهذا لا يستطيع الزمان أن يبقى حتى تنفد مادته ، اقرأ بربك كتابه « نداء الجنس اللطيف » فتعرف عظمة الفقيد إذ اثبت ما للمرأة في الاسلام من مركز ومقام، وأفهم العالم أن الاسلام لا يهضم حقوقها بل جعل لها من حماية الرجل وحماية الشرع ما تستطيع أن تعيش معهما سعيدة موفورة الكرامة ، فيالك من كاتب قوي الحجة ، سريع الخاطر ، حاضر الذهن، لا تعيقك عن إثبات الحق البراهين المعقدة تدلي بالآراء القوية والحقائق العقلية والنقلية حتى ترجع النفوس الظالمة إلى الحق وقد أرتوت عما أفهمتنا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاستدلالات المنطقية التي لا تقبل الجدل ولا النقض، ولكن واهاً لك يارشيد واهاً فقد ذهبت وأخليت الديار، وأصبحت مع الاخيار في دار الابرار، وابن نحن منك وقد بعد الدار وشط المزار وأسفاه على ذلك الرجل العظيم ، ذلك العلم الخفاق ، فقد خفت ذلك الصوت الداوي الذي طالما رن رنينه في الافاق، فاستفز الارواح بعد خمولها ، وبث فيها نشاطاً وأوجد فيها حياة ، ويشهد ابناء النيل اني في قولي لصادق ، وتشهد الجزيرة العربية وتشهد جاوا والهند، ويشهد العالم الاسلامي بفضل عالم، قلمه السيال طالما صر فوق الطروس، فحفز النفوس، وزلزل العروش، وهذب المبادي، وكون الاخلاق ، وطيب الاعمال، وأرشد الى حسن، انما كان لو لم يؤلف السيد رشيد الا كتابه (الوحي المحمدي) لكفاه ذلك فخراً واحياه الى الابد ذكراً، ولكن مؤلفاته أكثر من أن تحصى وهي أكثر من كثير أو تذكر في كلمة تأبين كهذه أكثر كلماتها زفرات، وجل جملها أنات من قلب حزين يندب حظ المسلمين، ويعرف أنه كما احتجبت جريدة

المؤيد في مصر ستختفي المنار وكما لم يقم أحد بديلا عن عبد الكريم الريفي ولا عن محمد عبد الله حسن الصومالي ولا عن الهدي ولا عن عرابي باشا ولا عن جمال الدين الافغاني ولا عن مصطفى كامل وسعد زغلول والشيخ محمد عبده، فكذا لن يقوم أحد مقام السيد رشيد رضا، ولست أقول إن العالم الاسلامي لا يكتنف رجالا أعلاما ونباريس أولي فهم وادراك، ولكني أقول إن النفوس متضائلة والأخلاق حقيرة، وأنه لا يوجد رجل يضحي بنفسه في سبيل مبدئه الديني ويعرض صدره لسهام الانتقادات المرة الكرة تلو الكرة كما فعل السيد رشيد رضا ونحن في عدن كما نستنير بمناره ونسترشد بعلمه، وطالما كتب رحمه الله المقالات وحرر الفتاوي لارشادنا، ولا يسعنا الا ان نستمطر الرحمات من لدن العلي الاعلى على روحه الطاهرة آمين.

محمد على ابراهيم لقمان
رئيس نادي الاصلاح العربي بعدن

تعزية "جمعية الرابطة العلوية"
في بتافيا بجاوة

لقد انهلعت القلوب جزعا وامتلأت الجوانح أسى وحزنا، لما أن بلغنا نعي صاحب السيادة العلامة الكبير المرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار فقد فقد العالم الاسلامي فيه علامته الكبير وحبره النحرير وحاميا عظيما عن ذماره، وذائداً عن حياض دينه وفناره، ومفخرة علمية كبرى بل تاج فخاره رحمه الله رحمة الابرار وأخلفه علينا بخير خلف وعليه فلا عجب اذا اهتزت البلاد الاسلامية أسفا وروعا وبكت الافئدة والعيون جمعا

ونقدم رقيق تعازينا في الفقيد لشعوب الاسلام والعرب عامة، ونخصص عائلة الفقيد الشريفة المصونة بأرقها راجين من المولى جل وعلا أن يمطر على ضريح الفقيد العظيم شآبيب رحمته ورضوانه ويسكنه فسيح جنانه ويخلفه على العالم الإسلامي خلفا صالحا ويلهم الجميع لا سيما ذويه الصبر والسلوان

عن الهيئة المركزية للرابطة العلوية
الكاتب الاول: السيد احمد بن عبد الله السقاف

كلمة الدكتور عبد الرحمن شهبندر
في حفلة التأبين

ابتدأت النهضة في سورية دينية كما ابتدأت في معظم الاقطار الاخرى. بسبب بدهي - وهو اعتقاد الناس أن بلاءهم من انفسهم فهم يخطئون ولكن دينهم الذي يقدسونه لايخطيء، وهم ينحطون ولكن العقائد التي توارثوها عن أئمتهم لاتنحط ، فلابد لهم والحالة هذه من أن يرجعوا إلى دينهم إذا ارادوا أن يعودوا سيرتهم الاولى من الرقي والنجاح، ففيه الكنوز المخبوءة التي تحقق لهم رغباتهم.

وكانت الحلقة التي سارت أبعد شوط في هذا المضمار في سورية مؤلفة من الاساتذة المرحومين: الشيخ طاهر الجزائري ، والسيد سليم البخاري، والشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي، والسيد علي مسلم وغيرهم ، وكان من حظي ومن حظ الاستاذ محمد كرد علي ان نلتحق بهذه الحلقة المباركة فكان يطلق علينا للتشهير بنا اسماء مختلفة آخرها اننا (وهابية) وهي كلمة لم تعن في نظرنا يومئذ الاما تعنيه اليوم في كثير من الاوساط في انها طريقة الرجوع إلى السلف والاعتماد على كتب المؤلفين أمثال ابن تيمية وابن القيم ومن حذا حذوهما من الأئمة [illegible]

معرفتي بالسيد رشيد سماعا : وفي تلك الغضون طلعت علينا من القاهرة مجلة (المنار) فعرفنا ان لنا في مصر اخوانا ينطق بلسانهم الراحل الكريم، فكنا ننتظر وصولها بلهفة وشوق لنطلع منها على أخبار الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده واخوانه السلفيين المجددين

ومع كل المقاومات التي لاقيناها في الدولة العثمانية ولاقاها اخواننا في مصر فلابد لنا من الاعتراف بانها لم تكن شيئا مذكوراً بجانب ما لقيه رجال الاصلاح الديني في اوربا، ولعل من أسباب ذلك اننا ليس عندنا « اكليروس » منظم له جيوشه وقواده ومصالحه الخاصة

أما معرفتي بالسيد رشيد عيانا فهي عقب الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ فقد جاء سورية زائراً بعد غيبة طويلة عنها ودعي الى القاء درس في الجامع الاموى فتآمر عليه الحاقدون على التجديد الديني والحرية والدستور وتألبوا عليه بصورة كادت تنتهي بسفك الدماء فما لقوه واختلقوه عليه وزوروه انهم نسبوا اليه تحليل بعض المحرمات وتحريم بعض المحللات، ولولا تدخل كبار الاحرار لكانت ثورة رجعية حمراء، وهذا درس بليغ يجب الا ينساه من وضع الاصلاح الديني الاجتماعي نصب عينيه مثلكم أيها السادة لانه يدل دلالة واضحة كيف أن اعداء الاصلاح لايتورعون عن الاختلاق والتزوير في سبيل ما ربهم، وكيف انهم يتدرعون بالدين للوصول إلى شهواتهم، وعلى كل حال فليس من الضرورة في شيء أن يكون اكثر الناس تشدقا باسم الدين بافواههم هم أقرب الناس الى الله بقلوبهم

وعالج السيد رشيد رضا الشؤون السياسية في حياته، فكان في ابان الحكم العثماني من انصار اللامركزية، وقارع الاستعمار مقارعة يشهد له بها كل من عرفه معرفة صادقة، وإن الخدمات الجلى التي قدمها في الموضوعات الدينية متعدده وجوهرية فمنها سعيه المتواصل لاظهار الصلة القائمة بين المعقول والمنقول وأنهما حليفان لايجوز أن يفترقا، ومنها نشر الاخبار الصحيحة عن أخلاق السلف الصالح التي كانت سبب عزته ومناعته، أو نقص هذه الاخلاق في الخلف الحاضر. ومنها اهتمامه بالاخلاق الايجابية - وهي الأمر بالمعروف كما كان يهتم بالاخلاق السلبية - وهي النهي عن المنكر. ومتى عرفنا أن هنالك تفاعلا شديداً بين العقائد الدينية والعقائد السياسية واتصالا وثيقا أدركنا شأن الخدمات التي أداها السيد رشيد في النهضة العربية الوطنية، وستبقى مجلة المنار التي أنشأها بجده وغذاها بعقله وعقل اساتذته وإخوانه سجل النهضة الدينية الحديثة، وإذا كان الموت درجات: موت يفرح له الناس وموت لا يتأثر به أحد من الناس فموت السيد رشيد رضا هو موت تهلع له قلوب الناس

تأبين الامام

السيد محمد رشيد رضا

بقلم سماحة السيد عبد الحميد كرامي زعيم طرابلس الشام

بسم الله الرحمن الرحيم.

اذا كانت الاعمال مرآة تنعكس فيها صورة أصحابها

واذا كانت الآثار تنطق بقيمة أربابها

واذا كانت الصفات الحميدة والمبادىء السامية والعقيدة الثابتة والايمان الصحيح تدلك على الرجل الموهوب صاحب الشخصية البارزة والعظمة الحقيقية .

فان فقيد الامة العربية المرحوم الشيخ رشيد هو ذلك الرجل العظيم والموهوب الحكيم ، واني استشهد من الوقائع بأمرين

أما الاول فتلك الابيات التي تركت دويا في جميع الاوساط وقد نفثها صدر المجدد الكبير والفيلسوف الشهير الشيخ محمد عبده رحمه الله ومنها هذا البيت :

فبارك على الاسلام وامنحه موشدا
« رشيدا » يضيء النهج والليل قاتم

فقالت جماعات ان الامام يعني بالرشيد فقيد اليوم

وقالت جماعات ان الرشيد تمود الاشتقاق العقلي فهى فعيل بمعنى الفاعل ، وكيف ما كان الحال فان الفقيد لو لم يكن ذلك الرجل لما تبادر إلى أذهان الجماعات أنه الرشيد المرجو !

وأما الامر الثانى فهو آثار الفقيد وتآليفه وإظهاره التعاليم الاسلامية الحقة بمظهرها الصحيح ووقوفه المواقف المشرفة في سبيل العروبة والاسلام ، فاذا ما كتبت

في عقيدة وإذا جادل فليقنع أو ليقنع ، فهو إذن رجل اجتمعت فيه مزايا الرجل وحلاها بغزارة العلم ونبالة الخلق وسمو المبدأ وشدة الاخلاص وأصالة الرأي حتى كاد يتهمه البعض بالشدة، وما ذلك إلا لعدم محاباته لاحد في ما يعتقد أنه حق.

وقد امتاز الامام الرشيد في ثقافته وعلمه، وتفوق بالوفاء والاخلاص، وكلكم يعرف أكثر مني كيف كان وفيا باراً اميناً لاستاذه الشيخ الامام محمد عبده على لاخص ، فعنده يتلاقى العقل بالادب ويجتمع المنطق وسداد الرأي ، ويتفق العلم مع الدين، ويكفيه فخراً أنه وضع حداً لما علق من الريب في إذهان الناشئين، ولكل ما كان يلفقه الفرنجة خاصة من أعداء الدين، وأن السيد رحمه الله قد عرف وهو غريب الدار في مصر أن يحمل الامة المصرية الكريمة تجمع على حبه واحترامه وتقديره ، وهاهي حفلتكم اليوم ناطقة بذلك الاحترام ، معلنة هذا التقدير الذى أذكره بالخير والفخر لمصر قلب العروبة النابض ، مصر الضيافة الآخذة بمن يهبط بها من رجال الادب ورجال السياسة الى الذروة العليا فتغذيهم وتقويهم وتلهمهم بما هو كامن فيها من سحر وقوة وجمال .

فاذا كان أبناء العروبة والاسلام مدينين للفقيد العظيم بما ألف وكتب ونشر فان السيد رحمه الله مدين بعظمته لمصر الخالدة العاملة على تشجيع ذوي الرغبة في خدمة أمتهم وبلادهم بما قدمت له وبما نفحته به ومدين أيضاً للعالم الاسلامى بما أحاطه به من رعاية وتقدير وبحسن استفادته من علمه وفضله .

إن العروبة والاسلام المفجوعين بفقيدهما الخالد وبولدهما الامين الابر ولكن تعزيتنا أيها السادة هي في بقاء رجالات مصر وكواكبها المنثورة في سماء العبقرية فذلك يخفف عنا أعباء المصيبة بفقيدنا الذى نسأل الله له الرحمة الواسعة ، والجنة اليانعة ، كما نرجو للبلاد العربية جمعاء وحدتها الشاملة ولمصر استقلالها الكامل لتعيد مجدها الغابر، وعزها الدابر، وفى ذلك أكبر عزاء، وأفضل رجاء ، والسلام عليكم ورحمة الله

طرابلس الشام عبد الحميد كرامي

عواطف ابن زيدان

نحو فقيد الفضل والعرفان

لقد فقد الهدى اسمى فقيد ... بمصر ليس فيه سوى (رشيد)

فماد لفقده الاسلامُ حزناً ... وفقد (مناره) الزاهي المشيد

وودّ (فؤادهُ) لو كان يفدى ... فقيد بالطريف وبالتليد

ولو يعطى سواد العين فيه ... ليرجع هان في حق الفقيد

فقيد ماله خلف يضاهي ... جلالة علمه الهامي المديد

إمام كان منه الشرع يجلي ... ودين الله يسمو في صعود

إمام شاد للاسلام حصناً ... حصيناً صار رمزاً للخلود

إمام فاز بالقدح المعلّى ... وخصل السبق والشأو البعيد

إمام لايجارى في المعالى ... وماله في المعارف من نديد

لقد أحيا الانام حياةَ علم ... وأرشدهم إلى القصد السعيد

(بنيل) علومه الفياض روّى ... عطاشاً في الصدور وفي الورود

فأصبحت المذاهب منه ثكلى ... تقول لعينها بالدمع جودي

وتعلن انه قد كان فرداً ... يعز نظيره في ذا الوجود

وأن له على الفقهاء طرا ... ايادي جددت خير العهود

وأن له على الافكار فضلا ... يرد به أخا الفكر الشرود

وأن له لدى العظماء ذكراً ... يرجع مثل ترجيع النشيد

اذا ذكرت ذوو الاصلاح يوما ... فانّ فقيدنا بيت القصيد

رسا بثباته فوق الرواسي ... وفي وثباته حتف العنيد

ولم يعبأ بما قد كان يلقى ... من الأزمات والدهر الشديد

أيجهل فضله في الناس يوما وفضله ما عليه من مزيد
وهل بعد الرشيد يطيب عيش ويغتر المميز بالوجود
فآه ثم آه ثم آه على طود تغيب في اللحود
ولكن لا مرد لحكم مولى مضى طبق المشيئة في العبيد
وهل يجدي سوى التسليم عبدا يفر لدى المصاب إلى السجود
ويرجع عند ذلك إلى التأسي بمثل فقيدنا الركن العميد
عليه رضى المهيمن ما تجلت على مثواه أنوار الشهود
وفي دار النعيم يقر عيناً بما يرجوه من غان مجيد
ورحمة الله ربنا تلقى عليه أثم مطارف الذكر الحميد

ابن زيدان قاله وأمر بكتابته

خديم العلم والتاريخ

عن مكناس في ٢٥ رمضان عام ١٣٥٤ عبد الرحمن ابن زيدان

نقيب الاسرة المالكة في المغرب الاقصى

وصف المقطم لحفلة التأبين

أقيمت أصيل أمس فى دار جمعية الشبان المسلمين حفلة تأبين المرحوم السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار برئاسة فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر .

وكان في مقدمة الذين شهدوا هذه الحفلة أصحاب الفضيلة الشيخ عبدالمجيد اللبان والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ علي سرور الزنكلونى والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من شيوخ الازهر ورجال الدين .

وحضر الحفلة ايضا حضرات الشيخ فوزان السابق معتمد الحكومة السعودية وعبد القادر بك الكيلاني القائم باعمال المفوضية العراقية وحمد الباسل باشا والدكتور نمر والسيد الثعالبي والوجيه ميشيل بك لطف الله وانطون بك الجميل وخليل بك ثابت والدكتور خليل مشاقة والاساتذة خير الدين الزركلي وأسعد داغر وأمين سعيد وتوفيق بك هولو حيدر وغيرهم من أعيان السوريين واللبنانيين .

وجلس على المنصة فضيلة الاستاذ الاكبر رئيس الحفلة ومهدي بك رفيع مشكي سكرتيرها العام وبقية الخطباء مع آل الفقيد .

كلمة رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

بالقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الوطنى المفضال الاستاذ محمد على الطاهر المحترم

القاهرة — مصر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فقد تلقيت كتابكم الكريم المؤرخ في ٢٤ رجب ١٣٥٤ وفق ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ والمتضمن قيام فريق من اخواننا الاكارم بتأليف لجنة لتأبين فقيد الاسلام الكبير منشىء المنار المرحوم السيد محمد رشيد رضا

انى أشاركم فى القيام بهذا الواجب اعترافا بفضل الفقيد العظيم ومآثره الجليلة وجهاده المتواصل في سبيل الاسلام والعروبة .

وأشكر لحضرتكم اهتمامكم فى اقامة هذه الحفلة التأبينية الكبرى لايفاء الفقيد الجليل حقه من الرثاء والتأبين وتخليد ذكراه الحافلة بشتى المآثر والصفات .

واسأله تعالى أن يعوض الاسلام والمسلمين خير العوض ويجزي الراحل الكريم على ماقدم وبذل خير الجزاء .

وانا لله وانا اليه راجعون

والسلام عليكم .

رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

٨ شعبان سنة ١٣٥٤ محمد أمين الحسينى

السيد رشيد رضا

كلمة الاستاذ محمد لطفي جمعه

كل من قرأ الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تأليف المرحوم السيد محمد رشيد رضا ووصل الى صفحة ٧٩١ لا بد أن يكون اطلع على النبذة الآتية تحت عنوان (إحالة الاستاذ الاستاذ محمد عبده بعض المستفتين على مريده المؤلف) قال رحمه الله :

« واذكر من الاحياء المعروفين محمد لطفي جمعة كان كتب الى الاستاذ الامام وهو تلميذ في المدرسة الثانوية مكتوبات وأنه حضر ولقي الاستاذ واراد البحث معه في المسائل التي كانت تشغل باله وهو طالب ثانوي وقد وجدت كتابين للطفي جمعة رأيت أن أنشرهما لما فيهما من الدلالة على بحثه في زمن التعليم في مسائل فلسفية وعلاقتها بالدين ومعرفته بمكانة الاستاذ وفضله والهامه الرجوع اليه فيما يهم، ووصفه التعليم في المدارس الثانوية، وقد قابلته ولا أذكر ما دار بيننا بالتفصيل »

ورجوعي إلى الكتابين المذكورين رأيت تاريخهما ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ وإذن تكون علاقتي بالمفتي الامام وتلميذه الرشيد ترجع إلى ٣٢ سنة، وفي الخطابين تصوير لخواطري في عهد الدراسة الثانوية وفيهما بحث في الله والمادة والكون وخواطر في النفس البشرية وخلق آدم وحواء الخ.

وإذن وجب علي بوصفي من اسبق الاحياء إلى معرفته أن أفيه حقه من التأبين، وقد وقع حظي على موضوع علاقة المرحوم السيد رشيد بالمستشرقين وهو بحث غريب طريف لأن السيد لم تكن له علاقة حقيقية بأحد من علماء المشرقيات الا فيما يتعلق ببحثه أحيانا نادرة في آرائهم . وكان يقر بعضا منهم على النتائج الباهرة التي وصلوا اليها ولا سيما جولد زيهر في كتابته على السنة المحمدية، وأقول إن دراستي لمؤلفات معظم المستشرقين الذين كتبوا عن الاسلام والتقائي بعضهم في أوربا ومصر جعلتني أكون عقيدة ثابتة في أن الذين بحثوا في الاسلام منهم أبناء القرون الوسطى أمثال أديسون وباكون كانت تتأجج في صدرهم نيران الحقد والكراهية واستمرت هذه النار في صدور بعض الذين بحثوا منهم في جانب

كبير من اعوام العصر الحاضر وهم اهل تعصب وحقد على الاسلام. ثم استجد عهد ادعى فيه بعض المستشرقين التزام الحياد وفيما كتبوه وقالوا انهم خالو الغرض وبريئون من سوء النية ولم يعودوا يوجهون الى الاسلام ونبيه شيئاً من الذى اثبته اسلافهم في كتبهم الخاطئة .

وينبغي ان اقول ان المستشرقين الحسني النية أدوا أعظم خدمة للاسلام وألقوا بمؤلفاتهم وجهودهم اضواء جديدة على أصول الدين الاسلامي الذى قلب العالم رأسا على عقب . وفي مقدمة هؤلاء نولدكه وسنوك هيجرو يخبه وهما هولنديان ونيكولسون وادوارد براون الانجليزيان وجولد زيهر النمسوي وليون كايتاني الايطالى ورينان ودي ساسي الفرنسيان

اما الآخرون الذين لم تتوفر فيهم النية الحسنة ولا الغيرة الصادقة الواجبة على كل باحث علمي فقد اتاح الله اقلامهم انشر فضائل الاسلام على الرغم منهم وفي مقدمة هؤلاء مرغليوث الذي لطخ وجه العلم والتاريخ والادب بكتابه في حياة النبي لما حشره فيه من الاذكايب والباطل ، ويسرني ان أذكر أن بعض المستشرقين أمثال مويروسبرنجر وكايتاني قد سلكوا في النقد العلمي طرقا تختلف جد الاختلاف عن طرق البحث عند علماء المسلمين فوصلوا الى التسليم بصدق محمد وخلوص نيته والى التأكيد بصحة استعداده للوحي فعمدوا الى تفسير خفاياه ولكنهم عجزوا

أما المتأخرون من المستشرقين فقد استخلصوا اصول العقيدة الاسلامية وبحثوا اطوار نشوئها وترقيها وقالوا بأن بعض ما يعتقد المسلمون انه منزل من الله لم يكن غير نتيجة تطور بطيء أو تفسير لمسائل غامضة لم تكن واضحة في فجر الاسلام ونزعوا عن صورة النبى جميع ما أضيف اليها من الاساطير والروايات التى بدلت حقيقتها أو شوهتها

ثم تناولوا بالنقد الدقيق أقوال النبي وأعماله وحركاته وسكناته ووضعوا حدا فاصلا بين ما أوحي اليه وهو ثمرة الالهام وبين ما وصفوه بالمدرك التي نشأت فى عقله على أثر اتصاله بالحياة اليومية وبعد أن استن السنن واشترع القوانين ووضع القواعد لتسيير الدولة الضخمة التي انشأها

فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم يفصلون العنصر الالآهي بمعناه الواسع عن العنصر الانساني فقصروا العنصر الالاهي على أعمال لا تحتمل الشك ولا الجدل في نظرهم ورد العنصر الانساني إلى أعمال الدولة وفي أثناء حياة المرحوم الاستاذ الامام كتب جبرييل هانوتو مقالا في جريدة جورنال عن الاسلام فرد عليه المفتي رداً مفحما الزمه الحجة وارغمه على الاعتذار والتقلب في اعتذار كالافعى ثم نقل الاستاذ فرح انطون نبذاً من تاريخ ابن رشد من كتاب ارنست رينان ونسب فيها الى الاسلام أنه ضيق العطن حيال الفلسفة وأن غيره من الاديان أوسع صدرا للحكمة فانبري الشيخ محمد عبده للرد على رينان بادلة تاريخية وبراهين محسوسة حتى أزال أثر ما نسب الى رينان ومعظمه راجع الى اخطاء في الترجمة وقع فيها الناقل بحكم العجلة وقلة الخبرة . ومن غرائب المصادفات أن السيد رشيد و فرح كانا من بلد و احد وصلا إلى مصر في يوم واحد أما الموقعة الكبري بين المرحوم السيد رشيد رضا والمستشرقين فهي رده عليهم في درسهم للسيرة المحمدية وتفسير الوحي وهو يسلم بأن علماء الافرنج درسوا تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فليا ونقشوها بالمناقيش وقرؤا القرآن بلغته وقرؤا ماترجمه به أقوامهم وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد وتاريخ الاديان ولاسيما الديانتين اليهودية والنصرانية وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من لافتراء على الاسلام والنبي والقرآن فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية:

أن محمدا كان سليم الفطرة كامل العقل كريم الخلق صادق الحديث عفيف النفس قنوعا بالقليل من الرزق غير طموع بالمال ولا جنوح الى الملك ولم يعن بما كان يعني به قومه من الفخر والمباراة في تحبير الخطب وقرض الشعر ،وكان قت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات كالخمر والميسر وأكل المال بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت بعد النبوة جزموا بانه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الاربعين من عمره من رؤية ملك الوحي وإقرائه رآن وانبائه بانه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس .

أما المستشرقون الماديون فرأيهم أن الوحي الهام يفيض من نفس النبي لموحى اليه لا من الخارج وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم لمادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس،فان هذا شيء لم يثبت عندهم وجوده،وهذا

وهذا التصوير الظاهر الوحي قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون الماديين

وقد أخذ المرحوم السيد رشيد على عاتقه الرد على هؤلاء الماديين في الصفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار سنة ١٣٢١ أي منذ أربع وثلاثين سنة : فرد على من شبهوا النبي محمداً بالآنسة الريفية الجميلة جان دارك راعية الغنم بأنها لم تقم بدعوة الى دين أو مذهب وأنها كانت مصابة بنوبة عصبية قصيرة الزمن معروفة السبب وهو بغضها لاعداء وطنها الانجليز وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانجليز الذين كانوا يحاصرون أورليان فدفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة أسبوع وذلك سنة ١٤٢٩ ثم زالت خيالاتها الحماسية فهوجمت في السنة التالية ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت وحوكمت وأحرقها رجال الكنيسة الذين قدسوها بعد ذلك بخمسمائة سنة بالتمام فصارت سنة ١٩٣٠ القديسة جان دارك .

قال السيد جمال الدين الافغاني لبعض مجادلي النصرانية انكم فصلتم قميصا من رقاع العهد القديم والبستموها للمسيح عليه السلام وقال رشيد رضا للمستشرقين الماديين إنكم فصلتم قميصا آخر مما فهمتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد

والف السيد رشيد كتاب الوحي المحمدي ليرد على موتيه ودرمنجهم واضرابهما فنفى اسطورة اجتماع النبي ببحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام الذي قيل انه علم النبي

واثبت ان محمداً ﷺ خرج الى الشام مع عمه كان عمره تسع سنين وكل ماجاء فيها ضعيف الاسانيد الا رواية الترمذي.

وهذه ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن وليس في شيء منها ان النبي سمع من بحيرا شيئا من عقيدته او دينه.

وتناول مسألة ورقه بن نوفل احد اقارب خديجة وحاول بعضهم إيهام القراء أن محمداً أخذ عنه شيئا من علم أهل الكتاب، والحقيقة ان ورقة كان عند بدء الوحي اعمى ولم ينشب ان مات ،وتناول المرحوم هذه النقطة في تفسير آية

الرسول النبي الامي الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل وهـ الآية ١٥٧ من سورة الاعراف .

واسلام سلمان الفارسي وغيرها ..

ولـكن نار العقيدة ونورها تشتعل وتضيء فى صدر المرحوم عند ما يرد على المستشرق الذى قال : إن محمداً كان يجد في التحنث طمأنينة لنفسه فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبى قبيس . وهذه النجوم فى ليالي الصيف في صحراء كثيرة البريق حتى ليحسب الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة .. ومحمد في ريب من حكمة الناس ويريد أن يعرف الحق الخالص قال : جولدزيهر في كتاب «السنة المحمدية» المكتوب باللغة الالمانية والمترجم الى معظم لغات أوربا .

ليس الاسلام سبب انحطاط الشعوب المتمسكة به ، ولـكن سبب انحطاطها ضعف عقولهم واخلاقهم وخطأهم فى فهم احكام دينهم فقد أخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فوكل الامور إلى الحوادث واخطأ علماؤهم في فهم ماجاء من انهم خير أمة أخرجت للناس فظنوا الخير مقرونا باسم الاسلام ولفظه لا بروحه ومعناه ، وفي هذا مخالفة صريحة لأوامر الدين وأمثلة السنة المحمدية المفادة من أقوال النبي وأعماله .

وكذلك اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لهم فسلم جميع اموره للحكام وتركهم يتصرفون في اموره وظن ان الحـكومة يمكنها القيام بجميع شؤونه بدون معاونته أو اشتراكه .

وهذه العيوب وغيرها راجعة إلى طبائع الشعوب التي تدين بالاسلام وما ورثته من الأجيال الوثنية السابقة ، وقد مرت بها اليهودية أو المسيحية وتركت بعض آثار فيها .

وبالجملة فالأمة المنتسبة للاسلام وتكون منحطة أو مغلوبة ليست أمة مسلمة الا لفظا ، وهي في الغالب وثنية تلبس ثوب الاسلام ، لأن بحوثنا المستفيضة أثبتت لنا ان الاسلام يرفع شأن المنتسبين اليه ولا يمكن ان يخفضهم بل تخفضهم اخلاقهم وعقولهم .

كل مطلع علي آداب الافرنج يعلم أن علماء المشرقيات عنوا بغرس دوحة يانعة للعلوم العربية فلما اينعت استثمرها النابهون منهم أمثال ديجوجيه ،وجريه ونولديكه،وساسي،ورينان،وكايتاني،ونيكلسون وبراون وجولدزيهر وويلهاوزن وقد شادوا للعلوم الشرقية والآدب العربية مجداً لا يدانيه في مجال التأليف الاجلال مباحثهم، هؤلاء كلهم علماء انطوت مواهبهم العقلية علي حذق النقاد ودقتهم، وقد أطاف كل منهم سجية تطلعه حول جميع الامور من عال ودون حتى كشف لنفسه منها مبدأ .

واتفق نولدكه، وليون كايتاني، ودى جوجيه ،وويلها وزن ،وجولد زيهر وبيكلسون علي صحة سيرة رسول الله التي الفها ابن اسحق ورواها ابن هشام ولم يكن هذا التصديق اعتباطا إنما نتيجة بحث واستنباط واستقراء وقد ظهر لهم أن ابن اسحق المتوفى في منتصف القرن الثاني كان ثبتا في الحديث والمغازي ودرس على أعظم العلماء المعروفين في زمنه والف سيرته واتبع فيها طريقة الاسانيد

وقد رأينا كتابا خاصا باخبار الرجال الذين روى عنهم ابن اسحق مطبوعا في هولندا سنة ١٨٩٠ أما السيرة ذاتها فقد طبعت في أوربا سنة ١٨٦٠ وترجمت إلى بعض اللغات الأوربية ، وابن هشام الذي روى عن ابن اسحق كان مشهوراً بعلم النسب والنحو وتوفي بمصر في أوائل القرن الثالث

ان فريقا مهما من المستشرقين يستعملون علمهم وأدبهم لاغراض سياسية في الممالك الاسلامية والشرقية.فهم يتقنون اللغات ويندسون بين ظهرانيهم ويقفون على أخلاقهم وعاداتهم ونظمهم واسرار دولهم،فمن هؤلاء هيرجرونجيه الذى أقام في مكة وفى جاوى مسلما وجورج سيل أقام في مصر ومكة مسلما ، وشارل بيرتون حج والف في كتاب العرب وشعائر الاسلام كتابا ،ولين مؤلف كتاب « المصريون المحدثون » .

وكانت الحاجة الى هؤلاء الناس ماسة وأعمالهم لأوطانهم مثمرة عندما كان أهل هذه البلاد الشرقية والاسلامية متمسكين بادابهم حريصين على حياتهم القومية .

أما الآن فقد أصبح كل شيء معروفا ومعلوما ومباحا بل أصبح المسلم في هذه الايام حجة لغيره من أهل الاديان والملل الاخرى وفتنة له يضل بها عما أقام الحق من أعلامه، فاذا قيل إن الاسلام خير الاديان بل هو دين الله جاء في أكمل صورة ببعثة خاتم النبيين وأيدنا هذا القول بالف دليل — رأينا علة واحدة تهدم كل ما بني من الادلة وهي « لو كان الاسلام دينا صحيحا ماوجدنا أهله المستمسكين به في زعمهم على ما نرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول » حتى أصبحنا فتنة لغيرنا

فلما كانت سنة ٦١٠ كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها فابهظت عاتقه العقيدة بان امرأ جوهريا ينقصه وينقص قومه. ونسي النهار والليل والحلم واليقظة وقضى ستة أشهر في هذه الحالة ثم جاءه الملك !!

وقد حنق المرحوم السيد رشيد على هذا التصوير لبداية الرسالة فقال: ان هذا المستشرق ارخى لخياله العنان ونزع من جواده اللجام، ونخسه بالمهماز فعدا به سبحا، وجمح به جمحا، وقد حت حوافره له قدحا واثارت له نقعا واذن لشاعر يته ان تصف محمداً عند الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل. وكل ما كتبه أوجله غير صحيح وتصل حمية المرحوم وحماسته عند ما يكتب

« فمن اين علم هذا الافرنسي ان محمداً نسي الليل والنهار، والحلم واليقظة، وانه كان يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار او مستلقيا في الشمس وانه قضى ستة أشهر في هذه الحال — قد افترى في الاخبار ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله غائبا عن حسه، واننا ننقل هنا اصح الاخبار في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها لتفنيد مفترياته وللاستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي

وخلاصة رأي الشيخ رشيد في الوحي وهو اهم مسألة عالجها في حياته حتى جعلها آخر ماالف ونشر قال:

«ان استعداد محمد للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية والآداب الوراثية والعادات المكتسبة الى أن تجلى فيها الوحي الالهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى أقوامهم خاصة بما يناسب

حالهم واستعدادهم وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دائمة لا يحتاجون بعدها الى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله، الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى. هو مضرب المثل في قوله تعالى في سورة النور (الله نور السموات والارض مثل نوره.)

فزيت مصباح المعارف المحمدية يوقد من زيتونة لا شرقية ولا غربية ولا يهودية ولا نصرانية بل هي إلهية العلوية

كلمة المجاهدين السوريين

في الصحراء بوادى السرحان

أرسلها المجاهد الكبير سعادة محمد عز الدين باشا الحلبي من النبك

حضرات أصحاب السعادة رئيس وأعضاء اللجنة الموقرة لتأبين الاستاذ الكبير المرحوم الامام العلامة السيد محمد رشيد رضا — القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فانا نشاطركم الأسى على رزء الفقيد العظيم العلامة السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فلقد فقدنا به ركنا عظيما من أركان العرب والاسلام وعلماً فذاً من أعلام العلم والتقوى، وبطلا مقداما من أبطال نهضتنا الذائدين عن حياضها والمتفانين في سبيل اعلاء شأنها ورفع كلمتها وكيف لا يكون رزؤه عظيما وهو العلم المفرد بعلمه وصلاحه وأخلاصه لأمته ووطنه وهيهات أن يجود الزمان بمثله، أن الزمان به لبخيل.

فلو يمكننا فداؤه لفديناه بالنفوس وبكل غال ورخيص وبكل جبان لم يحذ حذوه في الجهاد الوطني الصحيح ولم يكن على غراره بعزة النفس وحب الحرية والكرامة والئن كرمته الأمة فانما تكرم به البطولة والصدق والاخلاص. رحم الله الفقيد رحمة واسعة وجعل خلفه خير خلف والهمنا جميل الصبر والسلوان وحيا الله القائمين بحفلة تأبينه من عظماء الامة وكرامها الشاعرين بشعوره الحي وانا لله وانا اليه راجعون عن النبك — وادى السرحان ٧/١ و ٩٣٦

باسم مجاهدى الصحراء وأحد أصدقاء الفقيد: محمد عز الدين الحلبي

فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صُوى « ومناراً » كمنار الطريق

٨ محرم سنة ١٣٥٥ هـ   ٣١ مارس سنة ١٩٣٦ م

المستشرقون والاسلام

بقلم الدكتور حسين الهراوى

مفتش صحة مصر القديمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم

من احمد نسيم الشاعر

الى الدكتور حسين الهراوى

قف وقفة بين اجلال وا كبار واحمد دفاع طبيب الحي والدار

جلى « حسين » بشوط راح ينهبه شأن الجواد إذا جلى بمضمار

ما أنفك يهدي إلى الاسلام منكره والحق أبلج لا يخفى بأنكار

يقظان ما هدأت يوما شقاشقه كالفحل يتبع تهداراً بتهدار

في كفه قلم لو شاء أترعه سم الأساود أو شهداً لمشتار

مرقق الحد مبري له جدل يرضى النبي ويرضي الخالق الباري

يراعه كقناة الخط يرهبها سنان كل أصم الكعب خطار

تجري على الطرس آيا حين تقرأها يجري دم الرشد بالبادي وبالقاري

قويمه في ارتياد الحق أشرعها الأخذ بالحق لا للأخذ بالثار

تدفع الصدق من حيزومها صبباً دفع الخضارم تياراً بتيار

من عترة برسول الله مشرقة ملء النواظر من زهر وأقمار

الله أنزل في الأحزاب أنهم من أهل بيت كرام الخيم أطهار

فما أرتضوا نزعات الأصر مأثمة ولا أرتدوا برد آثام وأوزار

ولا تقطع أمر الله بينهم ولا أصيب بنقص بعد امرار

أعظم بهم في مجال الدين من نفر مهاجرين ذوي عزم وأنصار

قم يا حسين فاطفيء كل مشعلة من الضلال تلظى زندها الواري

عجل لهم قطهم خزيا إذا حسروا عن أوجه سفرت سوداء كالقار

مدوا بأيد تخط البطل فاندحروا قهراً أمام متين الايد قهار

لولاك لانغمست في الكفر ناشئة كادت تضل بجحاد وكفار

مر في طريقك وادمعهم بمحرقة		تبقي ندوبا ذات آثار
مستضعفون إذا ذلوا فان قدروا		جاءوا بمكر خفي الكيد كبار
شريعة الله والمختار هازئة		بمفترين على الاسلام أغرار
مستشرقين أثاروا نقع حملتهم		حتى كأنهم طلاب أوتار
يخفون تحت ستار البحث كيدهم		وهم على دين قسيسين أحبار
قوم أحق بلبس النعل مشركة		ولبس منطقة شدت بزنار
تعصب وأكاذيب ملفقة		من مقذعين وقح النقد أشرار
ما بالهم نقدوا القرآن وانصرفوا		في نقدهم عن أصاحيح واسفار
واجهل الناس من يبني عقيدته		على شفا جرف من زيغه هار
وكيف تطلب منهم رشدة وهم		في الدين عمي قلوب عمي أبصار
ان أبصروا الخير أخفوه وان ظفروا		بالشر أبدوه في جهر وإسرار
والذين استباحوا البغي ساهرة		مشبوبة الوقد من ناس وأحجار
في كل يوم ترى منهم أخا خطل		يقول أذعن غير مختار
ضلت براعته في نفس باطله		كما يضل السرى في ظلمة الساري
يشراه بالخزي في دنياه ممتطياً		متن الضلال وفي أخراه بالنار
لا نضر الله داراً بات ساكنها		ولا سقاها حيا وطفاء مدرار
إن كان العلم تضليل وشعوذة		فالعلم أقبح مدعاة إلى العار

« * »

حسين هل لك في حمد تردده		فم الزمان اذا أدلى بأخبار
كأنه باقة في روضة أنف		شتى الازاهير من ورد ونوار
جادت علينا العزالى فهي زاهرة		وكل ناضرة الاكمام معطار
قصيدة تضرب الدنيا بسنبكها		فتنبه الذكر في بيد وأمصار

اني تسر تترك الآفاق مشرقة ... ككوكب مستفيض الضوء سيار
ضمها بمروتك الوثقى معطرة ... كأنها وردة من ورد آذار
حسبي بمدحك أعلاء وتزكية ... فبالشريف تعالى شعر مهيار
جزاك ربك في آلائه نعما ... موصولة بعشي بعد ابكار
أعدك الدين للجلى إذا اشتجرت ... اعداد ليث قوي الزند زأر
دين من الله جلى كل واجبه ... يوم استهل بأضواء وأنوار
كالشمس ما أشرقت بيضاء مسفرة ... تختال ما بين أشراق وأسفار
وبعد فانظر الى نفسي وما احتملت ... من حاسدين لاهل الفضل أغمار
عمرت فيهم فضاعت مدة سلفت ... عددتها بينهم من شر اعماري
سدوا عن الشدو آذاناً مصلمة ... ليست تصيخ لورق فوق أشجار
ان أنكروك فلا تحزن فقد نكروا ... من قبل فضلك آياتي واشعاري

احمد نسيم

الفصل الاول

أسباب ونتائج :

يحدثنا التاريخ أن جزيرة العرب عامة ومكة خاصة ، لم تكن قبل الاسلام مستعمرة لأحد ، ولم يفتحها فاتح قط[١] وكان العرب مدى تاريخهم أحرارا

وكذلك يحدثنا التاريخ أن العرب قبل الاسلام لم تكن لهم ثقافة ، أو دور تعليم ، ولم تكن لهم مدنيـة ولا تاريخ مكتوب غير ما كانت تتناقله الألسن راوية عن راوية ، وتلك هي ثقافة الفطرة

ولم يكن للعرب هيئة اجتماعية ، أو نظام حكومي بالمعنى الذي نفهمه الآن . وجل تفاخرهم كان بانتصار قبيلة على أخرى ، أو بتحديها ، فكانوا أشتاتا من القبائل لا تجمعهم إلا ميادين الحروب أو أسواق التجارة او مواسم الحج

ومن البين أنه لم تكن هناك أية فكرة أو ظن بينهم لجمع شتاتهم وتوحيد مجتمعهم قبل الاسلام

ومن وسط هذه القبائل المفككة أو من أسحق الامكنة فيها سطعت أشعة الاسلام، وفي مدى عشرين عاما من حياة النبي العربي الكريم ﷺ ، تكونت أمة تشعر بوجودها الادبي وتقوم برسالتها في الأمم المجاورة ، فتكتسح المعتقدات البالية ، وتقضي على ملك الفرس والرومان وتر ثه

---

(١) مواقف حاسمة الفصل الاول لعنان

وليس لهذه النهضة الكبرى ، والثورة الفكرية العظمى سوى مصدر واحد هو القرآن ، وأداة واحدة في تأدية الرسالة هي شخصية سيدنا محمد ﷺ ، ومهما يكن من الظروف التي ظهر فيها الاسلام ، وأحوال العالم في ذلك الوقت ، فان ظهور الاسلام من أجدب وسط في العالم ، ومن أوحش صحراء ، ومن أبعد الامكنة التي يظن أن العالم ينقذ على يدها ـ هذا كله - يعد معجزة لا شك فيها

وإذا كانت النهضة العربية ومصدرها الاسلام وحده تعد آية فان اكتساحها للعالم والمعتقدات وتكوين دولة ترث الروم والفرس في مدى ثمانين عاما يعد سراً ليس من السهل أن يعود ، ومن المستحيل أن تجد له مثلا في التاريخ(١) خصوصاً إذا لاحظت أن هذه الثقافة الجديدة قد هضمت الدول كلها وطبعتها بطابع خاص هو الطابع الاسلامي

بل المثير للدهشة والعجب أن تظل هذه الثقافة الى الآن راسخة ثابتة رغم العواصف التي واجهتها ، والحروب التي عملت على فنائها

*
* *

والتاريخ يحدثنا عن تنازع البقاء الدولي بين الشرق والغرب ، ويصف لنا من الحوادث مدها وجزرها ، وكيف بسط الشرق سلطانه وساد ، ثم كيف قاومه الغرب ورده واكتسحه أو كاد

وعلى الرغم من كل هذه التقلبات ، فالاسلام دينا وقانونا وثقافة اجتماعية وأخلاقية ، ثبت لكل هذه الموجات والعواصف والتقلبات ثبات الصخر على الشاطىء ، فذهبت كلها بذهاب الزبد على سطح الماء

والواقع أن أعداء الاسلام لم تهدأ ثائرتهم، ولم يفت في عضدهم بقاء الاسلام

(١) فتوحات الاسكندر ونابليون استغرقت زمنا يسيراً ولكنها ماتت بموت أبطالها

حيويا مكينا على الرغم من الحروب والدسائس في البلاد الاسلامية التى أثاروها ، بل كان ذلك مما زاد المسلمين يقيناً وثباتاً واستمساكا بدينهم ومحافظة على يقينهم ، لأن الاسلام يحفظ القومية ، ويشعر الناس بواجبهم نحو أنفسهم ، ويجمعهم في دائرة واحدة من العاطفة ، ويوجههم كلهم إلى قبلة واحدة ، هذه القبلة التي تفني ازاءها القوميات والشعبيات ويتساوى فيها الناس أجمعون من جميع الاجناس والأوساط .

أضف إلى ذلك أن الاسلام هو أول مطلع للتفكير الحر ، والتحلل من قيود التقاليد ، وهو الذي يحث على الاسفار وجوب القفار والمشي في منا كب الارض ابتغاء الرزق . وهو في تعاليمه ينافي الاستعمار ، وينافي الخضوع لكائن من كان إلا للواحد الديان .

وفضلا عن ذلك فان الاسلام عطف على الأديان الاخرى ، وطبع الشعوب التي انتشر فيها بطابع آخر هو الطابع العربي . فترى معتنق الاديان السابقة له والذين يعيشون في البلاد الاسلامية تجمعهم بالمسلمين رابطة الطابع واللغة ، ويعطفون على الاسلام بداعي العروبة ، والعروبة هي الطابع الثاني للاسلام لغير أهله . بما سنه من المعاملة الحسنة ومصاهرة أهل الاديان الاخرى وتقوية روابط الاسر ، ونشر روح الوئام بين الجماعات وكذلك اختلطت الانساب وتنوعت ، ولكن الشائع في البلاد الاسلامية هو الاصل العربي سواء كان الشخص مسلما أو غير مسلم . فأصبح المؤرخون في حيرة من تسمية هذا الامتزاج وتلك الثقافة ، فطوراً يسمونها الاسلامية وطوراً يسمونها العربية

تلك حقيقة ، وذلك واقع ، ولم يخف عن الغرب ، وليس في حاجة إلى دليل وليس من المستطاع انتزاع تلك العواطف من أفئدة الناس ، وليس من الممكن استئصالها بحملة عسكرية ، أو انشاء محكمة تفتيش أندلسية جديدة لمحاربة آراء الناس ولغاتهم وضمائرهم وعلاقاتهم

فالمسألة كلها فكرية وعلمية ، ومحاربتها يجب أن تكون على أسلوب نشأتها: ثقافة وغزوة فكر

من أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة واستذكاراً وحفظا وتحقيقا وتغلغلا في البحث .

هذا هو منبع المستشرقين ، وهذا هو مصدرهم . وتلك هي الغاية التي يعملون لها .

والباحث في هذه الموضوعات لا يعدم موضوعا جديداً علمياً ، ولا يعدم كتابا قيما مدونا ، يعيد نشره ، ويحيي ذكره ، ليصبغ نفسه بصبغة العالم البريء ومنها اصطبغ اسم المستشرقين بصبغة علمية

غير أن النواحي الاخرى التي عكفوا عليها وهي غزوة الفكر الشرقي في قوميته ولغته ودينه كانت واضحة جلية في أعمالهم لانها الهدف الاول والغاية القصوى

والمستشرقون هم من أساتذة اللغات الشرقية في الجامعات وطلبتهم من أبناء وطنهم ، وهؤلاء الطلبة يعدون أنفسهم للعمل في المستعمرات في الشرق ، وكان لابد من المحافظة على قومية هؤلاء الطلبة . ولابد للعناية بتربيتهم أن لايكونوا أداة عطف على الشرق أو مصدراً لاذاعة محاسن الاسلام ، ولادراك ذلك لابد من تصوير الشرق بصورة بشعة قبيحة في أخلاقه وعاداته وآرائه ، ولابد من تصوير الاسلام في صورة منفرة ، وأن يكون هؤلاء الطلبة حربا على الشرق والاسلام .

كما لابد من أن يقوم هؤلاء المستشرقون بدورهم في تغذية جمهور أممهم بمثل تلك التعاليم بنشر مؤلفات يصفون الشرق فيها بصورة مشوهة . ويصمون الاسلام بكل المخازي التي هو منها براء

ولذلك أصبحت الهوة بعيدة بين عواطف الغربيين والشرقيين ، وأصبح التفاهم أبعد منالا مما يجب

وقد تأثر الشرق نفسه بتلك الدعاية ، وكأنه من هذا التجريح والتشنيع شعر بضعفه أمام الغرب وألقى فريق من ضعفاء النفوس سلاحهم ، فاعتقد الشرقيون أنفسهم أن عاداتهم وأخلاقهم وقوميتهم وشعوبهم في مستوى أدبي وعقلي أقل من المستوى الاوربي ، وأصبح الشرقيون لا يثقون بأنفسهم في التفكير ولا في العمل الحر ولا في إدارة الاعمال ، وأصبحت تراهم إذا قرأوا في الجرائد أي جريمة عادية أو خبراً صغيراً ثاروا وقالوا إن ذلك مستحيل حدوثه في الغرب ، ولذلك أخذوا يقلدون الغربيين في كل شيء ، في المعنويات وفي الماديات

أما في المعنويات فقد شاهدنا اختلاط الالسن في الاسر والبيوت ، ونبذ اللغة القومية في الطبقات المتفرنجة ، وكذلك في الزي النسائي ، واستحالات الاخلاق ، وضاعت تلك المودة القوية وصلة القربى ، وأصبح الشخص ينظر إلى أسرته المصرية الصميمة من أعلى إلى أسفل ، يحاول خدع نفسه بأنه غربي ، وأنهم شرقيون ، ورأينا تياراً جارفا من الادب الغربي يكتسح التفكير الشرقي والقومية الشرقية ، وانتشرت القصة المعربة ، وهي قصص لا تخرج عن معاني الحب الساقط ، وألفاظ الخنا ، وخيانة الزوجة ، وتهوس الشباب ، وسقوط المرأة التي يقابل الزوج زلتها بالعفو والصفح والغفران

كان هذا من أثر الدعاية أن العربية ينقصها أدب القصة ، فملأ المعربون هذا الفراغ بقصص لا تلتئم والشرف الشرقي ، ولا الغيرة الاسلامية ، ولا الآداب القومية .. ثم هجم جماعة المبشرين على معاقل الاسلام ، مزودين بالمال والعلم والرجال ، فأصبحنا نرى المخازي والاغراء والقبائح ترتكب باسم الاديان ،

وأصبحت الاسرة الاسلامية يقتنص بعض أفرادها بالمال أو بالاغراء أو الاستهواء أو التنويم المغناطيسي باسم الدين . وترى ذلك متجلياً في دور التعليم الاجنبية ، وفي المستشفيات الاجنبية التي تحمل على بابها بالخط العريض انها بيئة ووكر المبشرين في ثوب علمي شفاف . طرق لا يقرها عقل أو ذمة أو ضمير أو وجدان

أضف إلى ذلك أن كل بلد شرقي استعمر كان لابد له من طلائع تجوس الديار ، وتستكشف الآثار ، وتكتب التقارير

وكان لابد لهذا الجاسوس أن يلبس ثوب العالم بلغة البلاد ، وأن يصطنع بحث العلمي

وفي حالة دخول الجيش الفاتح لابد لقيام صلة بين الاهالي والجيش المهاجم والتاريخ يحدثنا أن هؤلاء كلهم من المستشرقين

أما في حالة السلم فلابد من وضع سياسة لمعالجة هدم الاسلام وتفريق كلمة أهله ، وإعداد النفوس لقبول التغييرات التي تدخلهم تحت النير

هذه مسائل علمية محضة ، ويقوم بها المستشرقون

فلتغيير الدين يجب أن يقال إن الاسلام دين مخترع ملفق ، ولهذا الرأي شيعة من المستشرقين ، وللسخرية من الاسلام يجب مهاجمة شخصية النبي الكريم ولهذا أيضا شيعة من المستشرقين

ولتفكيك روابط العرب يجب أن يفهم الناس أن العربية الفصحى لا تصلح لشيء وأنها لغة قديمة وأن اللغات الدارجة أنفع منها

ولتفكيك روابط القومية والهيئة الاجتماعية الشرقية يجب أن يعتزى كل شعب إلى أصله ، لان العرب لم يكن لهم فضل في ثقافة أو تاريخ

ولاضعاف الروح القومية وقتل الاعتماد على النفس يجب أن يفهم الشرقي أنه غير مؤتمن الجانب ، وأن الاختلاس غريزة فيه ، وأن الشرف بعيد عنه ،

وأن بلاده وتربيته لا تصلح إلا للزراعة ، وأن عقله غير مكون تكوينا تجاريا ، وهذا كله ليحتكروا التجارة والصناعة ويتركوا البلاد المستعمرة العمل الزراعي الشاق الذي لا يدر إلا الخير القليل

***

كل موضوع من الموضوعات التي ذكرناها تخصص لها فريق من المستشرقين وقد أصبحنا نعرف وجهة تخصص كل واحد منهم ، ويمكننا أن نعد أسماء المخصصين لكل موضوع من هذه الموضوعات كما سيمر بك في هذا الكتاب ، وكل هذه الموضوعات ذات مرمى سيء ، وليست من الحقائق العلمية في شيء ولذلك فان هؤلاء الناس قد ألبسوا موضوعاتهم الثياب العلمية ، غير أنه لم يتعرض لهم أحد بنقدها وإظهار مافيها من غش وخداع وتلبيس ، حتى إن كثيراً من القراء قد خدعوا بها ودخلت الحيلة عليهم

ولذلك يجب تحرير الفكر الشرقي من تلك الغزوة التي طال أمدها وسئمنا تكرارها ، ويجب أن نبرهن لهؤلاء الناس أنهم خادعون ، وأن الاخلاق الغربية لم تبلغ إلى الآن المستوى الشرقي ، وأن الزخرف البراق من المعاملة والطلاء الخارجي للمعاملات العادية لا يغير الواقع فالبلاد الغربية كالبلاد الشرقية فيها أحط الاخلاق وأشنع الجرائم من كل نوع

وليس الفكر الشرقي بأقل في مستواه من الغربي ، وإنما في استغلال المواهب نتيجة التربية الاستقلالية التي امتاز بها الغرب ونتيجة لازمة للحرية الشخصية والمساعدة الحكومية التي حرمتها الشعوب الشرقية ، إلا أن أول دعامة في تحرير الفكر الشرقي أن يعرف أسرار استعباده فيقف دونها حائلا، ويطلع على الصواب فيستزيد من مناهله ، ولا يقبل التغرير ، وأن يواجه هؤلاء المستشرقين بحقيقتهم ويعلم أن بضاعتهم مغشوشة ولأغراض غير بريئة ، وهي بضاعة زائفة صنعت في

معامل التغرير ، ولذلك عمدنا إلى الرد على بعض المستشرقين في هذا الكتاب وجعلنا الرد في أسلوب علمي ليعرف القارىء الحقيقة

والذي دعانا إلى وضع هذا الكتاب هو تلك الحادثة المشهورة التي اضطرب لها عقلاء المصريين ، فانه لما صدر المرسوم الملكي بتأليف المجمع اللغوي الملكي بالقاهرة ، ووجدنا اسم فنسنك من ضمن أعضائه نشرنا شيئا من مباحثه ، ورددنا عليه ، وانبنى على ذلك خروجه أو إخراجه من المجمع اللغوي وحلول غيره مكانه ، وبذلك انفضح جانب عظيم من أعمال المستشرقين وحقيقتهم مما سيتجلى عند قراءة هذا الموضوع في الصفحات المقبلة

أضف إلى ذلك أن هذا المبحث الذي خرج من أجله فنسنك كان بعض الناس سرقه ونسبه لنفسه في كتاب ادعى أنه بحث في الشعر الجاهلي ، وبذلك اتضحت آفة أخرى من آفات المستشرقين هي أن بعض الناس من المسلمين يجارونهم في تفكيرهم ويقتبسون آراءهم بغير نسبتها إليهم ليقال إنهم من العباقرة

وفوق ذلك فقد عثرنا على بعض سفسطة المستشرقين من أن محمداً كان على علم بالاديان السابقة وأنه اتصل في سياحته للشام بأهل العلم مما دعاه إلى وضع قرآنه وتلك الفرية قد اتخذت سبيلها في التفكير الشرقي ورددنا على ذلك في حينه كما سنزيده شرحا في الفصول القادمة

والخلاصة أننا نريد تنبيه الناس إلى طلائع الاستعمار . ومصدر تغذية المبشرين وأدوات أذلال الشعوب الشرقية وتفريقها . وتشتيتها . ونثبت أن هذا كله من المستشرقين .

ولا ندعي أننا ندافع عن الاسلام بهذا الكتيب . فنحن أهون أن تكون لنا هذه المنزلة الرفيعة . ولكننا نريد أن نهتك سترهم ونظهر حقيقتهم دفاعا عن قوميتنا . وعقولنا . وقديماً قال عبد المطلب أما الجمال فسأدافع عنها ، وأما البيت فله رب يحميه

الفصل الثاني

محمد قبـــــــــل البعث

من البين أن مجيء القرآن ، وأثره في النهضة الفكرية العالمية كما رأيت - مسألة مدهشة حقاً .

وقيام شخص واحد هو سيدنا محمد ﷺ بهذه الدعوة الناجحة التي اكتسحت العالم مسألة موجبة للحيرة ومعجزة بلا مراء

والمستشرقون يقفون أمام هذه الحقائق ذاهلين ، ويحاولون الدخول إلى هذا الصرح العالي من باب التشكيك والتضليل أو باب الاستنباط والقياس .

والتاريخ يعلمنا ويعلمهم أن حياة العظماء لها طريقة في البحث والدرس ولها طريق مألوف وهو الابتداء بدراسة الوسط الذي نبغ فيه الرجل العظيم والظروف المحيطة به . ثم دراسة طريقة انتزاعه للسلطة أو قيامه على قيادة الأمة .

ثم يأتي بعد ذلك دور تكوين الشخصية وأثر الثقافة المحلية والعالمية في نفسه وأثر هذه الثقافة في أعماله .

وقد أرادوا أن يطبقوا كل هذه النظريات والمباحث على حياة النبي الكريم ﷺ كما يدرسون مثلا حياة نابليون والاسكندر وغيرهما .

وأول ما صادفهم من الخيبة والفشل أن الوسط الذى عاش فيه سيدنا محمد ﷺ كان وسطاً فطريا ساذجاً . ولكن هناك فى محيط ذلك الوسط وجد بعض النصارى واليهود .

ووجدت ظروف بسيطة في حياته ﷺ من سفره مرتين إلى الشام يمكن أن يبنوا عليهما القصور العالية من الأوهام .

ولا بأس من أن يجعلوا من هاتين المسألتين ـ وجود نصارى ويهود في الحجاز وسفره إلى الشام مرتين ثانياً ـ موضوعا للتشكيك والتضليل

ولذلك نقتبس لك أسهل طريقة وأبسط تضليل من كتاب درمنجهام الذي نشر في السياسة الاسبوعية ورددنا عليه لانه كان أول مثار للبحث (١)

(والواقع أن محمداً منذ الساعة الاولى بل قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي. كان أشد ما يكون نفوراً من الوثنية التي نشأ ونشأ أهله من قريش فيها وأشد ميلا لهذه المعاني الروحية التي يتحدث عنها النصارى واليهود من أهل الكتاب. في أنحاء شبه جزيرة العرب ممن كان يتصل بهم في أثناء ذهابه إلى الشام وإلى اليمن في القوافل قبل أن يقوم بتجارة خديجة وبعد أن قام بها

وهذه المعاني الروحية في اتصالها بنفس محمد ﷺ المتوثبة منذ صباها للكمال. هي التى دفعته إلى تحنثه بغار حراء شهراً أو أكثر من شهر

ان الله تعالى رضي للناس الاسلام ديناً مع بقاء الاديان السابقة . للقرآن. وحده مندمجة في هذا الكمال الروحي ـ أي الاسلام ـ اندماجا أشار اليه القرآن. في قصص أصحاب هذه الاديان وما جاءوا به من الحق من عند ربهم وأشار اليه حين أراد أن يثبت محمداً ﷺ في أمر ما جاءه كما جاء في سورة يونس (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

وفي هاتين الفقرتين ملخص لآراء المستشرقين الذين يظنون أنفسهم أهلا للبحث والاستنتاج دون أن نرميهم بشيء من سوء النية . ولعل ذلك أهدأ أنواع ضلال المستشرقين

ولما تسربت هاتان الفقرتان في الصحافة المصرية وعلى أيدي باحثين مسلمين.

---

(١) طبع باسم حياة محمد للدكتور هيكل

رأينا توضيح هذه الطريقة واظهار ما فيها من خطأ في تطبيق ما يقال عن عظماء الغرب على حياة نبي عربي عاش في بيئة خاصة وفي محيط لا زال يتمسك بعاداته وأخلاقه إلى اليوم .

ولسنا نتهم هذا الرأي بأقل من أنه استنباط غير موفق ورأي خاطىء نتيجة الجهل والخطأ في الحكم

فأنت ترى من هاتين الفقرتين أن سيدنا محمداً تعمق في درس الأديان وتلقي مبادئها على الرهبان في سياحاته وأن ذلك العلم هو الذي دفعه إلى التحنث

أما أنه خالط الرهبان وتشبع بمبادىء الاديان السابقة فذلك ظن ليس له من مؤيد ولو أنه كان كذلك لكان في كل عمل من أعماله دليل على ذلك وقد أحصى القرآن الكريم كل ماوجهه أعداء الاسلام وأعداء محمد ﷺ له من التهم ومنها الكذب والسحر والشعر . وكل ماشئت من صنوف السب والشتم والتهكم والضرب بالحجارة والتحدي للقتال كل هذا قيل ولكن واحداً منهم لم يجرؤ أن يقول له إنك تعلمت هذا العلم على فلان . ولو كانت هذه الجملة قيلت لكنا على الاقل وجدنا عليها رداً في القرآن

ولو أن نفس محمد عليه السلام اعتنقت دينا أو مالت لأي دين قبل الاسلام لوجدنا لذلك أثراً واضحا في الحديث وقد سأله الناس كل أنواع الاسئلة بلا خجل وكان يرد عليهم بالصدق والأمانة التي اشتهر بها . ولم يرد مايؤيد هذا الزعم ولذلك استنبطنا وكنا محقين في هذا الاستنباط أنه عليه السلام كان خالي الذهن من جميع الاديان وأنه اشتق طريقا في العبادة لنفسه كما سنبين ذلك في التحليل النفسي لحياته

أما الرحل والاسفار في التجارة أو مع عمه فقد كانت رحلته(١) الاولى مع عمه إلى الشام وهو ابن تسع سنين ولم يكن هناك مجال ما لتلقي هذه العلوم فليس ثمة جامعات وليس للرهبان حلقات درس كما أنه لم يكن يومذاك جماعة من المبشرين الذين نراهم اليوم يغررون بالناس، وكل ماحصل من الراهب بحيرا أن تنبأ لهذا الغلام بمستقبل ديني وتوسم فيه استعداداً خالصا لهذه الرسالة الكبرى

والرحلة الثانية كانت وهو ابن خمس وعشرين من مكة إلى بصرى ومدة هذه الرحلة كانت ثلاثة أشهر

إذن فلنمش في هذا الطريق نفسه، ولنر ولنستنبط مايمكن استنباطه، ولنتعرف عادات العرب وأخلاقهم.

فأول ظاهرة خفيت عن المستشرقين من عادات العرب أن صغارهم لايجالسون كبارهم، ولا يمكن شاب حديث السن أن يجلس في مجلس الكبار ولا يناقشهم، ولا يباح له أن يتحدث في مجالسهم.

ولم يخبرنا التاريخ أن محمداً ﷺ شذ عن هذه القاعدة، وهذا دليل على أن كبار الرهبان وغيرهم لم يكن لهم من وسيلة لقلب عقيدة هذا الفتى كما يفعل المبشرون من أذناب المستشرقين في هذه الايام.

وأما الرحلة نفسها فيجب أن نلم بعمل التاجر الذي تكون مهمته من نوع عمل سيدنا محمد ﷺ والعادة الجارية في بلاد العرب إلى يومنا هذا هي أن يقوم التاجر ببضاعته حتى يصل إلى المدينة التي سيبيعها فيها.

ثم يذهب إلى منزل وسيط التجارة فيمكث في منزله بضعة أيام حتى يصرفها الوسيط ويعطيه الثمن ثم يعود قافلا

(١) تحقيق الطريق ومسافته وعادة العرب هذه رجعنا فيها إلى فؤاد باشا الخطيب وزير خارجية الحجاز سابقا ورئيس ديوان شرق الاردن الآن.

فعمل التاجر في هذا السبيل ينحصر في المحافظة على التجارة في أثناء الطريق ومساومة الوسيط وحمل الثمن إلى أصحاب البضائع

والمسافة بين مكة وبصرى تقطع على ظهور الابل في نحو أربعين يوما ذهابا ومثلها إيابا، ومدة إقامة التاجر في بيت الوسيط هي المدة التي تبقى من ثلاثة الاشهر التي قضاها سيدنا محمد (ص) في تلك الرحلة

فالوقت كله يقطع في الطريق وكانت رحلة واحدة ، فأي عقل إنساني أو غير إنساني يمكنه أن يستنبط أن سيدنا محمداً يمكنه أن يتعلم كل ما أتى به أو كل العلوم التي وردت عنه في وقت كهذا ؟

وأي سخف أدعى للسخرية من مثل هذا الاستنباط الملفق القائل أن سيدنا محمداً في أسفاره تعلم من الاحبار

أضف إلى ذلك ما استنبطه فريدرك شولتهس عندما جمع ديوان أمية بن أبي الصلت وطبعه سنة ١٩١١(١) وأظهر في مقدمة هذا الديوان مقدار مابذله من الجهد في جمعه من كتب السير ومن شوارد أخبار الكتب ورأى أن أمية هذا كان قد ترهب ولبس المسوح ونظم قصصا مصدرها التوراة والانجيل وكان يطمع في النبوة إذ أشيع وعرف أنه سيبعث نبي في زمنه

وبعد ذلك بعث محمد عليه السلام . وأخفقت آمال أميه فناوأ الاسلام وجاهر بعداوة نبيه .

ليس في الامر غرابه فليس أمية بأول رجل في مكة أو بلاد العرب عرف شيئا عن التوراة والانجيل وليس هو أول من عادى الاسلام والتوراة والانجيل والقرآن بين أيدينا شاهد بذلك وفي هذه الكتب توافق في بعض النواحي التاريخية واختلاف في نواح أخرى فليس من المستغرب أن يعرف شاعر عربي

---

(١) أدب اللغة العربية لمحمد هاشم

شيئاً عن التوراة والانجيل وينظمه شعراً ولكن المستغرب حقا أن يقول.
شوانهوس هذا إن محمداً عليه السلام استقى تلك المعلومات من المصدر نفسه الذى استقى.
منه أمية .

وليس أدل على الجهالة والتضليل في هذا القول وعلى التعصب الاعمى وقلة.
الخبرة من أن القرآن ليس بقصصه ولكن باحكامه وبقانونه وبأعجازه ، وبأثره
الاجتماعي والفكري . فهل اجتمع كل هذا في احد ؟ كلا . ولكن مستشرقاً يظن
نفسه في منزلة علميه يطلق لنفسه العنان ويصدر الاحكام فيتلقفها طاعن من طاعن
ومبشر عن مستشرق للتشكيك في مصادر القرآن

ولو طاوعنا هؤلاء فيما زعموا ، وبحثنا عن كل حكم من احكام القرآن ومصدره.
ورأينا حكما منها من السند والآخر من الهند والآخر من فارس ومن مصر
ومن أتينا وروما لزم لهذا النبي الكريم آلاف الاسفار والاشتغال بالجامعات
عدة قرون قبل أن يأتي بكتاب لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله.
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

مثل هذا التفكير المزري يقول به المستشرقون وتهضم عقولهم أن محمداً أتى.
بما أعجز الانس والجن في سفره الى الشام ثلاثة أشهر منها ثمانون يوما ذهاباً
وإياباً وعشرة اقامة

ولكنها طريقة من طرق التشكيك وضرب من الهوي لا نشك أن القارىء.
عرف مغزاه

الفصل الثالث

التحليل النفسي لحياة محمد قبل البعث

نحن ننكر إنكاراً تاماً أي أثر للأديان السابقة للاسلام في نفس سيدنا محمد ، وسواء سمع بها ورآها أو خالط أهلها وتعرف بهم ، فان ذلك لم يترك في نفسه الشريفة أي أثر ، ولم يعلق بذهنه من مبادئها وتعاليمها مايجعله يفكر فيها أو يفضل أحدها أو يقلدها

وليس أدل على ذلك من أنه لم يرد في القرآن الكريم الذي أحصى كل التهم التي وجهها أعداء الاسلام لنبيه الكريم مايؤيد هذا الزعم(١)

ومسألة التحنث في الغار والطواف بالكعبة وتوزيع الصدقات هي نوع التعبد الذي كان يتخذه عليه السلام قبل بعثه

فاذا قلنا إن التحنث في الغار له مايشبهه في الأديان الاخرى فالطواف بالكعبة لاعلاقة له بأي الدينين النصراني أو اليهودي الذي يتعمل جماعة المستشرقين الاسباب ويخترعون الوسائل القول باقتباس الدين منهما

ولقد طبقنا حياته الشريفة على علم النفس الحديث لنتعرف أي سبب دعاه إلى هذا النوع من العبادة إذا صرفنا النظر عن العامل الالهي الاكبر في توجيهه إلى هذه الوجهة .

ولكي يمكن فهم هذا الموضوع سنقدم للقارىء مقدمة وجيزة في علم النفس والتحليل النفسي لكي يتفهم أمنا تطبيق حياته على علمي النفس والوراثة

(١) بل وجد فيه وصفه بالأمي ووصف قومه بالأميين ، ووجد فيه (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون)

لقد قسم فرويد العقل ثلاث مناطق

١ — العقل الظاهر . أو الواعي . أو منطقة الوعي

٢ — الذاكرة

٣ — العقل الباطني . أو غير الواعي . أو منطقة اللاوعي

فالعقل الظاهر أو منطقة الوعي تحتوي الاشياء التي يدركها العقل في وقت معلوم ، وهي التي تهيمن على الانسان في حالة صحوه وعمله

والذاكرة تحوي الذكريات الماضية أو مامر على الانسان أو حفظه

والعقل الباطني يحوي الاشياء الممنوعة من الظهور بوساطة الرقيب العقلي وفيها جميع الغرائز الموروثه ورغبات الانسان التي تدفعه إلى رغباته المتعددة ولكن يمنعها من الظهور قوة حاجزة تسمى بالرقيب ، لان كثيراً من رغبات الانسان لا تتفق والوسط الاجتماعي

والغرائز الموروثة في الانسان تتجلى فيه من السنة الثانية من عمره باظهار رغباته ككل الاطفال ولكنه يجد المقاومة لتلك الرغبات من الوسط المحيط به والذي يختلف باختلاف السن والوسط

فان الوالدين أو المربين والاساتذة هم الذين يتولون أرشاد طفل في مدى سنيه الاولى وبذلك يبتدىء التصادم بين غريزته الاجتماعية والغرائز الاخرى كالبهيمية والانانية، فبطبيعة الحال يصبح مضطراً (حبا في استمرار الالفه بينه وبين المجتمع) إلى اتباع خطة مواجهة للواقع فيتنازل قهراً عن الاشياء التي يريدها هو ويستهجنها الناس .

ومن العناصر الاساسية لنظرية فرويد أن الرغائب والميول التي تقمع وتبعد الى العقل الباطني أو غير الوعي لا تمحي بل تبقي حية ولها أثرها في حياة الشخص وتؤثر تأثيراً واضحاً من مظاهر الوحي بطريق غير مباشر فاذا كانت هذه الغرائز

المقموعة سيئة أمكن تهذيبها بالقوة الدافعة المرافقة لتلك العناصر الفطرية التي في العقل الباطني وتوجيهها إلى طريق نافع يساعد على تقدم الشخص ويكون تأثيرها في الوعي نافعاً . هذا ما يحصل في الاحوال المادية ولكن لنقص في التربية وخصوصاً المنزلية قد لا يحصل التهذيب في تلك القوة الدافعة وقد تستعمل في الاضرار بالتطور العقلي من الطفولة إلى المراهقة، مثال ذلك إذا تعلق الطفل بوالديه — خصوصا اذا كان وحيداً — فيكبر وليس لديه أي اعتماد على النفس وتكون النتيجة رسوخ هذا الميل عنده فلا يقوي على احتمال صعوبات الحياة وحده فاذا اضطر إلى ذلك اضطراراً أصابه الحنين وكانت عملية القمع — أو تخفيف لوعة فراقه ـ مسألة شاقة ومؤلمة وذلك لأنه بعد أن تعود الاعتماد على والديه يرى نفسه قد كبر وأصبح في سن خاصة لا تتفق ومركزه وكرامته أن يكون عالة ويتسبب عن ذلك ظهور أعراض مرضية في العقل الظاهر كالبكاء والحزن

وكذلك قد تصيب الشخص في حياته وهو صغير صدمات مؤلمة يضطر إلى قمعها في العقل الباطني ولكنها تبقى فيه طول الحياة، وقد تظهر أعراضها في ظروف مختلفة إذ لم يستطع الرقيب قمعها تماما فاذا فشل الرقيب في قمع هذه الصدمات تماما ظهرت بشكل أفكار تجول في خاطر الشخص أو اعمال لا فائدة منها

هذه مقدمة سطحيه جداً في علم النفس يمكنك أن تفهم منها النتيجة الباهرة التي وصل اليها فرويد وهي أهمية الغرائز في احداث ظواهر عقلية خاصة في تصرفات الشخص في الحياة

وبنظرية العقل الباطني وأثره تفسر الاحلام وتحلل نفسية الاشخاص، ومهما يكن من تنافر الآراء بين علماء النفس فان الجميع (فرويد ويونج وادلر) يعترفون بأن العوامل الخلقية والوراثية لها كل الاثر في الأمراض النفسية . وكفايات الشخص

أما قوانين الوراثة فلم يوضع لها إلى الآن حدود وقواعد ثابتة يمكن تطبيقها بسهولة . وهى وان كانت تفسر لنا الأحوال النفسية التي بين أيدينا الا أن اختلاف طرق الوارثة في سلالة واحدة لا زال محتاجاً إلى تفسير وشرح كأن يكون الأخوان الشقيقان مختلفين في الأخلاق .

الا أن ذلك لم يمنع المشتغلين بتأصيل الحيوان من تتبع سلالة الهجين وامكانهم أن يستخلصوا منها بالتناسل سلالة نقية . فانه من الممكن ومن الامور العادية جداً أن تحصل على جواد عربي أصيل من أم وأب هجينين بتقوية الدم العربي في كل سلالة وذلك بانتقاء الأقرب إلى الأصل الذي تريده

هذه مقدمة لبحث التحليل النفسي لحياة سيدنا محمد قبل البعث، وسترى أنه يستنبط منها أنه كان في ذاته وشخصيته وحدة كمال مستقلة ولم يكن في نفسه أي أثر للاديان الأخري وانه كان نسيج وحده .

فقد رأيت مما شرحناه لك أن العوامل النفسية في العقل الباطني هي الغرائز النفسية الكامنة أو التي قمعت وان لها أكبر الأثر في تصرف الشخص .

فلنطبق ذلك على حياته الشريفة .

فسيدنا محمد كان يعيش في وسط عبادة الاوثان . أو ما تقدم الاسلام من الاديان، فكانت هذه هي القاعدة الاساسية في المجتمع الذي كان يعيش فيه ، فاذا كان محمد ﷺ قد ورث في نفسه عوامل نفسية تحرضه على كراهيتها كان له أن ينتقم أو يعبث بها ، ولكن عمليات القمع بوساطة الرقيب العقلي وغريزة الاجتماع وآداب العشرة نهته أن يعادي الناس ، فاذا كان شأنه مع نفسه؟ هذا ما سوف ننتظره من نتيجة التطبيق العلمي على ما أثر من حياته الشريفة في كتب السير المعتمدة .

الحمل والطفولة

إن سلسلة نسبه الشريف تنتهي الى اسماعيل وابراهيم من جهة الوالدين وهو نسب معرق في النبوة . والعمل على تطهير العقائد . وسئل النبي عن نفسه فقال — أنا دعوة ابي ابراهيم — (ابن هشام ص ١٥٥)

ونسبه صلى الله عليه وسلم بانتهائه الى اسماعيل وابراهيم ونوح المعترف بنبوتهم من الاديان الاخري يجعلنا نطبق قوانين النفس والوراثة الاخلاقية على شخصه الشريف . ولو كانت قوانين الوراثة واضحة تماما ومحدودة في حدود علمية تامة — لكان في تطبيقها أكبر لذة علمية . ولكن الناس يعرفون منها اليوم قوانين ونتائج لاشك في صحتها فيقولون عن السبع أنه يموت عطشا ولا يلغ من ماء ولغ فيه الكلب .

وينقلون عن أبناء الملوك المعرقين قصصا طويلة ونوادر عن الانفة واحترام النفس فلا ننتظر من مثل ذلك النسب الا وراثة غرائز أرقي من مجموع مستوى الناس على الاقل مما كان يتجلى في آبائه وأجداده . فانهم لم يشتهروا بالثروة والغني . ولقد ولد عليه السلام في إملاق ولكن آباءه اشتهروا بالشرف والنخوة وعرف عن أهله شدة المراس والصلابة فيما يعتقدونه حقا . ولم يرث عليه السلام من آبائه إلا شرف النفس . وهو ما نعبر عنه باللسان العلمي بالغرائز والالهامات الراقية العالية .

يدلنا علي ذلك أخلاقه قبل البعث ! وقار وحشمة . واحترام لنفسه ولم يرتكب زلة أدبية مما كانت تبيحه عادات الجاهلية . فلم يسكر ولم ينهب ولم يقتل إلي غير ذلك مما كانوا يعدونه من ضروب الشهامة .

وكانت أخص صفاته احترام النفس والغير . فلم يعتد على أحد ولم يطلب عنده حق لغيره .

كان هذا قبل النبوة . وقبل أن توجد عداوات وحزازات . شهدت بها وفود أعدائه عند ملك الروم .

وهذا أرقى انواع الغرائز والالهامات .

ولتمش قليلا بعد ميلاده . فنراه ولد يتيم الأب ولم يلتصق بأمه بل بعث الى الصحراء .

مسألة غريبة في هذه الحياة الحافلة . فقد علمت ان الالتصاق بالوالدين فيه مضيعة للاعتماد على النفس . وفيه معنى من معانى الرخاوة في الطباع وقد يكون في الالتصاق باحدهما مفسدة للأخلاق .

ولقد تيتم من أمه طفلا فلم يكن له أمل في الاعتماد على أحد من الناس اعتمادا قد يقتل من عزمه . أو يفسد من طباعه

ولننظر الي اليتم وأثره في النفس .

أنا شخصيا جربت ذلك ،فقد ولدت يتيم الأب وفي كفالة الأم وقد أورثني ذلك عوامل نفسية مؤلمة . ما تحدثت بها الا أمضني الحزن والألم .

ان أول ما يشعر به اليتيم متى شب هو الاقرار بالواقع والاستسلام للقضاء والقدر. والرضا بما قسم له من نصيب محزن . لفقدان عطف الآباء . والمرشد الخبير في أوقات حرجة من ظروف الحياة التي تحتاج الى قرار حاسم من مطلع خبير . ويكون الدافع النفسي موجها الى الخضوع والوحدة . لا الى حب السلطان والمظهر البراق . كما تتعود النفس الخشونة وعدم العطف. فلا يتعود اليتيم التدلل ولا المرح وهما اهم خواص الطفل في سن الصغر ،وذلك كله نتيجة الاخفاق في اشباع رغبات الطفل . والفشل المتوالي في نوال كل شيء يتطلبه أو يتطلع اليه

أضف الى ذلك نوعا من الشفقة المؤلمة ، ونوعا من العطف أقتل للنفس من العقاب الصارم ، ذلك هو الحنان الذي يستجدى كأنه حسنة أو نافلة ، اذ ترى قوما يظنون انفسهم على شيء من حسن الصفات يعطفون على اليتيم عطفا هو اشبه بالصدقة منه بالعطف ويشفعون عطفهم بالاشارة الى انهم فعلوا ذلك ليتيم الشخص .

دعيت مرة الى مهرجان زواج ،وانا غلام صغير فوزعت الحلوى على الرجال

والغلمان وكان كل والد يحضر لنجله نصيبه من الحلوى ، وخرجت من الاحتفال وليس معي غير دمعة تترقرق، فلم أصب من الحلوى قليلا اوكثيرا ، ولم يلاحظ اخفاقي انسان ، فآليت على نفسي بعدها ان لا أذهب الي مهرجان (١)

وتوفيت احدى قريباتنا وانا غلام ، وكانت تحبني لقرابتها من المرحوم والدي وكنت في نحو العاشرة من عمري ، فانسللت وحدي من المنزل لامشي في جنازتها اعترافا بهذا الحنان الذي كانت تظهره نحوي ، وبكيت عليها كثيرا لانها ما كانت تراني حتى تذكر والدي وتبكيه ، وكانت هذه السيدة أصيبت بشلل ، فكانت تهتز في بكائها الى درجة اني كنت اشعر أن نوبة اغماء تعتريها فاذا افاقت قبلتني فيتبلل وجهي من دمعها

رأيت وفاء لها ان أسير في جنازتها وان اشيعها الى مقرها الاخير بتلك الدموع التي أرهقتها لذكرى أبي

ودفنت ، ووقفت على قبرها أبكي ، وكنت ألاحظ ان الناس ينصرفون في مركبات أعدت لهم ولم يدعني انسان لمركبته ، وبعد قليل ، وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، وجدتني وحيدا بين المقابر ، لم يعرني أحد اهتمامه ، ولم يسأل عني سائل

هناك عرفت ان لا نصير لي في الدنيا ، ولا من يسأل عني ، وضربت يدي الى جيبي فوجدتني خالي الوفاض ، فافترشت الارض انتظر ما قدره لي الله لولا ان أسعفت بكار له حمار أعرج ، يسوقه امامه وسط القبور ، وهو يغني بصوت متهدج فاوصلني الى البيت على أجر اتفقنا عليه

---

(١) ولعل أمثال هذه الحادثة هي التي جعلته عليه السلام يرضى بالواقع . فلم يذهب الي سمر ولم يحضر ناديا

بعد تلك الحادثة لم أكن أذهب الى مكان الا بعد ان أفكر في طريق العودة وحدي .

هذه العوامل كلها تورث في الطفل شيئا كثيرا من الحسرة والاعتماد على النفس ، وتعلمه الحياة ومعناها وهو طفل فيعوض بنفسه ما فاته من عون والده ولذلك لم أشك في رواية بحيرا حين قال عن النبي ﷺ (ما ينبغي لهذا الغلام ان يكون أبوه حيا) لان مثله يجب ان يكون أستاذ نفسه ولا فضل لاحد عليه .

على ان هناك عاملا نفسيا قويا يختلج في نفس اليتيم وهو ذلك الشعور الذي يتولاه بانه ضحية القدر وانه بريء مظلوم في العالم ؛ فقد مرح الطفولة وابتسامتها العذبة ، وسرورها المستمد من عطف الوالدين وارشاد الوالد . فينظر الى العالم بالمنظار الاسود ، ويفكر في الانتقام من العالم لو استطاع الى ذلك سبيلا

هذا سر من اسرار بعض النفوس، فغريزة التخريب والهدم كامنة في النفس ولكن عوامل الضعف قد تكبر هذه الغرائز ولا يجمحها غير التربية والوسط ، ولم يكن محمد ﷺ في وسط يساعده على تكوين نفسه ولكن الظروف هيأت له ان يكون رقيق القلب وكأني بهذه الظروف ليست بنت المصادفة ولكنها إلهام وتوفيق من قدرة أقوى ، فكيف تهذبت نفسه وكيف صار باراً بالعالم والفقراء واليتامى . وكيف استطاع ان يعرف نفسه وكيف تربت نفسه على العظمة ، ولم تفقد كبرياءها مع اليتم والاملاق

ان (نشأته راعي غنم) هي السر في انتصاره على افكار ثورية تمليها الطبيعة البشرية وغرائز الهدم والتخريب وشعوره بظلم الحياة بفقد والديه

فلما كان غلاما تحمل مسئولية رعاية الاغنام التي هي مضرب المثل في الوداعة ، وهي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا . وهى أحوج ما تكون لرعايته

من الذئب الذي يهاجمها

ولقد توفرت في هذه الصناعة كل العوامل التي يحبها اليتيم كما أسلفنا من العزلة عن الناس اتقاء ما يصيب اليتيم منهم من اهمال وعدم عطف والزهد والاعتكاف حتى لا تتأثر النفس بضعفها في الحياة . فهي نوع من التربية النفسية لنمو غريزة المسئولية ورعاية الضعيف والعطف على الوداعة . والشعور بالسلطان. والاعتماد على النفس

وان محمدا ﷺ ليشعر وهو يرعى الاغنام بانه ملك صغير له رعيته وعليه واجبه . وأهم هذا الواجب هو حمايتها ، من الذئب أو من اللص ، وهو في أثناء ذلك يمشي في الارض ويفكر في الطبيعة بين السهل والوادي، والجبل والصحراء، يبحث عن رزق أغنامه ورزقه ، أليس ذلك يصرفه عن البطش بها ؟ أليس يعرف انه مسئول عن ضياعها ؟ اليست هذه مسئولية تربي في نفس كنفسه الشريفة كل تقدير للواجب وتعده أن يكون راعيا كبيرا ؟ يرعى الناس فيما بعد.

« ٥ »

حياته وهو غلام

في حياته عليه السلام أثر واضح للغرائز النبيلة ، وان عقله الباطني كان أنشط من عقله الواعي ، والهامه الطبيعي أشرف من الهامات الناس كافة

لقد عاش في وسط ليس للتربية القويمة أي أثر فيه . وقد يكون الوسط العربي في بلاد العرب اليوم مشابها له ، أي إن الغلمان لا يجالسون الكبار ، فلم يكن له فرصة التربية العملية تلقينا أو مشاهدة ، ولكنه كانت تربيه غرائزه الخاصة اذا صرفنا النظر عن القوة الالهية التى نعتقد انها كانت مشرفة على اعداده . .

يتجلى لك ذلك في حوادث جمة نسوق لك منها حادثتين : الاولى ماذكره

ابن هشام وغيره نقلا عن الحديث الشريف :

لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وكلنا قد تعرى وأخذ ازاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فاني لاقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكمني لا كم ما أراه لكمة وجيعة(١) ثم قال : شد عليك ازارك، قال فأخذته وشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وازاري علي من بين أصحابي

والحادثة الثانية هي الحادثة المشهورة اذ أراد أن يسمر بمكة وتتمتها كما جاء في قوله عليه السلام : فخرجت لادنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت : ماهذا ؟ فقالوا : فلان زوج فلانة لرجل من قريش فلهوت بذلك حتى غلبتني فنمت

فما هو التعليل النفسي لهاتين القصتين اذا صرفنا النظر عن العامل الالهي الاكبر - فان هذا الهاتف وهذه الكلمة هما نشاط العقل الباطن نشاطا غير معتاد نتيجة الغرائز الشريفة التي أخفاها الرقيب العقلي على حكم البيئة التي يعيش فيها عليه السلام ، فسمعه صوتا وشعر به لكمة وهذا كثير الحصول في الامراض العصبية اذ يرى الشخص أو يسمع أو يشعر بأشياء لا وجود لها نتيجة العقل الباطني وكذلك تعلل الحادثة الثانية بمغالبة دافع السمر بغريزة الاقتصار والرضا بالواقع ، ومواجهته ، فشغل حتى نام

وليس هناك فرق بين العقل والجنون الا قوة الرقيب فاذا ظهرت الغرائز التي لا تلائم المجتمع سمينا ذلك مرضا ، واذا ظهرت الغرائز التي ترقي المجتمع وتسمو بالشخص الى منزلة رفيعة ومثل أعلى سمينا ذلك شخصية فذة وعبقرية، وعزونا ذلك الى الغرائز الشريفة الراقية التي لم يستطع الرقيب التغلب عليها بحكم الوسط ، فالوسط الذي كان فيه عليه السلام يبيح للاطفال تعرية سوءاتهم أما غريزته فكانت أرقى من ذلك ، ولذلك نشط عقله الباطني ونهاه عن العري

ويمكنك أن تؤول كل تصرفاته وهو طفل على هذا النحو فلا تجد هناك

(١) يظهر أن الرواية بالمعنى والا ففي استعمال وجيعة نظر.

الا تعليلا واحدا وهو أن غرائزه كانت نبيلة غاية النبل بما اشتهر به من الامانة والكياسة إلى غير ذلك من جميل الصفات

محمد تاجر

هذه الصناعة هي ألصق الصناعات باخلاق الناس ودراسة نفوسهم وفضل السياحات عظيم في تربية الشخص الخلقية . وقد ظهرت لك غرائزه في أمانته . ولنذكر الآن العناصر الجوهرية في هذا البحث وهي صلة محمد ﷺ بالاديان الاخرى وهل هي التي أثرت فيه في التحنث بالغار أم لا ؟ يقول لنا جماعة المستشرقين إن صلة محمد ﷺ في سياحاته بالاديان الاخرى عرفته الشيء الكثير عن تلك الاديان ودراستها ويخيل إليك انها كانت دراسة عميقة كدراسة الطالب الذي يتخصص في علم الطب والحقوق مثلا. ومثل هذه الدراسة لا بد ان يلزم الطالب فيها باب أستاذه مدة طويلة جدا من الزمن . توازي على الأقل مدة دراسة تلاميذ سقراط . ولكن ظهر لك انه لم يصرف في الرحلة الثانية غير ثلاثة أشهر منها نحو ثمانين يوما في الطريق . ويلوح لنا ان هذه الرحلة لم يكن الغرض منها سوى التربية النفسية . وتحمل مشاق السفر والمحافظة على الامانة التي عهد اليه القيام بها وهي توصيل التجارة والعودة بالثمن . كما بينا ذلك مفصلا في الفصل الثاني الذي مر بك .

ولقد ادعى درمنجهام وغيره انه عليه السلام ذهب إلى اليمن ولم تؤيد كتب السير هذا الزعم . ولكنها أضيفت فقط للتهويل .

دين محمد قبيل الوحي

فلننظر ما ذكره ابن هشام ونستنبط منه دين محمد قبيل الوحي وهل تعبده له صلة بالاديان الاخري أم لا ؟

لم يرو لنا أحد من المسلمين وأعداء الاسلام شيئا عن دين سيدنا محمد قبل الوحي. بل كل ما قالوه هو انه ﷺ (ابن هشام صفحة ٢٢٤) كان يجاور في حراء في كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهليه والتحنث لغة هو التحنف

وقال عبيد — صفحة ٢٢٥ — فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه فاذا قضى ﷺ جواره من شهره ذلك كان اول ما يبتدىء به اذا انصرف من جواره الى الكعبة فيطوف بها قبل ان يدخل بيته

هذا هو كل ما كان يفعله عليه السلام من التعبد قبل بعثه ولنطبق ذلك على علم النفس ايضا .

لقد نشأ محمد عليه السلام في الجاهلية التي كانت تحترم الكعبة وقد اوجدت الظروف التي طرأت على بناء الكعبة فرصة انقسام القبائل على حمل الحجر الاسود فكانت فرصة سانحة له اعطته ميزة الفصل بينهم وان يكون رداؤه محمل الحجر وان يكون له ميزة وضعه بيديه الشريفتين مكانه

فالهامات محمد ﷺ الطبيعية وغرائزه لم تجعله ينفر من الكعبة وهو يجهل ما سيكون لها من الشأن على يديه مستقبلا . وليس في التوراه والانجيل ما يدل على ان هذا هو بيت الله الذي بناه ابراهيم . فهو على حكم البيئة التي نشأ فيها لم يشذ عن احترام الكعبة . ولكنه نفر مما حوت من أصنام .مما كان المجموع يدين به

نقف هنا وقفة قليلة لنتأمل هذا الفرق الهائل بين احترامه للكعبة ونفوره من الاصنام .

فالكعبة كما رأيت لا تمت بصلة لليهودية ولا للنصرانية . ولكن العرب كانوا يحترمونها احتراما متوارثا وكانوا يعرفون أنها بيت ابراهيم

ولقد روى الكلبي في كتابه (الاصنام) أن منشأ هذه الاصنام هو شدة تعلق ابناء اسماعيل بالكعبة فكانوا كلما كثروا ورحلوا إلى جهة أخذوا حجرا من الكعبة ووضعوه في مكانهم الجديد وطافوا به تبركا

ثم دار الزمن بهم فعبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه

فانت ترى من هذا ان احترام الكعبة موروث في ابناء اسماعيل ومنهم محمد ﷺ ولكنه نفر من الاصنام .

وهذا فارق كبير . وتاريخه عليه السلام يكاد يحوي كل صغيرة وكبيرة من تعبده . بل كان يسأل بعد الاسلام من كل شيء . ولم نجد في عمل من أعماله دليلا على اتصاله بالاديان الاخرى

ولكن هناك أمر واحد تمحك فيه جماعة المبشرين بعد آن غذاهم به فريق المستشرقين تلك هي القبلة الاولى وزعيم هذه الفرقة هو ستوك هرجرونيه وفنسنك طريد المجمع اللغوي الملكي . وسنبين هذه الشعوذة عند الكلام عن هذا الرجل الذي وقفنا معه موقفا خالدا في هدم المستشرقين . على ان ذلك كان بعد البعث ولا شأن له بموضوعنا الآن. وعلى ان الاعمال الثلاثة التى كان يدين بها قبل البعث هي المجاورة في الغار وإطعام المساكين والفقراء فاذا انتهى ذلك الشهر طاف بالكعبة سبعا

فهل هذه الاعمال تمت بالصلة لاي دين من الاديان السابقة ؟

إذا كان هذا التعبد ان صح تسميته بهذا الاسم مصدره الغريزة والالهام وحده فهو على حكم الوراثة من جده الاعلى ابراهيم واسماعيل قد شق له طريقا وحده

ولم يقل لنا المستشرقون ومن جرى مجراهم أنواع هذه الصلة التي قالوا عنها بل اكتفوا بهذا الوضع للتشكيك لا غيره والا فاني اتحدي من يقول بأن هذه الاعمال التى كان يقوم بها محمد ﷺ متخذة من الاديان السابقة اللهم الادين الحنيفة دين الاسلام وملة ابراهيم، ومحمد بغرائزه والهامه شق له طريقا وحده ولم يتشيع لدين ما قبل بعثه . وإلا لكان الكافرون من أهل زمانه حاجوه بما كان يعترف به أو يعمله وليس في القرآن إشارة ما إلى ذلك مع انهم حاجوه بكل انواع الحجج وطعنوه بجميع انواع المطاعن الا هذا . فهل ماخفى عن معاصريه اكتشفه المستشرقون في آخر الزمان . ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم

الفصل الرابع

محمد ﷺ وروح الاجماع عند البعث

رأيت في الفصل السابق ان دين محمد ﷺ وتصرفاته قبل البعث كانت كلها من منبع الغرائز والالهامات العالية

وقديما قال الحكماء ان السر في عدم انجابه ذكرا ان أي ولد يخرج من صلبه كان محتوما ان يكون في درجة من النقاء يصل بها إلى درجة النبوة . وموت أولاده الذكور كان قضاء وقدراً لانه معد لتلك الرسالة العظمي التي ختمت به

ويقول لنا درمنجهام إن موت أبنائه قد زعزع عقيدة زوجته السيدة خديجة في الاصنام . واتى لنا بقصص كلها خرافية جديرة بان نهملها (١)

والآن نقف وجها لوجه مع جماعة المستشرقين كلهم الذين كتبوا ويكتبون عن حياته كرجل عظيم . ونريد ان يتمشى معنا القاريء في هذا الفصل انرى هل كان محمد ﷺ رجلا عظيما فحسب أم نبيا ورسولا ؟ ولو جدت عبقرية عظماء الرجال في عصره وفي بيئته كانت تقوم بما قام به أم لا ؟

رأى الباحثون من المؤرخين أن العالم كان في وقت البعث في حالة انحلال أدبي وسياسي عم شطري الكرة الارضية

في الشرق كانت الصين والتبت تمزقهما الحروب الداخلية، والهند كانت

---

(١) يقول درمنجهام ان سبب زعزعة عقيدة السيدة خديجة فى الاصنام انها كانت تقدم النذور والحلي لتلك الاصنام طلبا لحياة ابنائها الذكور من سيدنا محمد ولما لم تفلح هذه القرابين تزعزعت ثقتها وأغرت سيدنا محمداً بهدم كيانها

على ان الواقع ان أولاده الذكور كلهم ماتوا بعد الاسلام فلو كان استنتاج درمنجهام حقيقيا وينطبق على نفسيته عليه السلام لكان موت ابراهيم آخر انجاله سببا فى ثورته عليه السلام على العالم أجمع . ومع ذلك فكل ما قال معاصرو النبي عند موت أولاده الذكور أن الله قلى محمدا فنزلت سورة (والضحى والليل إذا سجي ما ودعك ربك وماقلى)

في فوضى أخلاقية نتيجة انتشار المذهب البرهمي الذي يعد من أركانه هبة البنات الابكار للآلهة وأن يقوم البرهمي فى دور الالهة في الاستمتاع بالعذارى مما لا يزال له أثر حتى اليوم ، وبهبة البنات للاستمتاع الديني في المعابد ويطلق عليهن اسم فتيات المعبد

وكان شمال غربي آسيا في حالة ركود وغموض ، وشمال افريقيا في حالة يرثى لها من الظلم الفاضح على ايدى فلول الرومان التي فقدت سمعتها الادبية ولم يبق منها الا بقية أنفاس تتردد كما تتردد آخر انفاس المشرف على الموت

وكانت اليونان تعانى ما تعانيه بقية البلدان لتبعيتها للدولة البزنطية . التي كانت مشتبكة في حروب مع الفرس الذين كانت جنودهم تعيث في أرض الروم فسادا حتى انحلت أمة الفرس نفسها

***

ومن هذا يتضح لك أن العالم كان في غمرة انحلال أدبي وسياسي ومادي وأخلاقي ولا يمكن تجدته الا بقوة خارقة تهديه سواء السبيل، على أن العالم لم يكن خاليا من بذور الاصلاح فقد كانت اليهودية معروفة . والنصرانية لها بابوية زوما . ومازال هذان الدينان منتشرين للآن. كما توجد انقاض المدنيتين اليونانية والرومانية .

هنا نقف بالقاريء قليلا لنستعرض الآراء التي يقول بها منكرو رسالة محمد ﷺ ونتمشى معهم قليلا في استنباطاتهم لنرى إذا كانت تهيء لهم مثل تلك الدعوى

قال المستشرقون ومن لف لفهم إن محمدا كان على اتصال علمي بالاديان الاخرى . وانه استقى معارفه ومعلوماته من سياحته في الشام وباحتكاكه بمن يحضرون إلى مكه للتجارة . وقد زاد الغامزون اللامزون بانه كان يحسن القراءة والكتابة (مرجوليث) بدليل الآية الكريمة (إقرأ وربك الاكرم)

وادعوا أن هذا اعتراف بأنه كان يعلمها . وانه قرأ عن كل شيء
إن تصديق مثل هذا الكلام فيه كل العبث بالعقل البشري . أما سياحاته في الشام فقد سبق عنها الكلام في الفصلين السابقين

وهناك رأي آخر يقول به بعض المستشرقين وهو أن محمدا كان يقتدي بموسى عليهما السلام وأن دعوته كانت لحب السلطان.

يقول هذا القول المستشرق مرجوليث في كتاب تاريخ العالم العام ونقول رداً على هذا إن غرائزه والهاماته كانت واضحة تمام الوضوح وتصرفات الشخص في صغره دليل على غرائزه وميوله . ولم يكن في غرائزه عليه السلام ما يؤخذ منه حب السلطان وحب المال والتملك أو غرائز الهدم والافساد وحب الظهور وهي أظهر الغرائز في حياة الاطفال الذين يرجح أن يكون لهم شأن في المستقبل بل بالعكس كانت غرائزه العاملة هي التواضع والوحدة ونفي الخلاف، ولم يعرف عنه انه استغل سلطانه في الاستفادة المادية وهي أهم مايطمح اليه العظماء .
كذلك لم يشتهر بالشعر ولا بالدعاية لنفسه وهما أقوى المؤثرات في عصره وفي كل عصر مما كان يهيء له أن يجمع حوله جماعة الانصار يعدبها العدة المستقبل الذي يتهيأ له لو انه شخص ذو مطامع

هذان هما الرأيان السائدان في كتب المستشرقين وهناك رأي ثالث يستنبطه بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة وهو أن محمداً عليه السلام كان على علم قليل بالاديان السابقة غير انه رأى أن العالم محتاج للاصلاح المعنوى والنفسي وان لا وسيلة لاصلاح المجتمع الا بهدم الخرافات والمعتقدات الزائفة فبدأ بالدعوة لهدم كل هذا

وانك لتجد في هذا الرأي أثراً واضحاً للثقافة والتعليم الراقي، فاصحاب هذا الرأى ما حكموا بهذا الحكم الا بعد الاطلاع على تاريخ العالم الذى لخصناه لك في أول هذا الفصل ثم درسوا المعتقدات التى كانت شائعة في ذلك العهد وكذلك

تعلموا الموازنة بين الاديان ثم درسوا التاريخ السياسي والاقتصادي للامم كلها حتى القرن العشرين ولذلك كان هذا الاستنباط لا يعد استنباطا بل يعد تقريرا لما حصل . ووليد الاطلاع على الاسباب والنتائج وهو تفسير لسر الدعوة التي قام بها الاسلام.

فهو كان يتسنى لرجل عاش في الجاهلية الاولى أن يعلم كل ذلك على غير معلم في صحراء جرداء قحلة ؟ وهل من الممكن لعقل بشري أن يسع كل هذا التحصيل والانتاج والتشريع وحده من غير معين من الاساتذة أو الجهابذة . مع ماعلمنا علم النفس اليوم أن للعقل طاقة وللذاكرة احتمالات لايمكن تجاوزها من غير ان يختل توازنها اختلالا عصبيا .

فأصحاب هذا الرأي يعرفون المقدمات والنتائج باجمعها فينسبون له عليه السلام قوة لايتسني لاحد من البشر ادراكها في ذلك الوقت الذي بدأ فيه الوحي وهنا سر اختلال هذا المنطق — وهذا الرأى . ففرق كبير بين أن تدرك الامر من أوله و بين أن تعرفه بعد نهايته باربعة عشر قرنا . وان تعرف أسباب نجاح الدعوة وتضيف اليها استنباطا من عندك ـ بعد ان تقرأ كل ذلك في كتاب واحد مأخوذ من آلاف المصادر .

ولو أدت دعوة محمد ﷺ إلى نتيجة عكس ما ادت اليه لما عدم أصحاب هذ الرأي الف حجة على خطئها وعدم ثقافة الداعي لها مما سنشرحه فيا بعد .

وهنالك رأي آخير وهو على مافيه من تهاون جدير بالذكر والتمحيص وهذا رأي أصحاب الفسلفة الحرة ايضا . وهو أن ليس لعظماء الرجال حاجة إلى التعليم وان اكثر العظماء لم يكونوا من المثقفين بل يكفى للنجاح فكر صاف وقلب طاهر جبار وعزيمة صادقة واخلاص حر عميق وايمان ثابت

وانا لنقف برهة أمام هذا الرأي لنقلبه ونقف علي كنهه لان نواحي عظمة

الرجال متعددة . فاذا صدق هذا القول عن رجل سياسي يقيم ثورة أو يهدم عرشا . او يفتتح دولة ، أو يستأثر بسلطة فانه لاينطبق على صاحب دين أساسه قوة الحجة وسلامة المنطق ، ويتناول التاريخ القديم والحديث في زمنه فينفي ويثبت ويناقش ويجادل ولا بد لهذا كله من ثقافة واطلاع لا وسيلة للالمام بها

فاذا كانت الالهامات والاخلاص والايمان وحدها هي مصدر كل هذه المعلومات فاننا لانشك ان مسافة الخلف بين منكري النبوة والمؤمنين قد قربت إلى أدنى حد لان الالهامات التي تتحدث بالغيب وتعلم المجهول وتحيط بتاريخ الاوائل والاواخر وتنفي وتثبت بطريق القطع والصواب هذه الالهامات هي فيض من فيض الرحمن ورسالة من الملأ الاعلى

وليس الصدق الصرف والاخلاص الحر والايمان الثابت الذي لايتحدث به صاحبه ولا يكتسب به شيئا من حطام الدنيا بل احتمل مرارتها لهداية البشر وانقاذ الانسانية — ليس ذلك كله — الا مرتبة من مراتب النبوة .

وهناك مسألة جديرة بالنظر والتفكير وهي أن الاسلام ليس للزهد والآخرة فحسب . بل نظم أعمال الانسان في الدنيا لتكون وسيلة الى الآخرة . وشرع من القوانين في الحياة المدنية ما ينظم الهيئة الاجتماعية . وعلاقات الافراد والامم . وهذه ليست طريقة عظماء الرجال رجال الدول . أو رجال السيف . بل المعروف عن كل عظيم انه استعان بالاحكام العسكرية ليمنع حرية الناس في حدود القوانين التي يضعها لصالح الدولة أو الفكرة التي يقيمها وهذا هو الامر الشاذ في دعوة الاسلام . فلقد كانت مبادئه عامة

ولننتقل الآن إلى مسألة أخرى جديرة بالنظر والبحث وهي اننا لوفرضنا محمدا ﷺ رجلا عظيما فحسب هل كان يتبع تلك الخطة التي اتبعها في نشر دعوته ؟ وهل كان ينتخب لها ذلك الوسط والزمن اللذين قام فيهما ؟ وهل كان من صالحه أن يقوم بهذا النوع من الدعوة لله

لقد أجمع المؤرخون أن مكة كانت وثنية حقا . ولكن ما ضرر الذي يصيب العالم من عبادة الاوثان أو الاحجار مادام ذلك لا يؤثر في حياتهم ومعاشهم . وهذه أمة اليابان مثلا تغلغلت في الوثنية إلى العهد الحديث ومع ذلك طفرت إلى المجد طفرة واحدة فالضرر الذي يحصل من عبادة الاوثن إن هو الاضرر فى نوع من انواع التفكير الصحيح . وإذا كان الدين هو معرفة حقيقة الله فقط من غير أن يكون وراء هذه الحقيقة مبادىء أخرى تنقذ البشرية من براثن الاوهام واستغلال العقول لتساوت جميع الاديان . وهناك أديان تكاد تلمس التوحيد ولكنها خالية من روح المنطق فترى في هذه الاديان أن البقر معبود يقدس . ويعد روثها بركة وتشرب أبوالها في حين تعد فريقا من الناس نجسا لا يصح لمسه ويجعل هذا الفريق من الناس محكوما عليه أن يعمل في الاقذار والاوساخ . فما الفائدة التي تعود على العالم من مثل هذا غير العبث بالانسانية .

وهناك بعض الفرق التي اخترعت لها مذاهب في الاديان السماوية ورجعت بالانسان القهقري الى انواع عبادة الاصنام والاشخاص . فيوزن صاحب المذهب بالذهب كل عام ويؤخذ هذا الذهب من اتباع مذهبه ، ومن هذا يتضح لك أن التوحيد هو تحرير الفكر من كل شيء ؛ ولنرجع إلى ما كان سائداً في مكة .

فالمهم والواضح أن اليهود — اتباع الدين الالهي الاول — كانوا يستغلون أموال هؤلاء الوثنيين بالربا الفاحش إلى حد استعباد الناس ودفعهم ببناتهم للبغاء تسديداً للديون الباهظة التي جرها الربا الفاحش

وقد كانت حالة العرب الوثنيين من الفقر والاملاق والبؤس والتشريد مما يستوقف النظر العادي . وكانت مصيبتهم الاقتصادية والادبية مما يبعث على التفكير في هدم اليهودية لا الوثنية . فاذا أضفت إلى ذلك أن مكة ليست بلداً زراعياً بل واد غير ذي زرع تكتنفه الجبال والصحارى علمت أن كل أرزاق

الناس كانت من التجارة ورعاية الماشية في الاماكن البعيدة .

ومكة على حالها الآن أهون بكثير من مكة قبل الاسلام . فورد مياهها الآن متوفر من [عين زبيدة] الذى جر اليها بعد الاسلام وكانت قبل بلقعا جافا .

وإذا عرفنا أن محمداً ﷺ كان تاجراً فان هناك مسألة لابد أنه كان يعرفها . وهي أنه رأى بعينيه وسمع باذنيه مصدر ألم الناس وفقرهم هذا الفقر الذي يقاسيه أهله وعشيرته من الربا والاملاق نتيجة طغيان أصحاب رؤوس الاموال من اليهود الذين استأثروا بتشريع القوانين بمكة ، فاذلوا بهذا التشريع أعناق العرب ودفعوهم دفعا إلى استثمار اعراضهم في البغاء (١) .

فالرجل العظيم الذي يوجد في مثل هذه الظروف لو كان غير محمد ﷺ ونصب نفسه للدفاع عن المظلوم ونصرة الضعيف فانه كان يتخذ طريقا مباشرا للقضاء على أصل الداء من منابته والتاريخ يدلنا على أن عظماء الرجال الذين عاشوا في مثل تلك العهود وجهوا جهودهم لاقصر الطرق فقاموا بالدعوة للاشتراكية ومحاربة أصحاب رؤوس الاموال ، أو البلشفية أو غير ذلك مما تراه مفصلا في كتب التاريخ عندما يستأثر بعض الناس بالامن ويستبدوا بالنفوس ، ولعل دراسة أعاظم الرجال تدعونا الى تأييد هذا الرأى — فنابليون مثلا لما رأى الثورات تمزق فرنسا لم يقم بدعوة الى الزهد بل عمل على حصر السلطة في يده من طريق الحرب والقيادة ، وانتظم في سلك الجنود حتى وجه الانظار الى مهارته كقائد وأظهر نفسه وكبر من شأن عبقريته بفتح ايطاليا ثم عمد الى كل الطرق التي تجعله قنصلا فامبراطوراً

ومحمد على باشا . عمل مثل هذا أيضا

---

(١) نعم إن البغاء كان فاشيا في الاماء وكن يشترين للاتجار باعراضهن وفي ذلك نزل النهي في القرآن (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وقلما كانت تزني حرة

وكان أسهل طريق أمام سيدنا محمد ﷺ أن يستغل عبادة الاوثان ولم يكن فيها وفي مبادئها شيء عن الربا، فاذا جمع القلوب حوله وقبض على ناصية السلطة ضرب نفوذه على ما حوله واستغله في الاصلاح وأول ما يوجه نظره هو الحالة الاقتصادية والادبية من طريق مباشر يمنع كل ما كان يشكو منه الناس

والمطلع على تاريخ العرب في الجاهلية يرى أن الدعوة كانت ممهدة لمثل هذا الرأي، وما كان عليه الا أن يستثير عواطف الناس في سوق من أسواق العرب ويدعوهم الى دعوة اقتصادية صرفة فيلتف حوله جماعة من أشداء السواعد ومفتولي العضل ويهاجم بها بيوت اليهود فيأخذ أموالهم ويطردهم ويحرر الناس من رقهم المادي. ويدلنا على صحة هذا الرأي ما نراه متجليا من روح الكراهية لاصحاب رؤوس الاموال. وانتشار الدعوة الي الرفق بالمظلوم فقد كانت الشعراء والخطباء مهدت فعلا الطريق الى مثل هذه الدعوة وتألف فعلا أنصار لمن يقومون بمثل هذه الدعوة يدلك على ذلك اشتات من قصائد وأشعار جاهلية في وصف هذه الحالة كقول بشر بن المغيرة عن اليهود :

وكلهم قد نال شبعا لبطنه   وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

وقال الاعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

كما يدلك علي ذلك عادة وأد البنات في طبقة الاشراف ضنا بهن ان يكن في يوم من الايام موضع استغلال للبغاء

فمن من عظماء الرجال يكون في مثل تلك الظروف ولا يقوم بحرب مباشرة ويستغل هذا الشعور الملتهب ويضرب في الصميم بنهب اليهود وقتلهم، هذا هو الرأي الذي توحيه الظروف، معاداة اليهود وكراهيتهم وطردهم، ولكن جماعة المستشرقين يقلبون الحقائق ويقولون ان محمداً أراد استغلال اليهود وهذا هو المنطق المعكوس والكلام الهراء الذي لا يقوم عليه برهان، فالعلل التي كانت

تشكو منها الانسانية لم تكن متجهة الى العقيدة بل الى انواع المعاملات الدنية والاجتماعية .

اما أن يقوم محمد ﷺ ويفكر في طريق شاق ملتو ويبدأ بمعاداة أهله في عقائدهم . ويسفه جيرانه وقومه في آرائهم ويهزأ بعقليتهم فأول ما يقابل بههذا النوع من التفكير في تلك الظروف هو تلك تهمة التى اتهموه هم أنفسهم بها أنه مجنون . لان هذا يثير الرأى العام عليه وما كان يقول به عاقل حكيم — لو كان عليه السلام مستسلما لنفسه وحدها من غير قوة عليا تؤيده وتوحي اليه وتدفعه دفعا الى هذا الطريق الشائك المملوء بالخطر .

كما أن مكة البعيدة السحيقة لم تكن أصلح مكان لمثل هـذه الدعوة لان الشخص العادي الذي ينظر الي اصلاح العالم لا ينتخب أقل البلدان عمرانا لدعوته . وماذا يكون رأي العقلاء لو قام رجل في أقل قرى الصعيد شأنا ليدعو دعوة اصلاح سياسي أو عمراني في مصر كافة . أو في العالم أجمع ؟

ومن المدهش أن الدعوة من أولها انبنت على مبدأ واحد هو الدعوة لله وحده . أليست هذه طريقة ملتوية ؟ وما الذي جعله يتمسك بدعوته هذه بعد أن سعي اليه زعماء العرب وأهله يولونه رياستهم ويعرضون عليه السلطان المطلق في الامر والنهي فابى ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ؟

لقد كان في استغلال شعورهم هذا ملكا كبيراً ودولة يطرد بها مصادر ألم العرب وشقائهم . وكانت فرصة ذهبية لجمع القلوب حوله وضرب المرابين واصحاب رؤوس الاموال ومفسدي الاعراض

لنقف قليلا ولنتدبر . ألم يستغل كل عظماء الرجال مثل هذا الظرف ؟ ألم يخلق نابليون ومحمد علي وكرومول وغيرهم مثل هذا الظرف ؟ وان تاريخ عظماء الرجال يخبرنا أن أول عمل يقومون به هو استغلال عواطف الناس لاممادا تهم في عقائدهم وأخلاقهم .

أما ان يبدأ شخص ما بمعاداة الناس وتحديهم كلهم . وضرب كرامتهم وعزتهم وعقولهم . فضرب من السياسة لم يعرف قبل سيدنا محمد ولم يعرف بعده.

وهذا تاريخ سيدنا موسى وسيدنا عيسى أمامنا وإنا لنرى ان دعوتهما تخالف هذا كل المخالفة . ولكل نبي ظروف وآية

والخلاصة :

(١) ان نفسية أي رجل عادي عاش في ذاك الزمن ما كانت لتتخذ من وسائل الاصلاح مثل هذا الطريق الشاذ

(٢) ان أسهل الطرق لاستغلال الشعور لم يكن قاعدة . بل كانت القاعدة تحدى الناس أجمعين وهذا ضرب من الاعجاز

(٣) ان الذين يعترفون بالالهامات العالية في نفسية سيدنا محمد ﷺ يقتربون من الحقيقة لو عرفوا أن هذه الالهامات فوق مستوى البشرية

(٤) الذين يحكمون اليوم على السيرة الشريفة بأسبابها ونتائجها لو عاشوا في ذاك الزمن لكان لهم رأي آخر .

※※※※※※※※※

الفصل الخامس

التوحيد هو روح الحرية

كان بودي أن أجمل مقدمة البحث في التوحيد ملخصا لنشأة فكرة الاديان في العالم وأن أتناول بالتحليل كل دور من أدوار التفكير الانساني الاول على ثقافته الضئيلة ليعثر على سر الوجود ويتفهم تلك القوة المسيطرة على العالم فتسير به على هذا النمط المحكم الذي أدهش عقل الانسان منذ تكوينه إلى الآن.

الا أن هذا البحث يعد من قبيل المعلومات العامة في التاريخ القديم وكثير منها معروف وفيه الدليل على أن فكرة الانسان في وجود قوة أكبر من قوته تكاد تكون في قدمها وعهدها كعهد الانسان على ظهر البسيطة وان العقل أدرك بفطرته أن هذه القوة موجودة ولما أعيته الحيل في حسها ولمسها جهد ان يدركها من مظاهرها وأثرها في الحياة فعبد النيل لانه يقوت الشعب ويعود بالخير والبركات وعبد النار لأنها مصدر قوة عظمى ويشعر بضررها فعبدها خوفا منها. وعبد الحيوانات المائية كالتماسيح لانه ظن أن الروح القوية أو روح القوة تحل فيها وقدس الابقار لان في لبنها قوة له، ثم عبد أشخاص الابطال في صور من تماثيلهم لانه رأى فيهم قوة انسانية فوق قوة الانسان العادي، ثم فكر في أقوى المؤثرات في العالم فعبد الشمس وحدها.

كان الانسان في كل هذه الظروف يتلمس إيجاد سر الوجود والعثور على معرفة الحقيقة لروح الحياة

يقول بعض المشتغلين بالفلسفه الحرة أن الانسان لم يبحث بغريزته عبثا عن مصدر تلك القوة إلا لانه ضعيف في كثير من أوقات حياته وقليل الحيلة فيما ليس

من قدرته . وقليل الادراك لظواهر الطبيعة التي تبهر نفسه فهو في حال المرض لايقوى بنفسه على محاربة الداء وفي حال الجدب لايقدر على انزال الماء من السماء . فلجأ من ضعفه أن يستمد العون من قوة أخرى تخيلها انها أكبر منه سلطانا على الوجود ورمز لها بتماثيل يسجد بين يديها يستمد العون منها ولو تمشينا قليلا مع هذه النظرية والفرض لخرجنا منها بنتيجة لاتقبل الشك وهي اعتراف الانسان أعترافا صريحا بعجزه منذ القدم إلى يومنا هذا في حل سر الوجود بعقله المطلق . وفكره الشخصي مهما علت ثقافته . ومهدت أمامه أسباب العلم .

وهذه النتيجة هامة فليتذكرها القاريء لاننا سنعود اليها فيما بعد . غير اننا نشير الان الى أن اعتراف الانسان صراحة بعجزه وضعفه جعله ينظر الى العالم نظرة فلسفية من غير أن يشعر ، فقد اعتقد أنه لم يوجد لا ليكون ضعيفا ذليلا فتناهى في طلب الذل والتقشف والزهد والخنوع، فاخذ يتلمس طرق ارضاء خياله عن القوة المسيرة للعالم من طريق اذلال النفس وقتلها بانواع شتى من التعذيب ترى صورا منها في الاديان القديمة التي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم كفقراء الهنود الذين يتعبدون بالجلوس على المسامير أو رفع ايديهم الى أعلى حتى تجف أو تتقدد أو غرس شص من الحديد في ظهورهم أو يعلقون على الاشجار . وقد تغالى الانسان في زعمه هذا منذ القدم حتى قدم الدم الانساني قربانا لاستجلاب الرضا .

وقد يقال إن العالم تطور كثيرا ووجد فيه من العلماء والفلاسفة من أرشدوه الى معرفة شيء عن النفس الانسانية ومع ذلك لا نشك أن فطرة الانسان قد جعلته يفكر في القوة التي أوجدت هذه الكائنات وكانت فكرة الدين جزءاً من عقلية الانسان ، ونرى ذلك متجليا عند اكتشاف (كورتس) لامريكا الوسطى

وتوغله في بلاد المكسيك لاول مرة حيث حدثنا عن وجود ديانات فيها لا تختلف كثيرا عن ديانات العالم القديم ووصف لنا المذابح البشرية قربانا للآلهة ، ما يدل على ان فكرة الدين واحدة في العالم القديم والجديد متأصلة وجزء من تكوين الانسان ، وان كان الطريق للعبادة مرسوما على قدر تفهم الانسان معنى الحياة كما يوحيه اليه ضعفه وعجزه والتماس معرفة تلك القوة العظمى التي أوجدته وصيرت العالم بذلك النظام البديع الذي بهر نفسه

واذا تتبعت تاريخ هذا التطور وجدت أنه حتي بعد ظهور أديان سماوية استمر تعذيب النفس واحتمال الاذى وكانت منتشرة في أوربا في البلاد التي يفتحها المسلمون حيث يحدثنا التاريخ ان بعض المتقشفين أخذوا يعذبون انفسهم تقربا لله بأنواع من العذاب كربط الساق حتى يتغنغر ويفسد ويتساقط منه الدود ، وكعدم الاستحمام وعدم تغيير الملابس حتى تتساقط من نفسها ، وكالجوع باستمرار حتى الاشراف على الموت أو غير ذلك من ضروب الاحتمال للآلام (١)

(١) جاء في صحيفة ٦٠٣ من كتاب دنيانا الغريبة — أن المسيحية في القرنين الاولين منها كانت تعد تعذيب الجسم أرقى صفات التقى فالقديس هيلاريون لم يحلق الا مرة في العام في عيد الفصح. ولم يغتسل أبدا حتى صار جسده كالحجر الخفاف ولم يغير ملابسه حتى تتساقط من نفسها

والقديس مكاريوس كان يحمل دائما ثمانين رطلا من الحديد وينام في مستنقع لكي تلدغه الهوام. والقديس يوزيبس عاش ثلاثين سنة في بئر جافة وكان يحمل مائة وخمسين رطلا من الحديد . إلى غير ذلك من أنواع التعذيب

our wonderful world p. 603

والحكيم العربي يقول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وجاء في الآثر : ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى

وفي كل ظرف من هذه الظروف نري ظاهرة أخري في تفكير الانسان وهي ان هناك واسطة بين الانسان وتلك القوة القادرة التي تخيلها فاستغل قديما جماعة الكهنة في مصر ذلك حتى نازعوا الملوك سلطانهم وفي البلاد التي ما زالت في الوحشية الاولى أقامت أمثالهم مقام السحرة أو غير ذلك مما يطول شرحه

وفي الهند نرى سلطان كهنة المتبوذين يكاد يشاطر الرجل رزقه وانهم يعيشون عالة على الناس من قبيل الاستهواء الديني

***

بعد هذه المقدمة الوجيزة لتاريخ فكرة الدين نعتذر عن عدم الاطالة لان هذا الموضوع من المعلومات العامة التي يستطيع الباحث ان يجدها في الكتب المتعلقة بهذا الموضوع ولعله يستطيع اذا اطلع عليها ان يلم بها إلماما تاما وان يعرف أن التوحيد في الله كان معروفا حتى قبل ظهور الاسلام لان هناك اديانا سماوية سبقته ولكن كبار عقول الفلاسفة حتى بعد ظهور الاديان أخذوا يتلمسون اسبابا منطقية ليقنعوا انفسهم بوجود خالق

ويطول بنا أيضا شرح هذا . إلا أننا نشير إلى أنهم انقسموا ثلاث فرق

[١] فريق نظر إلى الاديان بفكره الفاحص فقط ثم اقتنع

[٢] وفريق فرض الشك وأراد أن يقنع نفسه من طريق التشكيك في كل ما أمامه من الاديان

[٣] وفريق ترك كل هذا واراد أن يبحث عن سر الوجود بنفسه . فاما الفريق الذي اقتنع بنفسه ببحث الاديان التي أمامه فلا مناقشة لنا معه

وأما الفريق الذي أخذ يتشكك ليقنع نفسه من طريق الشك فعلى رأسه [ديكارت] وهذا مذهب أقل ما فيه أنه مبني على زعزعة المنطق ومن الرجل يفرض نفسه مثلا أعلى في الكمال العقلي فيريد أن يقنع نفسه بنفسه لا من طريق

تفهم الشيء بذاته بل طريق التشكيك فيه . وهنا لا بد أن تعترض الشخص أمور أكثر تعقيداً من أن يحلها بنفسه ولنضرب لك مثلا ديكارت نفسه لا يعرف شيئا من العربية فلا يمكن أن يعرف إعجاز القرآن . وديكارت لا يعرف شيئا من علم الفلك فلا يمكنه أن يفسر الآيات التي تعد إعجازا في علم الفلك . كما توجد آيات أخرى تعد اعجازا في الطب لا يمكنه فهمها .

ومن عيوب العقل الانساني انه كثير الزهو بنفسه وان الفيلسوف يظن نفسه بطلا في كل شيء . مع ان ديناً كالدين الاسلامي تناول كل أنواع التفكير والتشريع وهذا أكثر من ان يحكم عليه انسان واحد .

أما فريق الماديين فليس من موضوعنا مناقشتهم لاننا نري في القرآن اعجازاً يفنعهم وان الاسلام يتمشى مع العلم جنباً الي جنب وان في آيات « خلق الانسان من علق » و « خلقناكم من طين » و « خلقناكم أطواراً » لادلة إذا تفهمها هؤلاء الناس لخروا ساجدين إلا اننا لا نتكلم في هذا البحث الآن. وانما نقتصر على الاعجاز النفسي في الاسلام . على اننا نرى من وجهة أخرى ان الموضوعات العلميـة الفنية تتمشى جنباً الى جنب مع الاسلام فأول آية من آيات القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »

فأنت ترى أن أول نداء للاسلام كان على دعامتين . الله والعلم . وتري كثيراً من آيات القرآن أحالت على العلم تفهمُ دقائق الحياة وعناصرها . وتركت للعقل البشري حريته في البحث والاستقصاء . وتركت للفكر والسمع والبصر والافئدة سبيلا لمعرفة الله عن طريق العلم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ولقد قامت الدعوة الاسلامية على مناقشة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .

والظاهرة الغريبة جدا أن الاسلام لم يجعل فاصلا بين المرء وربه وجعل الناس كلهم سواسية . ان أكرمكم عند الله اتقاكم . وما محمد لارسول قد خلت من قبله الرسل وهو انسان كجميع الناس لولا انه نبي كريم وبهذا ترى أن التوحيد ضرب الحجر على العقول ضربة قاضية . وضرب استضعاف المرء لنفسه ضربة قاتلة . وساوى بين الناس جميعهم ، كما هدم كل أساس للافكار الخيالية في التقرب من الله بطريق تعذيب النفس — ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق كما ضرب الوساطة بين العبد وخالقه ضربة لاقيام لها

انظر وتأمل هذا النبي الكريم . على جلاله وعظمته وعلى مكانته عند الله والناس لما رأى رجلا مقبلا يرتعد رهبة قال عليه السلام [خفض عليك أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)

في هذه الحادثة وحدها : وفي هذا الحديث وحده كل معاني الحرية وكل معاني المساواة وكل معانى حكمة الاسلام فى الحريه الشخصية

ولنذكر لك أثر التوحيد في تكوين النفس ، وكيف تطور الفكر الانسانى بمبدأ التوحيد ، ونبتت عند الناس فكرة الحرية الشخصية والدينية منذ الساعة الاولى التى قرع سمع العالم هذا النداء الاسلامى

لقد كان طبيعيا أن تصادم هذه الدعوة الحرية بكل معانيها بالعقائد التقليدية التي سبقت الاسلام . وهي عبارة عن اعتراف الانسان بضعفه اعترافا صريحا — كما تقدم — واقراره بحدود ضيقة لعقله لفهم تلك القوة الهائلة المسيطرة علي العالم وعبادة البطولة والابطال والقوة في رموز من التماثيل يستلهمها وقت الضيق ، ويتقرب منها عند الحاجة ، فقام نزاع شديد بين هذه التقاليد الموروثة فى الجمود الفكري

ورأى الناس الدعوة لله والعلم عن طريق الفهم والحجة والبرهان والعقل فنشبت معركة هائلة بين العقل والقوة ، ومظاهر القوة مادية محضة فلجأ المكذبون إلي ايذاء النبي وصحبه وانزال العذاب بهم مما يشيب لهوله الولدان ، بالضرب وبالحرق ، وبالكي ، بكل انواع الوحشية

ذلك لان عقول هؤلاء الناس لم تكن في أدمغتهم ، ولكن في أيديهم وفي أدوات اعتداءاتهم ، كما رباهم على ذلك هؤلاء الناس الذين استغلوا ضعفهم الفكري، فاستغلوا عواطفهم لاستدرار الاموال منهم .

ولقد صبر محمد ﷺ وأصحابه على الاذى والعذاب ، وهذا الصبر والثبات في موضعهما ضرب من ضروب تطور الفكر الانساني من حال إلى حال، فالناس قبل الاسلام كانوا يحتملون العذاب تقربا من الله ، ويحتملون الاذى الفكرى من غير فكرة معينة عن الله ولكن أصرار المسلمين على عقيدتهم ، واحتمالهم الآلام في سبيلها ، هو دفاع عن حرية الرأي والعقيدة دفاع عن حرية التفكير ، دفاع عن الحرية بكامل معانيها ، فصاروا يقبلون العذاب في مقاومة العادات والاخلاق الموروثة ، وفي سبيل تحرير الفكر

وهناك ظاهرة غريبة . أغرب ما يتصوره العقل . فقد مضت ثلاثة أعوام على دعوته ﷺ ولم يتبعه الا ثلاثة عشر شخصاً وهذا يدلك على مقدار جمود الفكر في تلك الايام . وإذا قست ذلك بما يحصل في زمننا هذا لوجدت فرقا كبيراً . فان حرية التفكير الآن تجعل كثيراً من الناس يعتنقون المبادىء الحديثة أيا كانت . حتى المبشرين والمستشرقين تجد لهم أتباعا وأنصاراً

على ان الغريب في هذه الظاهرة في ثبات أصحاب النبي على الاذى انه لم يكن بيديه شيء ما من حطام الدنيا ولم يكن لديه من المغريات ما يغريهم لهذا الاحتمال . ولو كان رجلا عظيما فقط كما يدعي المستشرقون لغير من خطته وحبب دعوته الى الناس بتغيير وجهتها لاقرب طريق الى عقولهم

ولكن هكذا كان ، فالاديان التي سبقت الاسلام كان لها زعماء من رجالاتها قد استغلوا العقول ، فقضوا على التفكير قضاء يكاد يكون مبرما ، ولذلك كانت رسالة محمد ﷺ شاقة في بناء التفكير الانساني من أساسه على مبادىء صحيحة هي توحيد الله ، وأما ما بقي من الدنيا فقد صار مباحا للعقل والفكر في حدود المنطق الحكيم

ولقد رأيت فيما قدمنا من أحوال العالم وقت البعثة ان العالم كان في حالة جمود فكري وركود سياسي وأدبي وان المرأة كانت في الدرك الاسفل ، وان الرأسمالية كانت طغت على العالم وملكت أزمته ، ولم يكن هناك وسيلة لانهاض العالم من عثرته

فلما دوت كلمة التوحيد والعلم والتفكير ، عرف العقل مكانه ومقامه ومركزه في الوجود ، وعرف الناس انهم كلهم سواء لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وان لا سلطان على العقل ولا رياسة للعقائد ، وان الثواب والعقاب ليس بيد انسان كائنا من كان والجنة لاتباع ولا توهب ، وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة «اطلبوا العلم ولو بالصين»

وهكذا تحررت العقول وعرف الناس قدر أنفسهم ، وانه لا فارق بينهم ولا شيء يسيطر على افهامهم ، غير العلم ووحي الضمير عن طريق الفهم والحجة

هذه هي المبادىء التي لا توافق الاستعمار ، والتي يعمل المستشرقون منذ القدم على مقاومتها ، وهي التى قال عنها « سيكارد » ان الاسلام في روحه الخاصة ينافي مع لحمتنا فيجب التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لنا

هذه هي المبادىء التي جعلت للاسلام أعداء من المسيطرين على البلاد الاسلامية فربوا فريق المستشرقين لكي يناهضوها

وهذه المبادىء هي الحرية والاخاء والمساواة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسوية بعد عشرات السنين من الهول والمذابح البشرية وبعد اثنى عشر قرنا من ظهور الاسلام ، وبعد أن قررها القرآن حقا من حقوق الانسان، وجعلها أساس العقيدة ، وفرضها على الناس دينا وايمانا قبل ان تكون مبادىء

ثم انظر إلى قرارة الآلام البشرية التي ولدت في الثورة الفرنسوية ما سموه حقوق الانسان في الوجود والحرية الشخصية والفكرة

على أن هذه الثورة لم تكن الا لانتزاع حرية الناس من أيدي العابثين بها وزن بين ذلك وبين المبدأ الاسمى الذى وضعه القرآن في الحرية الشخصية والمساواة بين الناس حتى النبي نفسه لم يدع سلطاناً ولا سيطرة وانه لا يملك لنفسه شيئا إلا ما شاء الله (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

أليست هذه هي مبادئ المساواة بأوسع معانيها . خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك آية (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول أني ملك)

قلنا ان الانسان الاول اعترف صراحة بضعفه وتمثل القوة العليا في الاشياء البارزة القوة والفائدة كالشمس وفي الابطال فصورهم تماثيل يتذكرهم بها ويتقدم إلى هذه التماثيل بالقرابين والخشوع والاستذلال وكان أول معجبات التوحيد محو هذا أيضاً ليكون الفكر حراً من مؤثرات الاشباح التي تلوح دائما للعين فتؤثر في العقيدة . وحرية الفكر . ولئن كان في الاديان الاخرى شيء من ذلك فان من قاموا بعداوات التماثيل (١)سموا أبطالا للاصلاح الفكري الديني وهذا جزء قليل من أجزاء التوحيد وعنصر من عناصره . أفلا ترى بعد ذلك التأثير النفسي للتوحيد وأثره في حرية الفكر والصراحة في تحرير الفكر من كل قيد يؤثر فيه ؟

وهلا ترى معي ان أثر تكريم بعض الاشخاص باقامة أضرحة وقباب عالية من قبيل الذكرى التاريخية فقط بين المسلمين قد جر السذج والهمل من الناس الى الاعتقاد بأمور تنافي دينهم . ؟

(١) مارتن لوثر . صاحب مذهب البرتستنت

اذن فالتوحيد الصريح أساس المساواة بين الناس · وجعلهم كلهم طبقة واحدة وهذا هو الاخاء الانساني للشعوب جميعها ولم تتمخض الاجيال كلها عنه إلا بعد الحرب العظمى في جمعية الامم وان كانت هذه الفكرة لم تبد صريحة للآن · إلا ان التربية والتهذيب والرقي الفكري سيجر العالم إلى المبادىء الاسلامية على رغم من يتبجحون بانكاره وعلى رغم أنف الجمود الفكري الذي طغى على العالم. بتأثير قوم يستفيدون ويستمدون نفوذهم من تقييد العقل وتضليله وعدم تحريره

ويقول بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة — لماذا يعتمد الانسان على الدين في فهم الفضيلة والاخاء ؟ ولماذا لا يبلغ ذلك بالتعليم وان يعمل الخير لانه عمل انساني وان يأنف من الشر لانه عمل وحشي ؟

وهذا القول على ظاهره مسحة من العقل ولكن منطقه ناقص وغير سليم؛ لان العقول البشرية تتفاوت في تقديرها للخير والشر . وما تراه بعض الامم خيراً يراه غيرها شراً في العادات البسيطة، وقدمر بك ان الامم التي لم تتمدن جعلت الذبائح البشرية قربانا للالهة عملا خيراً . وقد تدهش اذا علمت ان الرقي والتعليم مهما كان تقدما لم يغيرا شيئا من عقائد البوذيين في الهند . وان اكبر الزعماء كغاندى على علمه وفضله يقول ان الزلازل غضبة من الله . ولامانع من الاعتقاد بذلك ،وان كان لها أسباب طبيعية معروفة ، وقد يكون ذلك من باب موافقة أقدار لاقدار . ولا زالت المرأة التى في حالة النفاس قذرة تعامل بالاهمال في أقذر مكان . ولا زالت القابلة التي تولدها تدخل عليها بأقذر الثياب ولا يزال للكهنة على كل شيء ضريبة حتى أصبح ربع السكان من الكهنة الذين يعيشون على هذه الاموال . وكذلك نرى في حياة المرأة حتى في اليابان أمراً لم تألفه النفوس في جميع أصقاع الارض وهو تقديم صاحب البيت

زوجته هدية لضيفه اذا بات في منزله (١) . مع ان اليابان من أرقى البلاد مدنية وتعليما ، وهذا يدلنا على انه لا يوجد ضابط للتعليم ولا حد للعادات

ومن هذا كان الدين الاسلامي عالمياً يضع حدود الغرائز والعادات ويضع قوانين لمعنى الانسانية ومعنى البشرية ، وان العالم الآن مدين بنشاطه الحاضر الى تحرير الفكر الذي أوجده الاسلام ولو كره المبطلون

وهنا قد يعترضنا انسان فيقول لنا ان تحرير الفكر كان جزءاً من الفلسفة اليونانية ومن ضمن تعاليم سقراط وافلاطون وارسطو . ثم يكرر لنا الاقوال التي نقرأها دائما في الكتب الغربية من ان العالم مدين بحرية الفكر لليونان .

وان فضل العرب لم يكن الا نقل الثقافة اليونانية وتسليمها الى أوروبا الحديثة وان العرب أنفسهم مدينون للفلسفة اليونانية ونحن نعلم ذلك حق العلم ولكننا نقول ان حرية التفكير شيء ومبادىء العلوم الطبيعية والمنطقية شيء آخر ، وان دساتير اليونان القديمة ومناقشاتهم الجدلية كانت ضرباً من التجارب الاولى كان بعضها ناجحاً وكثير منها كان خطأ صريحاً كما ترى في علوم العناصر المكونة للعالم، والامزجة البشرية ، فالفلسفة اليونانية هي مبادىء العلوم ، ولكن حرية الفكر وتحديد الايمان على وجهة واحدة ، وجعل العلم مرتبطاً بالايمان ، وان لا حرج على العقل أن ينشط من عقاله ، وان تكون هناك شريعة بالقدر الذي يكفل الفضيلة ويمحو الضعف ويساوي بين الناس في حقوقهم المدنية والدينية — فهذه أمور لم تكن معروفة من قبل في أي شريعة أو دين .

أضف الى ذلك ان الفلسفة اليونانية قد خدمتها أوروبا ، وخدمها العرب

(١) وأبطلت هذه العادة حديثا من كثرة نقد الاوروبيين «جولة في ربوع الشرق» لمحمد ثابت

قبلهم خدمة جليلة فمباحثها مستفيضة ولها الكتب الكثيرة المؤلفة بروح الانصاف والتضخيم والتكبير والشرح والتفسير فكانت هذه دعاية لتلك الفلسفة قد غطت على سمة فلسفة أجل منها وسأعطيك مثلا ترى منه أثر هذه الدعاية

فأنت تعلم أن الاسلام وان كان دينا تاما الا انه في الحقيقة تشريع يعامل الغرائز الطبيعية ونزعات النفس في حدود العقل والحكمة وترى أن مدارس الحقوق في العالم الغربي تدرس القوانين الرومانية ونظام التشريع الدستوري في اليونان والرومان درسا مستفيضا ، وأما التشريع الاسلامي على ما فيه من جلال فليس موضوع دراسة علمية فنية ولا يعرفه أحد من المشرعين الاجانب .
أولا ترى معي الآن أن الدعاية للقانون الروماني والدستور اليوناني أكبر من قيمتهما بالقياس على القانون الاسلامي المدني والجنائي ودستور الشورى والحكومة الديمقراطية ؟

أليس هذا من قبيل تعصب أوروبا لاصلها اللاتيني حتى في الدراسات الحرة ؟ وقل لى كم متشرع في مقارنة القوانين يعرف ما في الاسلام من قانون مدني وجعله موضوع بحث في رسالة خاصة

ألست ترى معي أن دراسة حرية الفكر الاسلامية على مبادىء التوحيد موضوع جدير بالنظر والبحث المستفيض ؟ ألم يكن للتوحيد ذلك الفضل العظيم في جمع القلوب فكون وحدة بشرية بين الممالك المختلفة التي دخلها العرب ولا زالت هذه الوحدة باقية الى اليوم على غم تلك الخلافات التي يوقد لظاها المستشرقون والمبشرون وخلق مسائل الاقليات الدينية ؟ ولم يكن الفضل في كل ذلك الا لفكرة التوحيد التي متى اقتبستها الافهام واستوعبتها الافئدة كانت كلها في اتجاه واحد نحو الوحدة الانسانية والنهضة العقلية التي لا تفهم رجعية

ان المستشرقين والمستعمرين يفهمون ذلك حق الفهم ولذلك هم يعملون على مقاومة الاسلام

ولنتحدث لك الآن عن طرق تضليلهم

الفصل السادس

أثر التوحيد الاجتماعي

لم يكن الفضل في مبادىء الاسلام لشخص معين . قد علمت أن محمداً عليه السلام كان يضع نفسه موضع الانسان ، لا موضع صاحب السلطان ، وكان هو وحده المثال الكامل في البذل ، وفي العدل ، فلم يستغل يوما مركزه ودعوته العظمى لنفسه ولا لشيء من حطام الدنيا بل كانت دعوته خالصة لله ، ولتحرير الفكر ، فلم يأخذ نصيبا من غنيمة يزيد على نصيب سواه ، ولم يدع لنفسه شيئا خارقا ، ولم يقل ان صلته بالله تعالى تزيد على صلة العبد — وكلنا عبيد الله — ولم يفضل الناس الا بأنه رسول الله ، وهذه منزلة اختاره لها الله سبحانه وتعالى

وكان أصحابه عليه السلام ينظرون اليه هذه النظرة أيضا ولذلك قال أبو بكر حين توفي عليه السلام ودهش الناس للخبر : (من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت)

وفي حياته عليه السلام لم يكن مستبداً برأيه في أمور الدنيا بل كانت أمور المسلمين شورى . وكان أصحابه يختلفون معه في الرأي ، والتاريخ يدلنا على ان سيدنا عمر اختلف في الرأي مع سيدنا محمد ﷺ في نحو عشر ين مسألة وعزز الوحي رأي عمر دون رأي رسول الله ، أشهرها : مسائل قتل أسرى بدر ، ومسألة الحجاب ، ومسألة الخمر ، ومسألة الاستغفار للمنافقين ، الى غير ذلك

هذه الحقيقة ترشدنا الي مغزى كبير ، وغاية كبري من مغازي التوحيد والنظر الى ان الاسلام لايجعل سلطاناً على النفوس والعقول والافهام الا الله

وحده . وما دون ذلك فالجميع سواء وآراء الناس كلهم قابلة للشورى والفحص ولو كان الرأي لرسول الله نفسه

وليس بعد ذلك وضوح لتقديس حرية الفكر ، التي هي دعامة من الدعامات الاصلية في الانسان وهذا هو أظهر معنى من معانى الاسلام

ولكن جماعة المستشرقين يعمدون الى القاموس ويتفهمون منها معنى كلمة الاسلام . ويقولون عنه ما قال مرجوليوث ان معناه (الذل والخضوع) ومع ذلك لا يقولون انه استسلام لله ، بل يقولون انه — الخضوع فقط —

ولقد رأيت في فصل التوحيد ان المعنى الذي تعبر عنه كلمة الاسلام هو معنى تضيق به صفحات الكتب الضخمة ، وان له معنى روحيا واجتماعيا كما سبق ذلك .

ولذلك كان أول أثر من آثار توحيد الله وترك المعتقدات القديمة هذا التوحيد بين القلوب في قبائل العرب ، وهذا التوحيد في الاخاء بين الشعوب المتفرقة ، وهذه النهضة الكبرى التي جمعت الامم كلها تحت طابع واحد حين افتتح العرب الاقطار وورثوا ملك الفرس والرومان

وانك اذا تصفحت التاريخ علمت ان الامم الفاتحة الغازية لاتخرج عن واحدة من ثلاث

١ — أمة تتخذ الحرب صناعة وحرفة وموردا للرزق كالاتراك الاقدمين في فتوحاتهم فلا يعمرون ما يفتحون

٢ — أمة تجارية كالفينيقيين وانجلترا تغزو الممالك لفتح اسواق لتجارتها

٣ — أمة تطلب السعة من الارض لضيق اهلها بها فتغزو البلاد طلبا لمنفذ جديد يعيش أهلها فيه

وهناك من الامم من يفتتح الممالك حبا في الفتح ، كالاسكندر ونابليون

وأمثالهما وهؤلاء تموت فتوحاتهم بموتهم

ولم يحدثنا التاريخ ان أمة من الامم فتحت الممالك لاجل بث فكرة أو نشر مبدأ غير العرب بعد الاسلام ، فالعرب قاموا بفتوحاتهم لنشر المبدأ والفكرة وتعميم الوحدة البشرية

يتجلى لك ذلك من كتب رسول الله ﷺ للملوك والا كاسرة ، ولم يكن في هذه الدعوة غير نشر فكرة التوحيد ولم يكن عليه السلام من زخرف الدنيا بحيث يحاكي من كاتبهم في الارستقراطية والعظمة ولكنه كان يدعوهم دعوة ديمقراطية متواضعة

يقول مرجوليث — ان الاسلام هو الدين الحربي ، مشيرا بذلك الى الغزوات والى مبدأ القتال في الفتح الاسلامي والى تخيير الامم غير الاسلامية بين القتال والجزية

وليست المسألة في غموض يدعو الى كل هذا الغمز واللمز فالجزية شيء نوع من الزكاة على غير المسلم (١) ، والاسلام دين فيه كل معاني الديمقراطية الاشتراكية والحرب وسيلة

ليس من ينكر ان للجهل عقوبة ، وليس من ينكر ان الجمود الفكري والاستسلام للتقاليد نوع من الرجعية العالمية وليس لمستشرق ان يلوم الاسلام على هذا وليس له ان يضع رأيه في كفة ميزان ورأي عقلاء العالم أجمع في الكفة الاخرى .

فها نحن أولاء قد عرفنا أن دعوة الاسلام لله ، وللعلم وليس في هذه الدعوة عار على الانسانية

---

(١) لاجل حمايته ومعاملته بما يعامل به المسلمون ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم فان عجز المسلمون عن حماية الذمي لم يكن لهم الحق فى اخذ الجزية

وقد رأيت أن الزكاة فرض على كل مسلم . فكيف يعيش غير المسلم في هذا الوسط من غير زكاة .

وليس بيت مال المسلمين بمقصور على معاونة المسلم فحسب ، بل وغير المسلم بلا قيد ولا شرط

وليس أدل على تفسير هذا المعنى من مبادىء الاسلام التي شرحها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون بعده ، وقد رأينا من أعمالهم المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم ، وفي قصاص سيدنا عمر من ابنه لاجل حق امرأة مسيحية قبطية ألف دليل ودليل

وفي قوله رضي الله عنه « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » كل مبادىء الاسلام من الحرية والاخاء والمساواة

وفي وصايا سيدنا علي للاشتر النخعي الذي ولاه على مصر ما يزيد الشرح ويجلى البيان ، ولقد قال له :

« . . . اعلم يامالك أني وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ... ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

الى قوله : ثم الله الله في الطبقة السفلى ، من الذين لا حيلة لهم . والمساكين وأهل البؤس والزمنى فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافي الاسلام في كل بلد فان للاقصى منهم مثل ما للادنى - وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك بالنظر في الكثير المهم . »

ومن هذا ترى ان الجزية والخراج هما تنظيم للاحسان ، بلا فرق بين الاديان . لانهم متساوون في نظر الاسلام من جهة الخلق وليس جعل الاحسان قانونا بمار على الانسانية . وقد أبنا أن استجداء الضمائر للاحسان أخفق ولم يثمر في كثير من البلاد المتمدنة . والارتكان على العاطفة الانسانية وحدها لم يكف منذ هجر الناس مبادىء الاسلام الى اليوم .

ولعمرى انك لو اتخذت رسالة سيدنا علي هذه على حقيقتها لوجدتها تفسيراً واضحاً للسياسة الاسلامية ويكفي قوله لعامله « ان الناس إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق » أن يعرف الناس جميعا أن الاسلام لا يفرق بين الاديان في المعاملة وبالاخص في الاحسان والحق في بيت مال المسلمين .

والتفسير النفسي لكل ذلك هو أن الاسلام يعامل الغرائز البشرية بميزان العقل والحكمة والتشريع الاوروبي يعامل الناس بالتجارب والاختبار، ولم يهتد إلى الآن الى أن الاسلام مبني على معرفة أدق بعلم النفس فالله الذي خلق النفوس حدد عقوباتها وحدد معرفتها . اذا علمت ذلك فلا اعتراض . ومن يقل ان هذا ليس من عند الله فليأت ببرهانه المنطقي الذي لا شعوذة فيه ويكفى ان مبدأ تحريم الربا أخذ الآن يتطور في أوروبا الحديثة الى شكل الافلاس في الدفع بتغيير أسعار العملة وتخفيض قيمتها فلا يدفع المدين لدائنه شيئاً ويكفي ان ألمانيا قللت من سعر عملتها الى الصفر لتجمع ذهب العالم ثم ألغت هذه العملة .

.. وليس من المجهول أن عقوبة الجمود لازمة .

فالتعليم الاجباري في كل بلاد أوروبا له قوانين تحميه وعقوبة الحبس توقع على من لا يعلم أولاده . وعقوبة السجن لمن يزور في ايراده حتى لا يدفع ضريبة الدخل . وضرائب الدخل والربح أصبحت مبدأ أوروبيا بعد ان قررها الاسلام بشكل أدق منذ أربعة عشر قرنا . في ركن من أركان الاسلام وهو الزكاة .

فهذه المبادىء التي تتقدم اليها أوروبا نتيجة الاختبار والتجارب هي المقررة في الشريعة الاسلامية . فطلب العلم فريضة على كل مؤمن ومؤمنة والنظام الاجتماعي في الشورى والسياسة العامة في الأمن والعلاقات الشخصية كلها من تعاليم القرآن .

ولعل أبلغ رد على تعامل أوروبا بالربا وهي المعاملة التي حاربها الاسلام وحكم عليها بالموت هي تلك الظاهرة الغريبة التي تبدو في أوربا اليوم من قيام حكومات اشتراكية محضة تحرم الرأسمالية وجمع الثروة في أيدي فئة خاصة وهو سر تحريم الربا . لعدم استئثار فئة من الناس بالسلطة المالية والاستبداد بالعالم .

فهنالك . لما وقعت أوروبا في الازمة المالية التي تنبأ بها الاسلام من التعامل بالربا . لجأت أوروبا وامريكا الى طرق الحيلة بفصل العملة عن الذهب فهبط ثمن النقود وأخذت تراوغ في دفع الفوائد بعد أن نقصت رأس المال تخلصا من ذلك الكابوس الاقتصادي .

أفليست بهذه الطريقة تتلمس طريقها في الظلام لتهتدي الى طريق الخلاص وشعاع واحد من أشعة الاسلام يجلو عن العالم ذلك الظلام الدامس . وهو عدم التعامل بالربا . ثم أنظر الى الخراب الذي حل بمن استدانوا من المصارف المالية وبيعت أطيانهم بأبخس الاثمان . وما في ذلك من العبر

ان العالم يسير اليوم على نظام اقتصادي أصبح ثابتا وليس من السهل زعزعته بين يوم وليلة . ولكنه على أي حال نتيجة اعتماد الناس على تفكيرهم . ولكنهم أيضا يلجئون الى التخلص منه من طريق التجارب وهم يقتربون نحو الحقيقة بخطوات وئيدة .

الفصل السابع

تعليقات المستشرقين على التوحيد . وحياة محمد

لقد رأيت في الفصول السابقة أثر التوحيد في تحرير الفكر ، ومنع الوساطة بين الله وبين الانسان وان من مبادىء الاسلام ان يشعر الانسان بكفايته وقدرته العقلية على الفهم ، والمساواة بين الناس أجمعين ، وتحديد العلاقة بين الناس ، واجب صاحب السلطان نحو رعيته ، وواجب الرعية نحو الراعي ، كما يتجلى في كتاب سيدنا علي كرم الله وجهه « وقد تقدمت نبذة منه »

هذه المبادىء لا ترضي المستشرقين ، وليس من صالح الامم الغربية أن يعرفها أهلها حتى لا يندفعوا أيضا الى تلك المبادىء . ومن هنا كان عمل المستشرقين مزدوجا به تشويه الاسلام ، وتغيير أوروبا وحمايتها منه

ولذلك رأينا من فلاسفة أوروبا آراء أقل ما نقول فيها إنها عربدة في قالب مزخرف وجهل في ثوب منمق

فانظر الى رينان في كتابه عن ابن رشد ومذهبه اذ يقول : (ان خواص النفس السامية (أى التى منها العرب) تتجلى في انسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين والى البساطة في اللغة والصناعة والفن والمدنية ، أما النفس الآرية (التي منها أوروبا) فيميزها ميل فطري الى التعدد وانسجام التأليف)

وكثير من المستشرقين على هذا النمط المضحك من الاستنتاج ويريدون بذلك أن يقولوا إن دين العرب على قدر عقولهم

وليس أدل على عدم المنطق واغفال الحقائق في هذا القول من أن العرب قبل الاسلام كانوا مشركين غاية في الشرك فكيف اتفق ذلك مع ميولهم ولماذا

قاوموا الدعوة الاسلامية في مبدئها وكيف وصفوا في القرآن بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون)

وكان من شرك الجاهلية أن تلبيتهم في حجهم كانت الشرك المجسم فكانت قبيلة نزار تقول :

لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك

تملكه وما ملك

(راجع كتاب الاصنام)

ثم ارجع معنا إلى الفصل السابق من التوحيد وتدبر معنا سر الوحدة العربية وان الاسلام طبع الامم التي انتشر فيها بالطابع العربي وان لم يكونوا من المسلمين وليس أدل على العدل المطلق من أن يتكافأ الخصمان على تباين دينهما أمام الاسلام في القضاء . وأن لا يكون المسلم ميزة على غيره كما سبق.

هذه المسألة وهي التوحيد في المعاملة والتوحيد في النظر الى الاجناس المختلفة في ظل الاسلام لا ترضي جماعة المستشرقين لانهم طلائع التفريق وتشتيت الوحدات العربية والبلاد الإسلامية

فاستغلوا علومهم في البحث والتنقيب واختراع النظريات الملفقة والدعاوى المشعوذة فهاجموا أسماء قواد المسلمين وعظماء الفاتحين وأخذوا ينسبونهم الى غير العرب وغير الاسلام

وبذلك أصبحنا نقرأ من نفثات أقلام المستشرقين مباحث علمية عويصة - اقرأ واعجب - أن أهالي مراكش من البربر ماعرفوا الاسلام وما آمنوا به في يوم من الايام وأنهم ولا زالوا غير مسلمين وان العرب الذين فتحوا الاندلس وغزوا فرنسا وايطاليا كانوا مسيحيين ولن طارق بن زياد القائد المظم والذي رفع منار الاسلام في الاندلس لم يكن عربيا ولا مسلما ولكنه كان بربريا مسيحيا -

وقد استعار جيرو هذه النظرية للاصلاح القانوني في مراكش (راجع تقرير لجنة العمل المغربي المقدم للمؤتمر الاسلامي ببيت المقدس صفحة ٤)

وليس من غرضنا أن نتكلم في موضوع السياسة والاستعمار ولكن هذه النظريات ليس الغرض منها سوى تشتيت الامم وتمزيقها وخلق عصبيات متعددة فيها مما أصبح مألوفا لدى كل من له أقل المام أو اطلاع على تاريخ الاستعمار وطرق استثمار الخلافات في الجنس والدين

أما وحدة اللغة العربية فقد عمل المستشرقون كل ما يمكن عمله لتشويهها واظهارها في مظهر أضعف لغات العالم . وان اللغات واللهجات العامية خير منها استعمالا .

وصار يعدها المستشرق بريغو اللغة اللاتينية للعربي ، ويقول عنها في مقدمة كتابه الذي يدرسه الطلبة الفرنسيون باللغة العربية

« أتريد ياصاح أن تتعلم الكلام مع الاهالي الذين حولك ... »

الى أن يقول لا تظن « انني سأعلمك لغة القرآن فهذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهي لاتينية العربي . وهي اللغة المستعملة في جنة محمد وسأحبب اليك دراستها في المستقبل اذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين »

وبهذه الطريقة أصبح المستشرقون يناصبون اللغة العربية الفصحى العداء فيتشككون في النثر الجاهلي والشعر الجاهلي ويلقون الشك في كل شيء يتصل باللغة العربية ولهم في ذلك مباحث أقرب للتهريج منها الى العلم الصحيح ولمرسيه في ذلك آراء منقوضة وأفكار مردودة (راجع كتاب النثر الفني)

بقيت مسألة القرآن الكريم الذي هو الدعامة الثابتة التي عجز العالم عن التحرش بها . والصخرة العظيمة التي اذا أراد أكبر مستشرق أن ينطحها تكسرت جمجمته قبل أن يصل الى حرمها ، ولذلك رأينا آراءهم في ذلك تهريجا وشعوذة

هاك المستشرق مرجوليث أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد لم يترك نقيصة في العالم الا نسبها لسيدنا محمد ولم يترك فحشا من القول إلا نسبه للقرآن وإليك أمثلة من ذلك

قال في صحيفة ٢٣٦٤ من تاريخ العالم العام ما يأتي :

« وان كان محمد لم يترك تاريخا مفصلا لحياته إلا أن في القرآن كل عواطفه وإحساسه . والقرآن كسجل تاريخي ليس مرتبا حسب الحوادث والتاريخ ثم يقول

« وربما كان الكثير منه مما لم يتذكره الرواة تماما عند روايته وقد يكون بعضه دخيلا في عصر متأخر وبعضه مسلم به أنه في عصر الرسول ولو انه نسب اليه خطأ »

ثم يستفرغ مرجوليث من فيه كل انواع المطاعن فيقول من المشكوك فيه اننا لا نعلم اسم والد النبي لان لفظة عبد الله معناها في العهد الاخير الشخص المجهول وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبي وقصة يتمه التي وردت في القرآن لا يلزم أن نأخذ بها على معناها الادبي .

والعلاقة المفروضة بين أمه وبين أهل يثرب مسألة مشكوك فيها كالقصص التي جعلت الاسكندر الاكبر فارسيا أو مصريا بالنسبة لوالدته

إلى هذا الحد بلغ ذوقه وأدب المستشرقين عند كلامهم عن رسول الله ﷺ وأن الحياء ليمنعني أن أذكر المعنى العادي الذي قصده مرجوليث من قوله (ابن عبد الله) نسبه إلى الاب المجهول ومع ذلك يعجب بعض الناس بالمستشرقين وهم لا يعرفون من أمرهم شيئا

وانتقدنا طريقة مرجوليث هذا في هذا النوع من التهريج العلمي من غير سند أو دليل والقائه الكلام على عواهنه من غير اثبات فهذا — الخواجه — قال إن القرآن ملفق . وقال إن سيدنا محمداً — على أبسط تعبير — لا يعرف له أب أو أم

ونشرنا هذا الرد في مجلة المعرفة فأرسل مرجوليوث خطابا يعلق فيه على ماقلنا هذا نصه (١) .

أما ما كتب الدكتور حسين الهراوي في ذم المستشرقين فلو كان ما أودع مقاله من الشخصيات تلق بالآداب لم يكن مايمنع من الخوض في الموضوع والتمييز بين الخطأ والصواب . أما المسائل التي ذكرها فلست أرى فائدة في مداخلتها ، لانها أقرب إلي منابر الخطباء منها إلى مجالس الادباء

د . س . مرجليوث

وردا على ذلك نقول إننا تناولنا من آراء مرجوليث مسألتين مما كتبه في تاريخ العالم العام في الفصل التاسع والثمانين

الاولى أنه ذكر عن سيدنا محمد انه مجهول الاب والام

والثانية قوله إن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لايمكن تقليده ، أو الاخبار بأمور يمكن التحقق منها — ولم يكن للنبي وسيلة لمعرفتها وأننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين — عندما أذيع — لم يسلم من النقد فلامر الاول أن الذوق الكتابي يختلف كباقي الاذواق وعن الامر الثاني لوأنه وجدت وسيلة للتحقق من صدق النبي فهذا يفهم منه أنه أمكنه بنفس هذه الوسيلة معرفة الامر الذى ذكره

وكذلك قال مرجوليث ، إن محمداً اعترف في مبدأ رسالته بمعرفة القراءة والكتابة :

ولنناقش مرجوليث الحساب في هذه المسائل التى يرى أن ردنا عليها فيما مضى أقرب إلى منابر الخطباء منه الى مجالس لادباء

(١) المعرفة فبراير سنة ١٩٣٣

أي بعبارة أخرى ليس له علاقة بالادب العربي ولا بعلم من العلوم فاما عن والد سيدنا محمد فنحن ننكر على أدب أستاذ في جامعة اكسفورد ان يوجه مثل هذا الطعن في نبي يدين بدينه ملايين المسلمين . وان يتفوه بتهمة تترفع ابسط قواعد الآداب الاجتماعية العامة عن ان توجهها لاقل الناس مركزا - وثانيا - ان مرجوليث لايعرف شيئا عن الادب ولا الادب العربي · والا لعلم ان العرب كان فيهم نسابون ولو انه تكلم أولا عنهم — وعن مصادر الشك في أقوالهم وتنسيبهم — لكان لنا ان نناقشه بالادلة العلمية أما وهو لم يذكر شيئا من هذا فدليل على انه لايعرفه — وثالثا — لان جد محمد عليه السلام وعمه هما اللذان كفلاه صغيرا ولو كان مجهول الاب ما عرف له عم ولا جد وهذا يدل على ان مرجوليث لايعرف شيئا من تاريخ سيدنا محمد عليه السلام — ورابعا — ان عصبية محمد عليه السلام حمته في مبدأ رسالته ولو كان مجهول الاب ما كانت له عصبية

فاذا كان مرجوليث لايصدق شيئا من ذلك ولا بد ان يكون قرأه. فليقل لنا هو كيف يريد ان نصدق كلامه . وكيف امكن وجود أشخاص تربطهم بالنبي الكريم صلات العصبية حتى بعد الاسلام . اذا كنا ننكر كل ذلك لان مرجوليث قالها إذن فعلى العقول السلام .

ثم فليفسر لنا مرجوليث كيف مكنته نفسه وكيف مكنه ضميره ان يقول هذا . وعلى أي المراجع الموثوق بها عول في بحثه فهو اما لا يعرف شيئا مطلقا واما يريد التشهير والتشنيع ! وهذا مالا يشرف الباحثين .

ثم فليجبنا... أليست الانساب والنسابون جزءا من صميم التاريخ والادب العربي أم هي ضروب من خطب المنابر ؟!

واذا كانت ضروبا من خطب المنابر فكيف حفظ التاريخ انساب قوم لم يكن لهم مرتبته عليه السلام من الوجهة الاجتماعية والاثر الخالد

وكيف امكن معرفة نسب والدته وزوجه خديجه ؟ ثم كيف امكن تنسيب شعراء مشهورين مثل امريء القيس وغيره . ؟

أما القول في مسألة اعجاز اسلوب القرآن بانها مسألة ذوق فاني أرى ان مرجوليث - كما يستدل من اسلوب خطابه - ذو اسلوب ملتو ركيك يجعله آخر شخص يؤخذ برأيه في مسألة الذوق الكتابي بعد ان تحدى القرآن نفسه الناس كلهم بل الانس والجن مجتمعين ان يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا . فلم يبق في نظر صاحبنا مرجوليث الا نقد الاسلوب بميزان الاذواق التي تختلف دقة ورقة

ونحن معه على ان يكون الشرط الاساسي ان تكون هذه الاذواق سليمة تفهم روح العربية . والمستشرقون هم ابعد الناس عن تفهم تلك الروح ولهذا فانهم ينشرون مؤلفاتهم باللغات الاجنبية . وان كانت بعض مقدمات الكتب التي طبعوها قد كتبت باللغة العربية إلا ان الحكم على أساليبهم قد لا يرضيهم من الادب الكتابي الفني

واذا كان مرجوليث حصر اعجاز القرآن في الاسلوب والاخبار بالغيب فقد فاته ان ضروب الاعجاز في القرآن كثيرة ومنوعة . وليس من موضوعنا شرحها .

على اننا نسائل أستاذ الادب الاكبر!! ما قوله دام فضله في انواع الاعجاز العلمي التي اثبت العلم الحديث مدى صدقها ونذكر منها على سبيل المثال (وجعلنا الرياح لواقح) و (خلق الانسان من علق)

أي دور الحيوانات المنوية — و (وقد خلقكم اطوارا) وهي تتمشى مع العلم جنبا الى جنب ؟

فهل كشف العلم عن اعجاز هذه الآيات إلا حديثا ؟ وهل كان الميكروسكوب « المجهر » وعلم تكوين الاجنة معروفا من قبل عند نزول القرآن الكريم ؟؟

ولا يفوتنا ان نتكلم عن النقد فالنقد هو اسهل شيء في العالم . وبابه اوسع

الابواب — فقد ينقد شخص ما الخلقة البشرية بأن عيني الانسان في وجهه وليس له مثلهما في قفاه لينظر من خلف كما ينظر من الامام ؟؟

وقد ينتقد البهلوان طريقة السير على الاقدام ويستحسن ان يمشي الانسان على يديه رافعا قدميه في الهواء . كل هذه أنواع من النقد قد يراها أهلها صحيحة ولكن الذوق السليم والعقل السليم بصفة خاصة يأبيانها على ناقد .

وهذا هو النقد الذي يوجه الى تجاهل نسب النبي العظيم واسلوب القرآن لايقصد به إلا مجرد تشهير وتشنيع

وكيف يفسر قوله تعالى (اقرأ وربك الاكرم) بانها اعتراف من النبي الكريم بمعرفة القراءة وهل هذا يدل على انه يفهم روح القرآن ؟

وقد اطيل البحث اذا استقصيت آراء مرجوليث في مصادر القرآن التي يقول بها ويقول بها معه المستشرقون الذين ينحون نحوه فقد ادعوا ان النبي عليه السلام قد درس كل الفلسفة اليونانية ثم حفظ التاريخ الفارسي ثم عرف كل الاديان الهندية القديمة كما اطلع على كل حكم الصين واخرج من كل هؤلاء كتابا سماه القرآن .

ومعنى ذلك ان الدراسات التي استنفدت القرون الاولى حتى القرن العشرين وتخصص لها العلماء الذين عكفوا على دراسة لغاتها المتعددة والجولان بين آثارها البالية كل هذا قد تعلمه محمد عليه السلام في سياحته للشام

فاذا رجعت الى التاريخ وجدت ان هذه السياحة لم تكن إلا ثلاثة أشهر كما تقدم

فهل في هذا منطق يناقش ؟ وهل هذا اسلوب المنابر أم في صميم الادب العربي والتاريخ ؟

ولما نشرت المعرفة هذه المقالة للرد على مرجوليث . قطع اشتراكه من المجلة ولم يعد يراسل صاحبها وكان هذا هو الجواب . فتأمل !!

الفصل الثامن

حكاية فنسنك والمجمع اللغوي الملكي

سنوك هرجورونيه(١)هو رئيس أكاديمية هولاندا ومكث سبعة عشر عاما في جاوه مستشارا للحكومة في الشؤون الاسلامية: وقيل لنا أنه اتقن العربية وأدعى الاسلام وسافر إلى مكة ومكث فيها خمسة اشهر . وكان يأتم به المسلمون في صلاتهم.

وفنسنك تلميذه وساعده الايمن الآن في هولاندا . وفنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية التي ملؤها الطعن الجارح في الاسلام والحشو بأقذع المثالب . يحررها جماعة المستشرقين ومنهم مبشرون وقسس وخصوصا الاب لامانس . وتصور قسيسا مبشرا يكتب عن حياة سيدنا محمد أو عن القرآن أو التاريخ الاسلامي . وأي روح يملي عليه وأي مبلغ من المال يأخذ أجراً ؟!

ونحن نعرف الشيء الكثير عن المبشرين وطرقهم وأساليبهم وطالما تمنيت هذا اليوم الذي أقابل فيه سنوك هذا و فنسنك لاقول لهم رأيي فيهم في صراحة وجرأة وليس الاسلام بخاف عن أحد . وليس القرآن بغريب في العالم وليست العقول التي تفهم بمعدومة .

ان عصابة فنسنك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية تكتب على أسلوب القرون المتوسطة . وتفرض على الناس فرضا أن تعلمهم كل شيء ضد الاسلام . وأن تشعوذ في التاريخ وتخترع أساليب التهريج كما شرحناه لك في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب

واسم فنسنك دائما يتردد على لساني وأعتقد أن هذا الرجل قضى الشطر الاكبر من عمره يعمل على السخرية من الاسلام . ولم يفضح عمله انسان ولم

(١) ولد في ٨ فبراير سنة ١٨٥٧ وتوفي في ٤ يوليو سنة ١٩٣٦

ينتقد سنوك هرجرونيه . ولطائفة المستشرقين تلاميذ تعلموا في أوروبا وسرقوا مطاعنهم في الاسلام وروجوها باللغة العربية في أثواب مباحث علمية فكان مقتي لهذه الفئة أشد من مقتي للخواجة فنسنك .

وصدر المرسوم الملكي ووجدت فيه اسم فنسنك، فنشرت في اهرام ١١ من اكتوبر سنة ١٩٣٣ المقال الآتي :

لما اشتدت وطأة المبشرين في الاغواء ، والتضليل ، وغزو عقل المسلمين بمختلف الطرق عكفنا على دراسة شيء غير قليل من طرقهم ومؤلفاتهم وخرجنا بنتيجة رسخت في عقيدتنا رسوخا قويا . هي ان المستشرقين هم طلائع المبشرين وانهم هم الذين يمهدون السبيل لتشكيك المسلمين في عقائدهم، وانهم هم الذين يمهدون للمبشرين سبيل الطعن في الاسلام وفي نبيه الكريم وانهم هم الذين يزودونهم بانواع شتى من الشعوذة العلمية باسم الاستنتاج التحليلي ، والنقد الفني وحرية الفكر ، والمباحث العلمية الحرة

وخرجنا من كل مباحثنا هذه الى ان المستشرقين يتعمدون عند البحث في كل ما يختص بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ان يلغموا استنتاجاتهم العلمية بآرائهم الشخصية على ما فيها من خطأ وما فيها من غرض بما تمليه عليهم روح الاستعمار ومقاومة الاسلام في شخصية سيدنا محمد ﷺ أو في القرآن نفسه

وقد قسمنا المستشرقين ثلاث فرق ، قسم يختص بمباحث القرآن ، وقسم يختص بمباحث سيدنا محمد ، وقسم يختص بالتاريخ العربي الاسلامي

على ان من واجبنا ان ندرس كل مستشرق من جميع نواحيه وندرس كل مؤلفاته خصوصا اذا كان ممن يبحثون في القرآن أو حياة سيدنا محمد لان الخطأ اللفظي في كلمة عربية قد يجر الى البحث في العقائد الاسلامية وقد يكون له أثر شديد في الاسلام نفسه

ولقد فكرنا هذا التفكير عندما أردنا أن نباحث أحد المستشرقين أو اشباه المستشرقين ورأيناه يقلب قواعد اللغة العربية رأسا على عقب لكي يدخل شكا في الاسلام واليك مثلا من ذلك

كان أحدهم يدعي أن الاسماء لابد أن يكون لها معنى . فقلنا له أن الاسم ما دل على مسمى وليس من الضروري أن يكون له معنى يشتق منه . أو أصل معروف ، والمسألة بسيطة . هكذا تعلمنا في المدارس الابتدائية وهكذا تراها في القاموس فأصر على رأيه . ولكنه أعطانا مثلا غريبا هو أصل كلمة (حراء) وهو سم الغار الذي تعبد فيه سيدنا محمد ﷺ فقلنا لم يرد في اللغة العربية ما يجعلني أعرف مصدره أو معناه فقال ان (حراء أصلها (هيرا) وهو لاتيني ومعناه المقدس قلت انني أعرف ما تريد أن تستنتج . ان هيرا وهو الجبل المقدس هو اسم أطلقه الرومان على هذا الجبل الذي تعبدوا فيه فأنت تجعله في مكان (جبل الاوليمبيا) في اليونان ، ويتأتى من هذا الاستنتاج أن محمداً عليه السلام اتبع الاديان الاخرى فاعطنى الدليل المساوي على استنتاجك لانك تتكلم بلسان تحركه عواطف ضد الاسلام . فسكت

والحق أن عقلية هؤلاء المستشرقين وأشباههم مدهشة فأي لفظة عربية لها مشابه في اللغات الاخرى قالوا ان العربية استعارتها واذن فما قولهم فى لفظة « نيل ونبيل » التى توجد في كثير من اللغات والعربية أيضا بنفس المعنى

نقول هذا مقدمة للبحث الذى سنكتبه عن فنسنك وهو الاسم الذي ورد في ضمن أعضاء المجمع اللغوي . وسنناقش رأيه الحساب لان استنتاجاته ستؤخذ علينا وقد أصبح عضوا رسميا علينا أن نحترم رأيه

قالت دائرة المعارف الاسلامية تحت لفظة ابراهيم :

كان اسبرنجر أول من لاحظ أن شخصية ابراهيم كما وردت في القرآن

مرت بعده أطوار قبل أن تصبح في نهاية الامر مؤسسة الكعبة

وجاء سنوك هرجرونيه بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال ان ابراهيم في أقدم ما نزل من الوحي (في الذاريات آية ٢٤ وما بعدها ، الحجر آية ٥ وما بعدها ، الصافات آية ٨١ وما بعدها ، الانعام آية ٧٤ وما بعدها ، هود آية ٧٢ وما بعدها ، مريم آية ٤٢ وما بعدها ، الانبياء آية ٥٢ وما بعدها ، العنكبوت آية ١٥ وما بعدها) هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل ولم تذكر لاسماعيل صلة به . والى جانب هذا يشار الى ان الله لم يرسل من قبل الى العرب نذيرا (السجدة آية ٢ ، سبأ آية ٤٣ ، يسن آية ٥) ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا انه أول المسلمين

أما السور المدنية فالامر فيها على غير ذلك . فابراهيم يدعى حنيفا مسلما . وهو واضع ملة ابراهيم رفع مع اسماعيل قواعد البيت المحرم . البقرة آية ١١٨ وما بعدها ، آل عمران آية ٦٠ الخ)

ومن هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا ان اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن بد من أن يلتمس غيرهم ناصرا . هناك هداه ذكاء مسدد الى شأن جديد لابي العرب ابراهيم ، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليتصل بيهودية ابراهيم ، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للاسلام ، ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح ابراهيم أيضا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس »

والذي يكون خالي الذهن عن المستشرقين واعمالهم يظن لاول وهلة أن هذا بحث جليل مستفيض استقصى اصحابه سبرنجر وسنوك وفنسنك كل آيات القرآن واستخرجوا منها مواضع الضعف ، ويخيل الى الناظر في هذا الموضوع ان الاسلام قد زعزعت اركانه وانهم اكتشفوا أكتشافا من

الخطورة، كان حين يدعون أن محمدا عليه السلام أراد استغلال اليهود ثم اخفق ثم هداه ذكاؤه المبدد لشأن جديد لا في العرب

اما اليهود فقد سبق ان شرحنا مركزهم في الكلام عن الوسط والبيئة التي سبقت الاسلام، وأما هذه القائمة الكبيرة من الايات التي تخدع الناظر اليها فهي في نظرنا دليل على الضعف المطلق وهم بهذا أشبه بما يفعل المثلون، اذا وجدوا الرواية ضعيفة جعلوا المناظر أخاذة، وأكثروا من أشخاص الرواية ودفعوا بين الجماهير قوما مأجورين للتصفيق

كل هذا فكرنا فيه قبل أن نتقدم لنقد هذا البحث لاننا نعرف طريقة المستشرقين الملتوية وشذوذهم العلمية

وما علينا الا أن نراجع السور المكية جميعها والسور المدنية جميعها ونوازن بينها لنعرف إذا كانت السور المدنية هي وحدها التي انفردت بذكر نسب سيدنا محمد الى سيدنا ابراهيم بأبي البيت العتيق أولا؟ وفيما اذا كانت الحقائق التاريخية التي في متناول يدنا تتفق مع استنباط فنسنك أم لا. وما غرضه في التعريض بسيدنا محمد الى هذه الدرجة ؟؟

علينا اذن أن نراجع كل ذلك لنتمشى معه في بحثه فان كان ما قاله حقيقيا كان لنا أن نبحث فى استنباطه أيضا وعن السبب في عدم ذكر تلك الصلة في السور المكية اذ ربما كانت من المعترف بها ولا توجد مناسبة لتوكيدها في القرآن. أما اذا كان ما نقل من الآيات خطأ كان الرجل قد عثر من أول الطريق فلنتركه في تلك الحفرة التي وقع فيها ولننظر اليه كيف يجاهد في الخروج منها

ونحن لا يخامرنا شك في أن هذا الدين متين وان فنسنك وسبرنجر وسنوك أقل علما بفهم روح القرآن فضلا عن نقده

اذن فلنسر في البحث على بركة الله

قال فنسنك : — انه لم تذكر في السور المكية صلة سيدنا اسماعيل بسيدنا ابراهيم . فهل هذا حقيقي ؟ وذكر لنا سورة الانعام بالنص فهل هذا حقيقي ؟ لقد ذكر الآية الرابعة والسبعين بالنص أيضا فانظر الى الآية الخامسة والثمانين حيث ذكر اسماعيل صراحة «واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين» نعم ان أسماء الانبياء وردت جملة ولكن لكل واحد منهم نسبه المعروف . والمسألة الجديرة بالنظر هي لماذا حذف فنسنك رقم هذه الآية من تلك القائمة الطويلة التي استقصاها مع انها في نفس السورة التي ذكرها ؟ الجواب سهل وهو انها تهدم نظريته من أساسها . ولان هذه الآية نسبت هؤلاء الانبياء الى ابراهيم ثم الى نوح

ثم انظر الى سورة ابراهيم وهي مكية الآيتي ٢٨و٢٩ وانظر الى الآية ٣٤ وما بعدها حيث يقول ابراهيم :

« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ـ الى قوله تعالى ـ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل »

اذن فقد ورد في السور المكية التي اعتمد عليها فنسنك أن اسماعيل هو ابن ابراهيم وان ابراهيم دعا ربه عند بيت الله المحرم وقد ذكر هذا البيت في السور المكية التي أنكر وجودها فنسنك

نحن لا ندهش من اكتشاف الحقيقة فما كنا نشك فيها ولكننا ندهش أن قوما ينتسبون للعلم ويخدعون الناس جهلا أو تجاهلا

المسألة الثانية:

هل ورد في الآيات التي ذكرها فنسنك أن الاسلام دين قديم يمت الى ملة ابراهيم ؟ واذا كانت هذه الحقيقة قد وردت فلماذا لم يذكرها فنسنك ؟

ارجع الى نفس السور التي ذكرها فنسنك ففي الذاريات في الآية ٢٣ وما بعدها تجد حديث ضيف ابراهيم المكرمين يبشرونه بابنه ويقصون عليه قصة

لوط ومدينته وفي الآية ٣٤ يقول « فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فاوجدنا فيها غير بيت من المسلمين »

اذن ففي هذه الآية اعتراف صريح أن الاسلام دين قديم . هو ملة ابراهيم حيث يحدثه ضيفه عن بيت المسلمين :

اذن فدعوى فنسنك كلها خطأ . واستنتاجه كله خطأ

المسألة الثالثة :

يقول فنسنك أن آيات السجدة وسبأ ويس تشير الى أن الله لم يرسل من قبل للعرب نذيراً ، ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا انه أول المسلمين :

يريد فنسنك أن يقول بعبارة أخرى أن التاريخ المأخوذ من الاناجيل هو الحقيقة . وان ابراهيم لم يذهب الى مكة . وان هذه الدعوى لم تذكر في القرآن الا بعد الهجرة الى المدينة

وسياق هذه السورة من الآية ٣٤ وما بعدها :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ، رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني . ومن عصاني فانك غفور رحيم ، ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم . وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

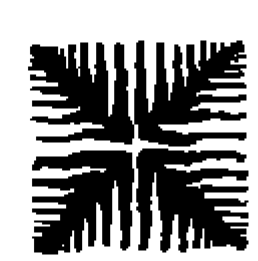
هذا يدل دلالة واضحة على أن ابراهيم كان أول من أسس هذا المكان المنعزل السحيق في واد غير ذي زرع لا تهوي اليه أفئدة الناس . ولا رزق فيه فدعا ربه : فاستجاب له

على انه يؤخذ من ذلك أيضا أن هذا كان أول عهد هذا المكان بالانبياء

وبتأسيس البيت ولم يذهب ابراهيم ليقيم دينا جديدا بين الناس في بلد آهل وهذا يستقيم مع معنى آية ٤٣ من سبأ في قوله تعالى « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير »

يكفي أن نذكر لفنسنك أنه لم يذكر الحقائق ولم يستقص ببحثه . وانه يستنبط قبل أن يبحث

أما الغرض من ذلك . فواضح لان الاستشراق مهنة ضد الشرق . وضد الاسلام



تاريخ هذا العدد

وضع تاريخ العدد الثالث نفسه على هذا العدد وصحة التاريخ انه : ٩ صفر سنة ١٣٥٥ — ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٦

فرصة لمشتركي المنار

رأينا ان نخفض لمشتركي المنار قيمة الاشتراك اذا سددوا اشتراك المجلد الخامس والثلاثين وذلك لنهاية رجب القادم فجعلناه خمسين قرشا للمشتركين في خارج القطر المصري وثلاثين للمشتركين في مصر فعلى الذين يحبون المنار ان يعملوا بالسداد انتهازا للفرصة ومساعدة لنا اذا أرادوا حياة المنار ولهم الشكر سلفا

الفصل التاسع

حكاية فنسنك «١»

﴿ المقال الثاني ﴾

اذا قلبت أي كتاب اجتماعي أو عمراني باللغات الغربية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الاسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يستسيغها منطق وليست من الحقيقة في شيء

ويوجه نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الاسلام من الصفات التي لا تنبو عن قواعد الذوق السليم والحقيقة فحسب . بل ان الكتاب الاوروبيين يصورون الاسلام بصورة بشعة قبيحة لا تكاد تقرؤها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ

فاذا كنت شرقيا صميما أولت ما يكتب في تلك الكتب الاجتماعية بانه جهل من المؤلفين بأحوال الشرق وعاداته . واذا كنت مسلما أسفت كثيرا أن يوصف الاسلام بصورة بشعة بعيدة عن الواقع وأسفت على أن الاوروبيين لا يعرفون شيئا عن حقيقة الشرق بصفة عامة وعن الاسلام بصفة خاصة فليس حقيقا ما ذكره مارشال في كتابه « الزواج » أن الام في مصر لا يباح لها أن ترى وجه ابنتها بعد سن الرابعة عشرة من أثر الحجاب فى الاسلام

وليس صحيحا ما جاء فى هذا الكتاب أيضا من أن الفتاة الريفية المصرية يباح لها أن تعري جسمها كله أمام الرجال أما وجهها فلا يراه انسان . . .

«١» ملخص مقال ٣٠ اكتوبر فى الاهرام وأول يناير سنة ١٩٣٤ في الهلال

وليس صحيحا ما وصف به الحجاب وما ذكره عن تعدد الزوجات . كما جاء في كتاب « نسبت عن الزواج والوراثة »

وليس صحيحا أن سيدنا محمدا كان رجلا شهوانيا محضا يشبع شهوات الشيخوخة بزواجه بالشابات « كما جاء في هذا الكتاب »

فأول ما نلاحظه في تلك الآراء انها مجرد تشنيع خال من الحق ومن العدل ويتجلى فيها سوء النية تجليا لا يقبل تأويلا أو تعليلا . ولا يمكن الدفاع عنه

ومن محاسن الكتب الافرنجية انها تكتب المصادر التي اعتمدت عليها في ابداء رأيها وتشير الى المراجع التى استقت منها تلك المعلومات . وكنت اتتبع تلك المراجع فأجدها راجعة الى بيئة واحدة هي جماعة المستشرقين

وفي الادب الافرنجي الحي كتب قيمة جدا تبحث في التاريخ العام والخاص وتاريخ الامم والنهضات العلمية . وهذه الكتب محترمة عند الاوروبيين فكنت أطالع فأجد فرقا كبيرا فيما تكتب من التاريخ القديم أو الحديث بلباقة ودقة علمية كوصف مصر القديمة وآثارها وسوريا وتاريخها . بل رأيت في تلك الكتب تاريخ بلدان ورسوم أماكن لا تستطيع أن تعرف موقعها على الخريطة ما لم ترجع الى معجمات مطولة ، وبين ما تكتب عن الاسلام ونبيه

فاذا تكلمت عن الاسلام والمسلمين أو عن حياة سيدنا محمد أجد تحريفا ظاهرا وكذبا واضحا . وتهريجا قبيحا

وانظر الى مرجوليوث حيث يقول : ربما كانت الطبيعة الجغرافية أو المناخ الاقليمي هو السبب في تأخر المسلمين ولكن نظرية وجود رجل واحد « أي سيدنا محمد » يكون هو وحده الرسول بين الله والناس ويكون هو وحده آخر طريق لهذه النظرية هي ثاني سبب لتأخر المسلمين »

فرجوليث لا يقول هذا لانهاض المسلمين ولكنه يقول هذا تشنيعا . وهو

الذي لم يترك نقيصة إلا ألصقها بالاسلام من غير سبب وها هو ذا كما ترى يتخيل نفسه على الاقل موزونا أو معقولا فيتكلم عن الاسلام . ولكي تفهم مقدار تحصيل مرجوليث هـذا للغة العربية نأتي لك بالمثل الآتى الذي ساقه صديقنا الدكتور زكى مبارك

فقد تعرض مرجوليث لشرح هذه الابيات

يقول لي الواشون : كيف تحبها؟ فقلت لهم: بين المقصر والغالي
ولولا حذارى منهم لصدقتهم وقلت هوى لم يهوه قط أمثالي
وكم من شفيق قال مالك واجما فقلت: اني مالي وتسألي مالي

والشطرة الاخيرة من هذه الابيات فيها خطأ كتابي فقط وصحته (فقلت ترى ما بي وتسأل عن حالي) ولكن مرجوليث العالم الضليم الذى ينتقد القرآن وأسلوبه ويتعرض للنبي ﷺ ويحقق تاريخ آبائه فيقول :انه ابن عبد الله يعني لرجل المجهول هذا العالم العلامة والحبر الفهامة يقول إن الشطر الاخير صحته:

(فقلت أنا مالى وان تسألى مالي)

وليس هذا التصحيح هو المضحك وحده وان كان اشنع من الغلط الاول ولكن المضحك حقاً أن يكون المصحح أستاذ لغة عربية ويتعرض لاسلوب القرآن أو يدعي نقده!!

ولسنا في مقام الرد علي أسباب وعوامل تأخر الامم الاسلامية فلاذي المستشرقين أنفسهم الأسباب

***

والظاهر أن المستشرقين جمعية دولية حتى إذا ألف مستشرق كتابا أو كتيبا ظهر في ثلاث لغات حية دفعة واحدة في فرنسا وانجلترا وألمانيا مع أن طبع هذه الكتب قد يستنفد كل ثروة المستشرق في الطبع والمدهش انك ترى في

مقدمة كل كتاب مستشرق قائمة بأسماء الذين عاونوه وساعدوه في البلدان الاخرى

وانى لاعلم أن المستشرقين تنقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية. وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم . وهي أنهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون الدليل عليه فاذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه والتمسوا الآيات التي تتناسب والمعنى المراد ولا مانع من بترها اذا اقتضى الحال أو تحريف معناها حسب الرغبة فيخرج القاريء من كلامهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق كما يقولون كما سبق شرحه في كلام مرجوليث .

بمثل تلك النواحي التي أسلفناها أصبحنا لا نقرأ المستشرق شيئا إلا ونحن نحرص على تفكيرنا وان نعنى بتعرف الغرض الذي يرمي اليه قبل أن نثق بما يكتب وأن نقتفي أثره فيما يبحث وفي مستنداته لانه دائما يبتر الحقائق فيقول ان القرآن فيه آية (لا تقربوا الصلاة)

وسنعطيك مثلا آخر فيما قال فنسنك تحت كلمة كعبة في دائرة المعارف الاسلامية صفحة ٥٨٧ النسخة الانجليزية .

« نحن لا نعلم شيئا عن شعور محمد الشخصي في شبابه نحو الكعبة أو العبادات المكية ولكن المفروض انه لم يشذ عن الجماعة

« وان ما ذكر في سيرته عن هذه المسألة مدة وجوده في مكة لا يوثق من جهة القيمة التاريخية . .

« وان الآيات المكية لم تخبرنا شيئا عن هذه العلاقات في تلك المرحلة الهامة من حياة النبي . على انه لم يظهر حماسته في حادثة نحو الحرم المكي . وفي المرحلة الاولى بعد الهجرة كان محمد في شاغل بمسألة أخرى مختلفة عن هذه جد الاختلاف . ولكن أخفقت العلاقات الطيبة المنتظرة مع اليهودية واليهود . وهناك حصل تغيير حيث أنه — بعد مضي عام ونصف عام على الهجرة ذكرت الكعبة

وذكر الحج في الوحي

« وأول مظهر من مظاهر التغيير كان وجهة القبلة . فلا يتجه المؤمنون في صلاتهم الى القدس بل الى الكعبة — (قد نرى تقلب وجهك في السماء — الآيات) ومن الوجهة الامرية فان هذا التغيير في القبلة برر بانه استئناف ملة ابراهيم — وهى — أي ملة ابراهيم — اخترعت خصيصا لهذا الظرف السورة ١٢٩ — آية — و٣ — ١٩ — كما بين سنوك هرجرونيه

«وقيل أن ملة ابراهيم هذه كان اليهود قد أخفوها ثم أظهرها محمد ومن ثم ادمجت فيها عبادات مكة »

وبعد . فقد انتهت الفقرة التي ننقلها من دائرة المعارف الاسلامية بقلم فنسنك ، فلنتعرف أغراضها ومراميها وحقيقتها

وأول ما يعترضنا عند النظر الى هذه الفقرة أن فنسنك رجل مقلد في السب والشتم والهجاء وان تقليده أعمى يقوده عكاز ضعيف من الاطلاع السطحي والظاهر انه في هذه المسألة يتبع آراء سنوك هرجرونيه ويتلمس أدلة جديدة ليضيفها الى أدلة أستاذه السخيفة

والمدهش أن هؤلاء المستشرقين يختلفون في كل شيء الا في هجاء محمد عليه الصلاة والسلام

فهذا فنسنك يقول : انه لا يعرف شيئا من شعور محمد عليه الصلاة والسلام نحو الكعبة في شبابه وبعد رسالته إلا بعد الهجرة بعام ونصف عام وان ما لديه من تاريخ حياته عليه الصلاة والسلام لا يصح أن يؤخذ أساسا تاريخيا

وزميل له في الاستشراق هو اميل درمنجهام يزعم أن محمدا كان يتعبد على مبادىء اليهودية أو النصرانية

ومرجوليث يقول ما قاله مالك في الخمر


Bibliotheca Alexandrina
0531227